

الآراء والمعتقدات

غوستاف لوبون

الآراء والمعتقدات

الآراء والمعتقدات

تأليف
غوستاف لوبون

ترجمة
عادل زعيتر



الآراء والمعتقدات

غوستاف لوبون

Les Opinions et les Croyances

Gustave le Bon

الطبعة الأولى ٢٠١٤م
رقم إيداع ٢٠١٣/٣٥٧٠

كلمات للترجمة والنشر
إن كلمات للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه
مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ +   **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org
الموقع الإلكتروني: http://www.kalimat.org

لوبون، غوستاف، ١٨٤١–١٩٣١.
الآراء والمعتقدات/تأليف غوستاف لوبون؛ ترجمة عادل زعيتر . – ط١ . – القاهرة: كلمات للترجمة والنشر، ٢٠١٣.
تدمك: ٨ ٢٣٧ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨
١–العادات والتقاليد
أ–زعيتر، عادل (مترجم)
٣٩٠

الغلاف: تصميم هاني ماهر.

المحتويات

إهداء

إلى صديقي العزيز غبريال هانوتو وزير خارجية فرنسا الأسبق، وأحد أعضاء المجمع العلمي الفرنسوي، والمؤرخ الكبير الذي يعلم بنظره الثاقب كيف يكتشف خلف ظواهر الأمور أسباب حدوثها.

غوستاف لوبون

مقدمة

بقلم محمد عادل زعيتر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله وصحبه وآله أجمعين.

أعرض على القراء ترجمة كتاب «الآراء والمعتقدات» للدكتور غوستاف لوبون؛ وبذلك أكون قد وفيت بوعدي في مقدمة كتاب «روح الاشتراكية».

ولا أرى أن ألخص هذا الكتاب في مقدمة طويلة؛ فالكتاب ذو مباحث كثيرة، ومطالب عديدة لا تُلَخَّص من غير أن تفقد شيئًا من قوتها، ولا يجزعنَّ القارئ من الصعوبة التي ربما يلقاها عند الشروع في مطالعته؛ إذ كلما تقدم فيه انجلت له الحقيقة، وزال عنه كل الغموض.

ولا يقل إننا نشاطر الدكتور لوبون جميع أفكاره وسوانحه؛ فعندنا أن الحقيقة غابت عنه في كثير من المسائل؛ ولا سيما في مسألة التوحيد والإشراك، وقد كنا نود أن نعلق عليها بعض حواشٍ لو لم نستصوب تَرْك ذلك للقارئ، وحَصْر عملنا في الترجمة.

ولا يسعني هنا إلا أن أشكر للأستاذ إلياس أنطون إلياس صاحب المطبعة العصرية الشهيرة، نشر ما نقلتُه إلى العربية من كُتب، ولصديقي الفاضل محمد علي الطاهر صاحب جريدة الشورى ما بذله من همة عالية في إظهارها.

والله الموفق، لا رب سواه.

الباب الأول

المعتقد والمعرفة

الفصل الأول

دائرة المعتقد ودائرة المعرفة

(١) صعوبة تفسير المعتقد

يخلطون المعتقد أحيانًا بالمعرفة على ما بينهما من اختلاف كبير؛ فالعلم والاعتقاد أمران مختلفان في تكوينهما ومصدرهما، وبالرأي والمعتقد يتم سيرنا، وعنهما تنشأ أكثر حوادث التاريخ، ولا فرق بينهما وبين الحادثات الأخرى من حيث كونهما تابعين لنواميس، وإن كانت هذه النواميس لم تعين حتى الآن.

لقد ظُن على الدوام أن دائرة المعتقد حافلة بالأسرار، وهذا هو سبب قلة الكتب التي تضمنت البحث عن مصادر المعتقد، مع أن ما تضمَّن البحث عن المعرفة كثير إلى الغاية، وما أتى به من المساعي القليلة في اكتناه المعتقد يكفي لبيان قلة الاطلاع على حقيقة أمره في الماضي، فلما رضي المؤلفون برأي (ديكارت) في المعتقد قالوا إنه صادر عن العقل والإرادة. وسيكون من مقاصد هذا الكتاب إثبات كون المعتقد غير عقلي وغير إرادي.

وما غابت صعوبة اكتناه المعتقد عن الفيلسوف العظيم (باسكال)؛ فقد أشار في فصل بحث فيه عن فن الإقناع إلى «أن الناس يعتقدون بتأثير العاطفة لا بتأثير الدليل والبرهان»، ثم قال: «إن بيان كيفية هذا الاعتقاد — أي الاعتقاد بتأثير العاطفة — هو من الصعوبة والدقة والغرابة بحيث يستحيل على من هو مثلي.»

ولكننا — بفضل مكتشفات العلم في الوقت الحاضر — نرى إمكان حل تلك المعضلة التي عجز (باسكال) عن بيانها، وبحلها نقدر على الإجابة عن كثير من الأسئلة المهمة التي منها: كيف تستقر الآراء والمعتقدات الدينية والسياسية؟ ولماذا نشاهد في كثير من المتصفين بسمو المدارك اعتقاد الخرافات والأباطيل؟ وما هي علة عجز العقل عن تغيير عقائدنا العاطفية؟ فلولا نظرية المعتقد لظل أمر الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها من المسائل غامضًا متعذرًا حلُّه، وليس العقل بمستطيع أن يفعل ذلك وحده.

وإذا أساء المؤرخون وعلماء النفس فَهْمَ حقيقة المعتقد؛ فذلك لأنهم حاولوا أن يشرحوا بالمنطق العقلي حوادث لم يملها العقل أبدًا، وسوف نرى أن عناصر المعتقد جميعها خاضعة لقواعد منطقية وثيقة لا صلة بينها وبين القواعد التي استعان بها العلماء في مباحثهم.

شغلت هذه المسألة بالي منذ مباحثي التاريخية الأولى، فكان يظهر لي أن المعتقد هو الفاعل الأصلي في التاريخ، ولكن كيف تقدر على إيضاح حوادث خارقة للعادة — كتأسيس المعتقدات — أوجبت قيام حضارات، وسقوط حضارات أخرى؟

لقد اعتنقت قبائل البدو في جزيرة العرب دينًا أتى به أمِّيٌّ، فأقامت بفضل هذا الدين — في أقل من خمسين سنة — دولة عظيمة كدولة الإسكندر، زيَّنت جيدها بقلادة من المباني الفخمة التي هي آية في الإعجاز، وقبل ذلك ببضعة قرون آمنت شعوب متوحشة بعقيدة دعا إليها رسل أتوا من زاوية مجهولة في بلاد الجليل، فقوضت بتأثير هذه العقيدة دعائم العالم القديم، مقيمة على أنقاضها حضارة جديدة ينطق كل عنصر منها بذكر الرب.

وبعد أن مضى ما يقرب من عشرين قرنًا تزعزع ذلك الإيمان، وظهرت في سماء الفكر نجوم كانت مجهولة، فقام شعب عظيم، ورفع راية العصيان زاعمًا أنه قطع علائقه بالماضي، وقد منحه إيمانه المخرب القوي قدرة استطاع بها أن يهيمن على أوروبا المدججة بالسلاح، وأن يدخل جميع عواصمها ظافرًا على رغم الفوضى التي ألقته الثورة فيها.

فكيف يمكن اكتناه ما في المعتقدات من قوى عجيبة كالتي ذكرناها؟ ولماذا يخضع الإنسان بغتةً لإيمان كان يجهله بالأمس؟ وما هي العلة التي بها يرفع الإيمان الإنسان إلى مستوى أرفع من مستواه؟ وما هي العناصر النفسية التي تنبجس منها هذه الأضرار؟ سنسعى في الإجابة عن جميع ذلك.

لتكوين الآراء والمعتقدات وذيوعها وجوه خارقة للعادة تجعل المؤمنين يعزونهما إلى مصدر إلهي، ومما يشيرون إليه هو أنهم يعتنقونها مع مخالفتها لأكثر منافعهم وضوحًا، نعم … قد يمكن إدراك السبب في انتشار الدين المسيحي بين من يعدهم بسعادة أبدية من عبدان ومحرومين طيب العيش، ولكن ما هي القوى الخفية التي كانت تحمل الشريف الروماني على التجرد من أمواله، وتعريضه نفسه للعذاب في سبيل دين جديد ترفضه العادة، ويأباه العقل، وتحرِّمه القوانين؟

لا يجوز نسبة تسليم الناس بذلك الدين إلى سخفهم؛ فلقد سلَّم به أيضًا أرباب العقول النيرة منذ القرون الأولى حتى يومنا هذا.

ولا يكون ما يقال في المعتقد من نظريات قيمًا إلا بإيضاح هذه المسائل كلها، ومما يقتضي أن تتضمنه هذه النظريات على الخصوص هو بيانها كيف يعتقد صفوة العلماء — الذين بلغت فيهم روح النقد منتهاها — أساطير صبيانية مضحكة، قد نتصور أن (نيوطن) و(باسكال) و(ديكارت) وغيرهم ممن عاشوا في بيئة مشبعة من بعض العقائد، رضوا غير مجادلين بهذه العقائد رضاءهم بنواميس الكون المقدرة، ولكن لماذا لم تضمحل تلك المعتقدات اضمحلالًا تامًّا في أيامنا التي سطعت فيها أنوار العلم على كل بيئة؟ ثم لماذا تظهر أوهام غريبة مكان المعتقدات المنحلة، كما يؤيد ذلك انتشار طريقة استخدام الأرواح بين أفاضل العلماء؟ يجب أن نجيب عن جميع هذه الأسئلة أيضًا.

(٢) ما الفرق بين المعتقد والمعرفة؟

لنبين أولًا ما هو المعتقد، وبماذا يختلف عن المعرفة. فالمعتقد هو إيمان ناشئ عن مصدر لا شعوري يُكرِه الإنسان على تصديق فكر أو رأي أو تأويل أو مذهب جزافًا، وسوف نرى أن العقل غريب عن تكوين المعتقد، ولا يأخذ العقل في تبرير المعتقد إلا بعد أن يتم تكوينه.

يجب أن نصف بالمعتقد كلَّ ما هو من عمل الإيمان، ومتى استعان المرء في تحقيق صحة المعتقد بالتأمل والتجربة لا يظل المعتقد معتقدًا، بل يصبح معرفة. فالمعتقد والمعرفة أمران نفسيان يختلفان من حيث المصدر اختلافًا تامًّا؛ إذ المعتقد كناية عن إلهام لا شعوري ناشئ عن علل بعيدة من إرادتنا، والمعرفة عبارة عن اقتباس شعوري عقلي قائم على الاختبار والتأمل.

وما اكتشف الإنسان الغائص في بحر المعتقد أمر المعرفة إلا في زمن ضُرب فيه بسهم وافر من الرقي، وكلما تقدم في عالم المعرفة ظهر له أن الحوادث التي عزا الناس ظهورها إلى موجودات علوية لم تحدث إلا بتأثير نواميس قاهرة.

وقد تغيرت صورة فهم الكون في الإنسان منذ اقترب من دائرة المعرفة، ولكنه يصعب الخوض في هذه الدائرة الجديدة كثيرًا؛ لأن العلم يرى على الدوام شيئًا من المجهول متخللًا في مكتشفاته، فأكثر الحقائق وضوحًا تُبطِن شيئًا من الأسرار.

لا يزال العلم مشبعًا من مثل تلك الدياجير المدلهمة، وكلما بلغ أفقًا بدت له آفاق جديدة تائهة في فضاء لا حد له، فهذا العالم الواسع الذي لم يستطع أي فيلسوف أن يضيئه هو ملكوت الأحلام التي تبذر في النفوس آمالًا لا يؤيدها الدليل والبرهان، وفي هذا الملكوت تجد المعتقدات الدينية والمعتقدات السياسية وكل معتقد آخر قوةً غير محدودة.

ومع أن الوصول إلى حقيقة علمية صغيرة يتطلب كدًّا طويلًا، فإن حيازة يقين لا ركن له سوى الإيمان لا يطلب شيئًا من السعي، فكل من الناس له معتقد، ولكن ما أقل الذين يصعدون منهم إلى سماء المعرفة.

يشتمل عالَم المعتقد على منطقه وسننه، ومنذ القديم حاول العلماء عبثًا أن يلجوا فيه مستعينين بمناهجهم وأساليبهم، وسنرى في هذا الكتاب لماذا يضيع العلماء ما فيهم من ملكة الانتقاد عندما يدخلون في دائرة المعرفة ذات الأوهام الخادعة.

(٣) شأن المعتقد وشأن المعرفة

المعرفة هي عنصر الحضارة الأساسي، وهي العامل الكبير في ارتقائها المادي، وأما المعتقد فهو الذي يرسم وجهة الأفكار، ومن ثم وجهة السير.

كان الناس فيما مضى يعزون المعتقدات إلى مصدر إلهي، فكانوا يعتنقونها غير مجادلين فيها، وعلى رغم علمنا في الوقت الحاضر أنها صادرة عن أنفسنا فإنها لا تزال ذات سلطان علينا، وما تأثير قوة البرهان فيها إلا كتأثيره في الجوع والعطش، فلما نضج المعتقد في منطقة اللاشعور حيث لا يصل إليها العقل عاناه المرء غير محاج فيه.

ومصدر المعتقدات اللاشعوري وغير الإرادي يمنحها قوة عظيمة، فللمعتقدات دينية كانت أم سياسية أم اجتماعية شأن كبير في التاريخ على الدوام؛ إذ لا تلبث المعتقدات بعد أن تصير عامة أن تصبح قطوبًا جاذبة تجذب حواليها كيان الشعوب، وتطبع سمتها على كل عنصر من عناصر حضارتها، فتوصَف الحضارة حينئذ باسم الدين الذي أوحي إليها، ولذلك كانت أسماء الحضارة البوذية والحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية أسماء صحيحة صائبة إلى الغاية، ومتى صار المعتقد قطب جذب أصبح قطب تغيير أيضًا؛ لأن عناصر الحياة الاجتماعية المختلفة من فلسفة وفنون وأدب تتبدل لتلتئم به.

والثورات الحقيقية هي التي تتجدد بها معتقدات الشعب الأساسية، غير أنه يندر وقوع مثل هذه الثورات، والذي تأتي به الثورات عادةً هو تغيير اسم العقائد فقط؛

فالإيمان يتبدل موضعًا، ولكنه لا يموت أبدًا؛ لأن احتياج الإنسان إلى الاعتقاد هو عنصر نفسي مسيطر كاللذة والألم.

روح الإنسان تمقت الشك، ولا تطيق الارتياب، وإذا تطرق الشك أحيانًا إلى قلب الرجل فذلك لأجل محدود، فالإنسان يفتقر إلى إيمان ديني أو سياسي أو أخلاقي يهيمن عليه ويكفيه عناء التفكير، وإذا تداعى معتقد فذلك ليحل مكانه معتقد آخر، ولا حول للعقل إزاء هذه السنَّة القاهرة التي لا تتبدل.

والإيمان في الوقت الحاضر ليس بأقل منه في القرون الغابرة، وما يوعظ به في المعابد الجديدة من عقائد لم يكن أخف وطأة من عقائد الماضي، ولهذه المعابد أنصار عددهم كعدد أنصار المعابد السالفة، فقد أخذ المعتقد الاشتراكي أو المعتقد الفوضوي يقوم مقام المعتقد الديني الهرم دون أن يكون بين الطرفين فرق من حيث القهر والتجبر. والحانة مع كونها تحل مكان الكنيسة في الغالب إلا أن مصدر ما يُسمع فيها من مواعظ يأتي به الزعماء هو الإيمان أيضًا.

وإذا كانت نفسية المؤمنين لم تتطور ولو قليلًا منذ القديم — حيث كانت (إسيس) و(حاتحور) تجذبان إلى معابدهما على ضفتي النيل ألوفًا من الحجاج المتحمسين — فذلك لأن المشاعر التي هي أسس النفس الحقيقية حافظت على ثباتها ورسوخها في غضون الأجيال، فالذكاء يتقدم، وأما المشاعر فلا تتبدل. لا ريب في أن الإيمان بمعتقد لا يكون على العموم إلا وهمًا، ولكننا لا نأسف على ذلك؛ لأن الخيال يصبح بفضل الإيمان أقوى من الموجود حقيقةً، ومتى تعتنق أمة معتقدًا فإن هذا المعتقد ينعم عليها بتجانس فكري هو سر وحدتها وقوتها.

وبما أن دائرة المعرفة تختلف عن دائرة المعتقد اختلافًا كبيرًا، فمن العبث أن نقيس الأولى بالثانية كما يفعل أكثر العلماء، على أن العالم مع تخلصه بالتدريج من ربقة المعتقد فإنه لا يزال مشبعًا منه، وينقاد إليه في جميع المواضيع التي لم تُعلم جيدًا؛ كدقائق الحياة وأصل الأنواع مثلًا، فما قيل في هذه المواضيع من النظريات هو عقائد ليست على شيء من الاعتبار إلا بعزوها إلى الأساتذة الذين وضعوها.

ولا تطبق سنن المعتقدات النفسية على العقائد الكبيرة الأساسية — التي وسمت لحمة التاريخ بوسم ثابت لا يُطمس — فقط، بل تطبق أيضًا على أكثر آرائنا اليومية الموقتة فيما يحيط بنا من موجودات وأشياء، فالمشاهدة تدل على أن أكثر هذه الآراء ترتكز على عناصر عاطفية أو دينية مصدرها اللاشعور، وإذا كان الناس يجادلون في أمره بحماس فذلك لأنها من فصيلة المعتقد، ولأنها تتكون مثله.

إذن من الخطأ أن يظن الإنسان أنه يخرج من دائرة المعتقد عندما يعدل عن عقائد انتقلت إليه وراثةً، وسوف نرى أنه كلما حاول أن يتخلص منها غاص فيها أكثر من ذي قبل.

ولما كان ما ينشأ عن تكوين الآراء والمعتقدات من مسائل هو من جنس واحد؛ فقد وجب البحث فيها على طراز واحد، فعلى ما بين الآراء والمعتقدات من تباين في النتائج على الأكثر فإن الطرفين من فصيلة واحدة تختلف عن فصيلة المعرفة اختلافًا تامًّا.

يرى القارئ أهمية المسائل التي نعالجها في هذا الكتاب وصعوبتها، فلقد تصورتها في سنين كثيرة تحت سماوات مختلفة، تارةً وأنا أنعم النظر في ألوف من الهياكل التي أقامها البشر منذ ثمانين قرنًا؛ تمجيدًا لآلهته التي استحوذت على خياله، وتارةً وأنا تائه بين أساطين المعابد العظيمة العجيبة المنعكس ظلها على مياه النيل الجليل، أو التي أقيمت على ضفتي نهر الغانج، وكيف أعجب لهذه العجائب من غير أن أفكر في القوى الخفية التي أوجدتها من العدم؟

مصادفات الحياة ساقتني إلى التنقيب عن فروع العلم الخالص وعلم النفس والتاريخ، فاستطعت أن أدرس الطرق العلمية التي يصل بها الإنسان إلى المعرفة، وإلى العوامل النفسية التي يتولد منها المعتقد، فالمعتقد والمعرفة هما التاريخ كله والحضارة كلها.

الفصل الثاني

طرق البحث في علم النفس

استعان علم النفس في تكوينه بطرق كثيرة، ولا نستفيد من هذه الطرق في بحثنا عن مسائل الآراء والمعتقدات، فسيرى القارئ من ذكرها مختصرةً أننا لا نستطيع أن ننتفع بها في مباحثنا إلا قليلًا.

(١) الطريقة الروحية

الطريقة الروحية هي أقدم طريقة استعملت في البحث في النفس، وقد امتد دور تطبيقها وحدها زمنًا طويلًا؛ فالمفكر — حسب هذه الطريقة — كان يختلي في غرفة مطالعته متجردًا عن العالم الخارجي؛ فيفكر في نفسه، وفيما استنبطه من النتائج في الكتب.

لا شك في أنه ظهرت في القرن السابق طرق علمية أحسن من الطريقة الروحية، ولكنها غير مثمرة مثلها، وإليكها:

(٢) الطريقة النفسية الجثمانية

لما ظهرت هذه الطريقة ظُنَّ أنه سيكون لها مستقبل مجيد لتطبيقها حوادث الجسم على أحوال النفس، ولكن سرعان ما بدا للعلماء ضيق دائرتها؛ إذ لم تطبق تلك الحوادث إلا على أبسط الأحوال النفسية؛ كسرعة المؤثر العصبي، والزمن الضروري لانعكاس الحركة، والنسبة العددية بين التهييج والحس … إلخ، على أن أمورًا كهذه هي بالحقيقة عضوية قلما ينتفع بها علم النفس.

(٣) طريقة المراكز الدماغية

تسعى هذه الطريقة إلى إسناد أي خلل في وظائف النفس إلى ضرر يقع في أحد الأعصاب، على هذه الصورة ظُنَّ أن في الدماغ مراكز هي مصدر أي عمل نفسي، إلا أنه قد غُضَّ النظر عن تلك المراكز الآن، حتى التي لاح منها أنه ثابت صحيح؛ كمركز النطق ومركز الخط.

(٤) طريقة الفحص والاختبار

ظل النجاح حليف هذه الطريقة وقتًا طويلًا، حتى إن المختبرات النفسية لا تزال مملوءة بآلات توزن بها الحركات التي يُظَن أنها ذات علاقة بالعقل والذكاء، وقد طبع عدد غير يسير من الرسائل في البحث عن هذه الحركات، فسلَّم بما جاء فيها بضعة علماء مشهورين، والرسالة التي نشرها أحد أنصار هذه الطريقة المتأخرين باحثًا فيها عن الرياضي (هنري بوانكاره) تدلنا على أن حظ علم النفس من الطريقة المذكورة ضئيل إلى الغاية، ولذا أهملت تمامًا في الوقت الحاضر.

(٥) طريقة درس الأمراض النفسية

هذه الطريقة هي التي أتت أكثر من غيرها بوثائق على النشاط النفسي اللاشعوري، وعلى التصوف والتقليد، وانحلال شخصية الإنسان … إلخ، وهي على رغم كونها حديثة في تطبيقها فقد علمها أكابر الكتاب والروائيين السابقين ك (شكسبير)، حقًّا لقد اكتشف هؤلاء — لما فيهم من دهاء عظيم ونظر ثاقب — حوادث لم يعينها العلم إلا أخيرًا، فاطلعوا على أن (مكبث) متهوس، و(عطيل) مصاب بالصرع، و(هملت) سكِّير استحوذت عليه وساوس الخوف، والملك (ليار) سخيف سوداوي ذو جنون غير مطبق. ومما يجب ملاحظته هو أنه لو كان هؤلاء الأشخاص المشهورون في حالة اعتدال بدلًا من أن يكونوا ذوي نفسية مختلة مذبذبة لما اهتم الأدب والفن بأمرهم.

(٦) طريقة القياس النفسية

مع اكتفاء هذه الطريقة الحديثة — حتى الآن — بالبحث عن الغرائز، وعن قليل من الانفعالات البسيطة، فإنه يظهر أنها ستكون إحدى الطرق المعتبرة في المستقبل. يقول

أنصارها: إنه لا بد من فحص أحوال الحيوانات الدنيا لفهم نفسية الإنسان، غير أن هذا البيان لم ينل بعد ما يستحقه من الحظوة عند علماء النفس الذين يزعمون وجود فرق قاطع بين عقل الإنسان وبين عقل الحيوان الذي هو دونه، فهم على عكس الطبيعة التي لا تعرف مثل هذه الفروق القاطعة، فقد قطعنا الدور الذي كان (ديكارت) يعد فيه الحيوانات آلات متحركة.

ومع ذلك فإن تطبيق الطريقة المذكورة كثير المصاعب؛ إذ نشاهد أن حواس الحيوانات ومشاعرها تختلف عن حواسنا ومشاعرنا، ثم إن من يود أن يكتنه الحيوانات فعليه أن يلاحظ حركاتها وسكناتها ملاحظة وثيقة دقيقة، ولمَّا كان هذا العمل شاقًّا، فإن علم نفس الحيوان — حتى العليا — لا يزال في المرحلة الأولى.

والطريقة التي اتخذناها في هذا الكتاب للبحث عن الآراء والمعتقدات يشعر القارئ من الطرق التي ذكرناها آنفًا بأنها لا تصلح لبيان تكوين الآراء والمعتقدات وتطورها، ولذلك فإننا مضطرون إلى الاستعانة بطرق أخرى. لقد حللنا — بعد أن درسنا ما هو مرتع لنفوذ المعتقد من ذكاء، ومشاعر، ولاشعور … إلخ — المعتقدات الدينية والأخلاقية … إلخ، باحثين عن عللها وأسبابها القاهرة، ومن تاريخ الماضي والحوادث اليومية الحاضرة تتكون مقومات موضوعنا، فالمعتقدات العظيمة هي في الغالب تراث الماضي، والذي يجلب النظر فيها كثيرًا هو كونها حافلة بالمستحيلات التي يرفضها العقل النظري، وعندما نوضح كيفية اعتناقها يظهر لنا أن الرجل المتعلم والعالم الذي تعود مناهج المختبرات الدقيقة يفقد في ميدان المعتقد كل ما فيه من ملكة انتقاد، ويؤمن بالمعجزات، وسيكون لنا في البحث عن مظاهر السحر والشعوذة بينات قاطعة في هذا الموضوع، وسوف نرى أن كثيرًا من مشاهير علماء الطبيعة زعموا أنهم عاشوا بين الأشباح، وأن أحد أكابر الأساتذة في علم وظائف الأعضاء قصَّ أنه استحضر الأموات وحادثهم، وأن أستاذًا آخر ليس أقل فضلًا منه قال مؤكدًا إنه رأى مقاتلًا لابسًا خوذة خرج من جسم فتاة تامَّ الأعضاء، كما دل على ذلك فحص دورته الدموية وآثار تنفسه.

تثبت لنا هذه الحوادث أن العقل عاجز عن التأثير في أكثر المعتقدات خطأً، ولكن لماذا يبدو من الإنسان مهما تكن تربيته سذاجة متناهية عندما يدخل في ساحة المعتقد؟ قد سعينا لاكتشاف هذا السر في توسيعنا نطاق البحث، فدرسنا مصدر الحركة في أنواع الحيوان؛ فظهر لنا أن ما أتى به العلماء من إيضاح لم يكن ناقصًا أو لاغيًا إلا لمحاولتهم تطبيق مناهج المنطق العقلي على حوادث لم يملها العقل أبدًا، ثم بدا لنا أنه يوجد في

حركات الحياة المعقدة — كما في عالم اللاشعور الذي هو باعث الحركة الحقيقي — انتظام لا تأثير للعقل فيه، ولا يمكن تعيينه بألفاظ غير صريحة كلفظ «الغريزة» مثلًا.

وبتوغلي في هذه المواضيع تحققت وجود أنواع منطقية هي — مع ما بينها وبين المنطق العقلي من تباين — أرفع أو أدنى منه بحسب الأحوال، على هذه الصورة استطعت أن أضم إلى المنطق العقلي الذي علم منذ القديم، والمنطق العاطفي الذي بحث عنه منذ بضع سنين، أنواعًا منطقية جديدة قد تتنضد، وقد تتصادم مغيرة أوضاع نفسيتنا، والذي يسيطر منها على دائرة المعرفة لا علاقة له بالمعتقدات أصلًا، وهذا هو السر في كون العالم ذي الفكر النير قد يأتي بآراء عقلية متناقضة حسب وجوده في دائرة المعرفة، أو في دائرة المعتقد.

وليس علينا أن نطالب علم النفس المزاول إيضاح تلك المسائل، فقد ذكر علماء النفس؛ ولا سيما (ويليام جيمس) «أن علمًا يدب الانتقاد النظري في جميع مفاصله لسريع العطب»، ثم قال: «إننا ننتظر وميضًا ينفذ ظلام الحقائق النفسية الأساسية.» ونحن مع كوننا لا نشاطر تمامًا رأي هذا المفكر الشهير قوله: «إن كتب علم النفس لا تحوي سوى سلسلة من الحوادث التي لم تلاحظ بدقة، ومماحكات عنيفة، ونظريات تنم على الثرثرة»، فإننا نعترف معه «أن علم النفس المُزاوَل لا يشتمل على قاعدة نستنبط منها نتيجة كما يستنبط المعلول من العلة».

إذن فإننا نحاول بناء نظرية في تكوين الآراء والمعتقدات وتطورها على أرض مكتظة في الظاهر، وهي بكر في الباطن.

الباب الثاني

ميدان الآراء والمعتقدات النفسي

الفصل الأول

عوامل الحركة

اللذة والألم

(١) شأن اللذة والألم

اللذة والألم هما لسان الحياة المادية والمعنوية، وعنوان الكدر والصفاء في الأعضاء، وبهما ترغم الطبيعة الحيوان على الإتيان بأعمال يستحيل الوجود بدونها، وعليه فإن اللذة والألم دليلان على حال معنوية باطنية — أي معلولات لعلل — كما أن الأعراض نتيجة لمرض.

ومن الشعور باللذة والألم تتكون قوة الإحساس، ومن هذه القوة تشتق حياة الإنسان المادية والمعنوية، ويكون لسان الأعضاء المعبر عنه باللذة والألم متجبرًا بنسبة ما يقتضي من الحاجات، ومن هذه الحاجات ما هو قاهر غير ممهل كالجوع مثلًا.

الجوع هو أشد الآلام هَولًا، والحب هو أكثر اللذات تغلبًا، وقد نقول كما قال الشاعر الكبير (شيلر): «إن قوام العالم هو الجوع والحب!» وأما أنواع اللذة والألم الأخرى فهي عوامل أقل سطوة وشدة، ولذلك أخطأ (شوبنهاور) حيث قال: «إنه يمكن إرجاع جميع العوامل التي تحرك الإنسان إلى ثلاث: الأثرة، والخبث، والرحمة.»

وقد أنكر بعض الفلاسفة في هذه السنين شأن اللذة والألم في حركاتنا، قال (ويليام جيمس): «لا تأثير لهما في انفعالاتنا، فمن الذي يعبس للتلذذ بالعبوس؟ ومن الذي يتنفس للتلذذ بالتنفس؟» فإقامة الحجة على هذه الصورة أمر غير صحيح، فالإنسان لا

يتنفس للتلذذ بالتنفس، وإنما يتنفس درءًا للألم الناشئ عن قطع النَّفَس، وكذلك فإنه لا يعبس للتلذذ بالعبوس، وإنما يعبس عند كدره الذي هو من أنواع الألم.

(٢) صفات اللذة والألم المتقطعة

لا استمرار في اللذة والألم، فمن طبيعتهما الوهن السريع، ولا يحدثان إلا ليكونا غير مُطبقين، فإذا استمرت اللذة فلا تبقى لذة، وينقص الألم إذا اتصل ولم ينقطع، وقد يصير نقصان الألم لذة.

وعليه، فاللذة ليست لذة إلا إذا لم تتصل، ولا تكون اللذة معروفة إلا إذا قيست بالألم، وقول بعضهم وجود لذة أبدية كلام خالٍ من كل معنى كما ذكر أفلاطون؛ فالآلهة — على رأي أفلاطون — لا تعرف الألم، ولذلك فإنها لا تشعر باللذة.

وتقطُّع اللذة والألم هو نتيجة ناموس عضوي قاضٍ بجعل التبدل أساس الإحساس، فنحن لا نشعر بالأحوال إذا اتصلت، ولكننا نشعر بالفروق بين الأحوال التي تقع في آنٍ واحد، أو التي تقع متوالية مترادفة، فطقطقة الساعة مهما تعلُ لا تلبث ألا تُسمع، والطحان لا يفيق من جعجعة رحاه، بل من انقطاعها، ولهذا السبب فإن اللذة بامتدادها تصبح غير لازمة ما لم تنقطع، وسرعان ما يصير نعيم الفردوس الذي يحلم به المؤمنون غير جاذب إذا لم يتنقلوا مناوبةً من النار إلى الجنة ومن الجنة إلى النار.

واللذة أمر نسبي تابع للأحوال؛ أي إن ألم اليوم قد يصبح لذة في الغد، والعكس بالعكس، فيصير ألم الرجل الذي أُكرِه على أكل كسرات خبز يابسة بعد أن تغذى غذاءً وافرًا لذةً إذا تُرك أيامًا في جزيرة جرداء على أن يأكل من تلك الكسرات.

وقد أصاب المثل العامي القائل: «إن الإنسان يتمتع باللذة التي تروقه حيث يجدها.» فلذة العامل الذي يشرب صاخبًا في الحانة تختلف عن لذة المتفنن والعالم والمخترع والشاعر — وقتما يجدُّون في أعمالهم — اختلافًا كبيرًا، ولا ريب في أن اللذة التي حصلت لـ (نيوطن) من اكتشافه سنن الجاذبية هي أعظم من اللذة التي تحصل له لو انتقلت إليه نساء كثيرات من نساء الملك سليمان.

ويظهر لنا شأن اللذة والألم ظهورًا واضحًا عندما نتخيل الأرواح التي يعتقد وجودها المؤمنون بأكثر الأديان، فلما كانت هذه الأرواح عاطلة من الحواس والمشاعر فإنها لا تبالي باللذة والألم، ولا تعرف شيئًا من بواعث حركتنا، وما كان يقلقها من

أكدار أحبائها وشدائدهم لا يؤثر فيها، ولا تشعر لهذه العلة بحاجة إلى مناجاتهم، ومن هنا نقول: إن وجود هذه الأرواح وهمٌ لا أساس له.

(٣) الرغبة نتيجة اللذة والألم

اللذة والألم يورثان الرغبة؛ أي الرغبة في بلوغ اللذة واجتناب الألم، فالرغبة هي المحرك الأساسي للإرادة، والباعثة على العمل.

والرغبة هي التي توحي إلى الإرادة التي تكون بدونها معدومة، وعلى نسبة الرغبة تكون الإرادة قوية أو ضعيفة، ومع ذلك لا يجوز خلط الإرادة بالرغبة كما فعل كثير من الفلاسفة ك (شوبنهاور)، و(كوندياك)، فإذا كانت الرغبة مصدر كل ما يراد فإنه يُرغب في أمور كثيرة لا تراد، فالإرادة تتضمن التأمل والقصد والتنفيذ؛ أي تستلزم أحوالًا شعورية لا يُرى مثلها في الرغبة.

الرغبة هي مقياس القيم، وهذا المقياس يختلف باختلاف الأزمنة والأمم، فمَثَل الأمة الأعلى هو عنوان رغبتها؛ إذ الرغبة باستيلائها على قوة الإدراك في الإنسان تحول طرز تصوره وآرائه ومعتقداته، ولقد أصاب الفيلسوف (سبينوزا) حيث قال: «نرى الأشياء مليحة برغبتنا لا ببصيرتنا.»

ولمَّا لم تكن قيمة الأشياء بنفسها فإن الرغبة هي التي تمنحها قيمة، وتكون هذه القيمة على نسبة ما في الرغبة من شدة، وأكبر دليل على ذلك تحول قيمة الآثار الفنية، وعلى رغم كون الرغبة منبع كل جهد، وحاكمة الإنسان المطلقة، وسبب آلهته، وموجدة مثله الأعلى؛ فإنه لا تمثال لها في المعابد القديمة، والمصلح الكبير (بوذا) وحده هو الذي أدرك أن الرغبة هي المهيمنة على الأشياء، وأنها مصدر الحركة في الناس، وقد حاول لتحرير البشر من بؤسها وسوقه إلى راحة سرمدية أن يقضي عليها، ومع خضوع ملايين الناس لشريعته فإنه لم يقدر على خضد شوكتها.

حقًّا لا يستطيع الإنسان أن يعيش بدون رغبة، نعم قد يكون في عالم الأفكار — الذي تصوَّره أفلاطون — جمال رائع ونماذج خالدة، ولكن بما أنه لم تُحْي هذا العالم نفخة رغبة فإن أمره لا يهمنا.

(٤) الأمل هو اللذة المرجوة

الأمل ابن الرغبة لا الرغبة نفسها؛ إذ هو عبارة عن استعداد نفسي يجعل الإنسان يعتقد إمكان تحقيقه ما فيه من رغبة، فقد يرغب المرء في شيء دون أن يأمله، فعلى قلة من يأملون الثروة نرى جميع الناس يرغبون فيها، وكذلك العلماء فإنهم يرغبون في اكتشاف علة علل الحوادث مع أنهم لا يأملون أن يصلوا إليه، وقد تقترب الرغبة من الأمل في بعض الأحيان فتختلط به، فالإنسان في لعبة الدولاب يرغب في الربح ويأمله.

ويمكننا أن نعرِّف الأمل باللذة المرجوة. وفي الغالب يكون الأمل في دور الرجاء أشفى للغلة منها في إنجازه، وسبب ذلك واضح؛ فاللذة المنجزة تكون محدودة مقدارًا وزمانًا مع أنه لا حدَّ لما يوجبه الأمل من أحلام، ولم يوجد سلطان الأمل وفتنه إلا لاشتماله على ما في اللذة من ممكنات، فهو عصا سحر قادرة على تحويل كل شيء، وهذا هو سر كون دعاة التجدد لم يفعلوا سوى إقامة أمل مكان آخر.

(٥) العادة هي ناظمة اللذة والألم

العادة هي ناظمة الحس، فهي سبب الاستمرار في أفعال الإنسان لثلمها حد اللذة والألم فيه، وبها يألف أشد المصاعب، ويتحمل أعظم الجهود، والطفل بتأثيرها يتعود تعب الحياة عندما يُكرِهه سن العزلة على العيش تحت سماء الشمس.

والعادة التي هي ناظمة حياة الفرد هي دعامة الحياة الاجتماعية أيضًا، والأمر الشاق في حياة الأمة هو أن تبتدع لنفسها عادات اجتماعية، وألا تجمد إزاء هذه العادات؛ إذ إنه عندما تثقل وطأة العادات زمنًا طويلًا على الأمة لا تتخلص من ربقتها إلا بثورات عنيفة؛ ولذلك وجب ألا يطول الوقوف عند حد العادة، فالمدنيات والأفراد والأمم الشائخة هي التي إلى الرزوح تحت أثقال العادة وقتًا كبيرًا، ومن العبث أن نتكلم في شأنها كثيرًا، فلقد جلبت نظر جميع الفلاسفة، وصارت تُعتبر حكمة قومية.

قال (باسكال): «ماذا تكون مبادئنا الفطرية إذا لم تصدر عن العادة؟ فالعادة هي طبيعة ثانية تقوِّض أركان الأولى، ومنها نأخذ أشد أدلتنا قوةً، وأكثرها فيضًا، وهي التي تعين وجهة النفس دون أن يفكر الإنسان في ذلك، وبها يصبح الإنسان نصرانيًّا أو وثنيًّا أو تركيًّا أو محترفًا أو جنديًّا … إلخ، ثم بها تستعين النفس وقتما تعثر على مكان الحقيقة.»

ولو أن قدرة خارقة جعلت الإنسان أو الشعب يهرب من تأثير العادة لأصاب الفالج حياته فجأة؛ لأن العادة هي التي تملي علينا كل يوم ما يجب أن نقوله ونفعله ونفكر فيه.

(٦) اعتبار اللذة والألم حقيقتين نفسيتين أساسيتين

حاول الفلاسفة أن يزعزعوا ما في الإنسان من يقين، وأن يثبتوا أنه لا يعلم من العالم غير الظواهر، غير أن هنالك حقيقتين ليس باستطاعة أحد أن ينقضهما؛ وهما اللذة والألم، فمنهما تشتق حركة البشر ونشاطه، وإليهما يستند ما تَعِدُ به الشرائع الدينية والدنيوية وتتوعد به من ثواب وعقاب، وجنة وجحيم.

ويظهر الألم واللذة في الإنسان منذ ما تدب الحياة فيه، فبقوة الحس لا بالفكر يشعر الإنسان بوجوده، ولو قال (ديكارت): «أشعر ولذلك فإني موجود» بدلًا من قوله: «أفكر ولذلك فإني موجود»، لكان قوله أقرب إلى الحقيقة؛ لأن دستوره إذا تبدل على هذا الوجه يُطبق على جميع الناس لا على فريق وحده.

ومن هاتين الحقيقتين يمكن استنباط فلسفة حياتية عملية، وبهما يجاب جوابًا صائبًا عن السؤال الذي جاء مكررًا في سِفر سليمان، وهو: لماذا يشتغل الإنسان ويسعى كثيرًا مع أن الموت ينتظره، والأرض ستخمد يومًا ما؟

الإنسان يسعى لأنه يجهل المستقبل، ولأن الطبيعة في الحال ترغمه على البحث عن اللذة والفرار من الألم، فالفاعل الذي يضنيه العمل، والراهبة التي لا تجزع من القروح، والمبشِّر الذي ينكَّل به الهمج، والعالِم الذي يكدح في حل مسألة، والمِكروب الصغير الذي يميد متحركًا في قطرة ماء، لا يكابدون ما يكابدونه إلا بتأثير عاملين: جذب اللذة، وخوف الألم.

لا حركة بغير هذين الباعثين، ولا نتصور وجود بواعث أخرى غيرهما على رغم اختلاف الألفاظ، فحب الجمال والحرب والتدين والشهوات إن هي إلا أمور صادرة عن مصدر عضوي واحد، ولا تلبث حركة البشر أن تزول بزوال ذَيْنِكَ العاملَيْن اللذين لا ريب فيهما: اللذة، والألم.

الفصل الثاني

تقلبات الحس هي أساس حياة الفرد وحياة المجتمع

(١) حدود الشعور باللذة والألم

تطبيق قواعد الوزن والقياس على درس الحوادث الجثمانية هو المرحلة الأولى في تقدم هذا الدرس، فلولا ميزان الحرارة لاكتُفي بتقديرات شخصية تختلف باختلاف الناس، وما أتى به الإنسان من رقي في ميدان العقل لم يؤتَ بمثله في دائرة العاطفة، ولذا ترانا عاطلين من ميزان نزن به المشاعر.

ومع ذلك فإنه يظهر أن شعورنا باللذة والألم يتراوح بين حدين محصورين، يدعم هذا القول ما تم على يد علماء وظائف الأعضاء من تجارب؛ فلقد أثبت هؤلاء العلماء أن للحس حدًّا أعظميًّا لا يتجاوزه مهما يزد المحرض، وأن له حدًّا أصغريًّا لا ينزل دونه.

ولا يزيد الحس بنسبة المحرض الذي يوجبه، فيقتضي أن يزيد المحرض على نسبة هندسية ليزيد الحس على نسبة حسابية، ولهذا يجب لمضاعفة ما تولدهُ آلة الطرب من حسٍّ زيادة عددها عشر مرات، ويقتضي لجعل ما تولده من حسٍّ ثلاث مرات زيادتها مائة ضعف، وإذا أريدت مضاعفة طنين عشر آلات طرب يوقِّع عليها عشرة مغنين، فإنه يقتضي إيصالها إلى ألف ضعف، وبتطبيقنا هذه الأفكار على اللذة والألم نرى أنه لا بد من زيادة المحرض كثيرًا لزيادتهما قليلًا.

لا ريب في أن الأرقام المذكورة غير مطلقة، وإنما غرضنا من جميع ذلك أن نثبت أن الشعور باللذة والألم يتراوح بين حدين محدودين، وكيف يكون الأمر خلاف ذلك؟ قد تعاني الأعضاء بالتدريج كل تطور، ولكنها عاجزة عن احتمال أي تحول فجائي لاشتمالها على عوامل ناظمة تقيها من مثل ذلك، فحرارة الجسم في حالة الصحة لا تتقلب

أكثر من بضعة أعشار الدرجة مهما يشتد الحر أو البرد في العالم الخارجي، ولا يشاهد نقص الحرارة وزيادتها درجتين أو ثلاث درجات بالنسبة إلى درجة حال الصحة إلا في الأمراض الشديدة المهلكة، ففي كل وجودٍ حدٌّ للتوازن لا يُبتعد منه.

وبهذه المناسبة نذكر وجود ناموس آخر يدعى «ناموس عدم تجمع المشاعر»، فلهذا الناموس — مع إغفال أمره في الغالب — شأن كبير في حياتنا الشاعرة، نعلم أن بعض الأشياء؛ كصفيحة الفوطوغراف مثلًا، لها مزية تكويم ما يقرعها من المؤثرات الصغيرة المتتابعة، وينشأ عن تجمع هذه المؤثرات الصغيرة المكررة تكريرًا كافيًا على مرِّ الأيام نتيجة كالتي تصدر عن مؤثر قوي قصير الأجل، على هذه الصورة تستطيع صفيحة الفوطوغراف أن ترسم نجومًا لا تقدر العين المجردة على رؤيتها؛ نظرًا لأن شبكة العين لا تحتوي خاصةَ تكديسِ المؤثرات الصغيرة، وما قيل عن العين يقال مثله عن باقي الحواس من حيث عدم قدرتها على تكويم المؤثرات، اللهم إذا استثنينا بضعة شواذ.

وتقريبًا للذة نقول: إنه إذا هلك ثلاثمائة شخص في حادثة قطار، فإن حزنًا شديدًا يملأ قلوبنا، وتفعم الصحف أعمدتها بتفصيل الواقعة، ويتبادل الملوك برقيات التعزية، وأما إذا فرضنا أن هلاك هؤلاء تم بفعل سلسلة من الحوادث الصغيرة وقعت في بحر السنة، فإن ما ينتابنا من الكدر قليل إلى الغاية؛ ذلك لأن حواسنا لم تجمع كل أثر صغير أوجبته تلك السلسلة.

فلنفرح لكون الأمر على هذا الوجه، فلو بُني الوجود على شكل مستعد لتكديس الآلام لكانت الحياة شيئًا ثقيلًا لا يطاق.

(٢) تقلبات الحس في الفرد وشأنها في الحياة الاجتماعية

ظهر لنا مما تقدم أن تقلبات الحس محدودة زمانًا واتساعًا، والاختيار يثبت أن الحس يتراوح بين هذه الحدود، ومما يغير الحس على الخصوص تغييرًا متتابعًا هو المرض والصحة والبيئة والحوادث، وما أشبه الحس في تقلبه بالبحيرة الذي يجعل النسيم وجهها ذا أخاديد وعضون.

وتوضح لنا تلك التقلبات المستمرة لماذا تتحول أذواقنا وأفكارنا وآراؤنا على الدوام، والتقلبات المذكورة تكون أشد من ذي قبل عندما تأخذ العادات والمعتقدات الموروثة التي تحدد تقلبات الحس في الأفول، فعدم الثبات عند ذلك يصبح قاعدة.

ومن علل الآراء ما يحدد تقلبات الحس أيضًا، ونعدم من هذه العلل العدوى النفسية التي تُحدث عادات مؤقتة قادرة على منح تنقلنا شيئًا من الثبات، ومتى أصبح حس المجتمع على شيء من الرسوخ المؤقت فإن آثارًا مختلفة تؤلف معبرة عنه، وتعد هذه الآثار مرآة الزمن.

وبعد أن يصفو الحس بفعل بعض المحرضات المكررة فإنه يدنو من الذوق الخالص قليلًا، وكلما صفا الحس ينثلم حده، فأنغام (لوللي) التي كانت تسحر قلوب آبائنا تورث فينا ضجرًا وملالًا، وأكثر الروايات المَلَحَّنة التي نالت منذ خمسين سنة حظوة عند الجمهور أصبح لا يلائم ذوقنا، وسبب ذلك كون مسألة توافق الأصوات حلَّت بالتدريج مكان مسألة النغم، فيقتضي لإطراب الحواس التي أعياها التعب في الوقت الحاضر إيجاد شيء من الشذوذ في الألحان كان يُعَدُّ خطأً عند مقترعي الأنغام في الماضي.

تدلنا آثار أحد الأزمنة على شعور ذلك الزمان وتقلباته، ولكون هذه الآثار عنوانًا صادقًا للشعور الذي ساد الزمان المذكور فإنه يسهل توقيتها، ولمثل هذا السبب تكون الآثار الفنية أفيد من كتب التاريخ، فلما كان المؤرخ ينظر إلى الماضي من خلال شعوره الشخصي الحاضر، فإن شروحه تكون بحكم الطبيعة غير سديدة، والقصص والروايات وألواح التصوير والمباني هي على خلاف كتب التاريخ مصدر معرفة صحيح موجب للاعتبار والالتفات.

ولا ينقل الحس زمانًا ومكانًا؛ فلا شك في أن البناء العظيم الذي يقوم مستعينًا بعناصر تخص قرونًا قديمة، أو شعوبًا مختلفة يمس شعورنا لاشتقاقه من مشاعر تناقض مشاعرنا، ولو تغير شعورنا بتأثير تطور النوع لأصبح ما نعجب له الآن من آثار الماضي — كالبارتنون، والكنائس الغوطية، والقصائد الغراء، والتصاوير، والنقوش الشهيرة — غير جدير بأن نتأمل فيه، وليس من الضروري أن يكون تطور الشعوب مديدًا لتستخف بما تعجب به الآن، فيكفي لذلك أن تستمر التربية على انتحائها الحاضر نحو الاختصاص، وأن يدوم اقتراب الجموع من القبض على زمام الأمور اقترابًا سريعًا؛ لأن آثار الفن في نظر الجموع كناية عن نفائس وكماليات تستحق الإهانة، فعندما استحوذ نظام «الكومون» الذي هو عنوان روح الجماعات الصادق لم يتأخر رجاله عن حرق أجمل مباني باريس كدائرة البلدية، وقصور التويلري، والمصادفة هي التي أنقذت قصر اللوفر، وتُحَفَهُ من يد التخريب.

ومهما يكن مستقبل آثار الماضي فإنها لا تزال ماثلة للعيان، وهي التي ترشدنا إلى تاريخ الحس والشعور، فلولا هذه العناصر المستنبطة من الأدب والفن لما اطلعنا

على شعور الأزمنة، ولجهلناه كما نجهل سكان البرجيس، وما في الأزمنة من معقول نقف عليه في كتب العلم؛ لخلوها من سمات مؤلفيها العاطفية، فإذا كانت الروايات تنم على تاريخها بنفسها مثلًا فإن رسائل الهندسة ليست كذلك، فقد يمكن أحد الرياضيين المتأخرين أن ينتحل رسالة (أوقليدس) الهندسية القديمة التي لا تزال تُدَرَّس؛ لأن (أوقليدس) لما وضع رسالته استعان بالمعقولات التي لا صلة بينها وبين الحس والمشاعر أبدًا، فالعقل يضع حقائق عامة خالدة، والحس يضع حقائق خاصة زائلة.

(٣) ما ينشأ عن تقلبات الحس في المجموع من تبدل في المثل الأعلى والمعتقد

غاية الحركة في الإنسان هي البحث عن السعادة؛ أي طلب اللذة وطرد الألم، على هذا المبدأ اتفق الناس أجمعون، وإنما اختلفوا في معنى السعادة ووسائل نيلها، وللسعادة أشكال متنوعة مع اتفاق المقصود؛ فأحلام الحب والغنى والرفعة والإيمان إن هي إلا أوهام مسيطرة تلقيها الطبيعة في قلوبنا لتسوقنا إلى أقصى الغايات، ومتى يتغير مبدأ السعادة — أي المثل الأعلى في الرجل أو الأمة — فإن طُرُز نظره في الحياة ومصيره يتغيران، وليس التاريخ سوى الإخبار عما يبذله الإنسان من الجهد في سبيل إقامة مَثَل أعلى، والقضاء عليه بعد أن يصل إليه ويكتشف بطلانه.

ومن أمل السعادة التي يتخيلها الشعب والمعتقدات التي هي عنوان ذلك الأمل تتكوَّن قوة هذا الشعب، فمَثَلُ الشعب الأعلى يتولد معه، وينمو بنموه، ويموت عند موته، ومهما تكن قيمة ذلك المثل الأعلى فإنه يمنح الشعب الذي يعتنقه منعة عظيمة، وتكون هذه المنعة على نسبة تأثير المثل الأعلى، وإن كانت وعود هذا المثل قليلة. نعم قد ندرك السر في كون الشهيد يرى من خلال الموقد باب الجنة، ولكن ما هي فائدة الجندي الروماني، أو جندي نابليون من طوافه في أقطار الأرض إن لم يكن القتل أو القرح؟ فقد كان المثل الأعلى الذي استولى على شعبه من القوة والجبروت بحيث يلطف جذوة آلامه، ومن مقتضياته أن يعد المرء اللحاق بالأبطال سعادةً، أو فردوسًا حاضرًا يأخذ بمجامع الألباب.

الفصل الثالث

دوائر الحركات الحيوية والنفسية

الحياة الشاعرة والحياة اللاشاعرة

(١) دوائر الحركات الحيوية والنفسية

لَمَّا كانت غاية هذا الكتاب هي البحث عن تكوين الآراء والمعتقدات فمن الضروري أن نعلم أولًا البقعة التي تنبت فيها، وقد زادت أهمية هذا البحث بنسبة ما أثبتته مبتكرات العلم الحديث من البطلان في كتب علم النفس القديمة.

يمكننا أن نرجع حوادث ذوات الحياة إلى ثلاثة أنواع تنضدت بعد أن تم ظهورها واحدًا بعد الآخر على مر القرون، وهي:

أولًا: الحوادث الحيوية؛ كالتغذية والتنفس ... إلخ.

ثانيًا: الحوادث العاطفية؛ كالمشاعر والأطماع ... إلخ.

ثالثًا: الحوادث العقلية؛ كالتأمل والتفكير ... إلخ.

والحوادث العقلية هي أحدثها ظهورًا في تاريخ البشر، والحياة العضوية والحياة العاطفية والحياة العقلية يؤثر بعضها في البعض تأثيرًا متصلًا على رغم كونها مختلفة منفصلة، ولهذه العلة يستحيل إدراك الأخيرة من غير أن نبحث عن الأولى، فلقد أخطأ علماء النفس بتركهم أمر البحث في الحوادث الحيوية إلى علماء وظائف الأعضاء وحدهم.

وسوف نثبت شأن الحوادث الحيوية عندما نبحث في جزء من هذا الكتاب عن الحوادث التي يهيمن المنطق الحيوي عليها، وأما في هذا الفصل فإننا لا نبحث إلا عن

المرحلة الأولى للحياة النفسية؛ أي عن حركة النفس اللاشاعرة، ولهذه المرحلة أهمية عظيمة؛ إذ نرى جذور أفكارنا وسيرنا سائخة فيها.

(٢) النفسية اللاشاعرة ومصادر الإلهام

المشاعر لا تنفذ دائرة الشعور إلا بعد أن تنضج في منطقة اللاشعور نضجًا آليًّا، وبما أن الحوادث العقلية الشعورية هي أسهل إدراكًا فإن علم النفس لم يطلع على غيرها في بدء أمره، إلا أن العلم الحديث دل — مستعينًا بطرق صحيحة غير مباشرة — على أن الحوادث اللاشعورية تمثل في الحياة دورًا هو في الغالب أهم من الدور الذي تمثله الحوادث العقلية، فيمكننا أن نقيس الحياة العقلية بالجزائر الصغيرة التي هي شماريخ جبال عظيمة مستترة بالماء، وهذه الجبال هي اللاشعور.

معظم اللاشعور موروث عن الآباء، وما قوَّته إلا لكونه يمثل ميراث سلسلة طويلة من القرون التي زاد كل منها فيه شيئًا، وقد أصبح شأنه الذي أغفل في الماضي من الأهمية بحيث إن بعض الفلاسفة — وعلى الخصوص (ويليام جيمس) و(بركسون) — أخذوا يفسرون أكثر الحوادث النفسية به، وبتأثير هؤلاء الفلاسفة ظهرت في العالم حركة قوية ضد المذهب العقلي، وقد غالى أنصار المذهب الجديد في التشيع فيه؛ فطفقوا ينسون أن المنطق العقلي وحده يأتي بمبتكرات العلم والصناعة التي هي قوام حضارتنا.

ولم تنشأ المباحث التي منحت دائرة اللاشعور تلك الأهمية عن التأمل، بل عن تجارب أُتي بها لغاية أخرى هي ليست إيجاد أدلة فلسفية، وإني أذكر من تلك التجارب مباحث التنويم المغناطيسي، وانحلال الذات، والسير في المنام، واستخدام الأرواح ... إلخ، غير أن علة المعلولات لا تزال مجهولة، ففي علم النفس اللاشعوري كما في علم النفس الشعوري يجب الاكتفاء في الغالب بالتحقيق والمشاهدة.

والذي يسيِّرنا في أكثر حوادث الحياة اليومية هو اللاشعور، فلا تلبث ممارسة إحدى الصنائع أن تصبح سهلة بعد أن يصير اللاشعور مديرًا لها، وما الأخلاق القوية سوى لا شعور مثقف مهذب.

ويمكننا أن نقول: إن اللاشعور هو عبارة عن مخزن مكتظ بالأحوال العاطفية والذهنية؛ قد يتضعضع ولكنه لا يفنى أبدًا، ولو سلَّمنا بما نترصده من أعراض بعض الأمراض لقلنا: إن العناصر التي تدخل في عالم اللاشعور تبقى فيه زمنًا طويلًا، بهذه

الصورة وحدها نفسر بعض الحوادث التي نشاهدها في الوسطاء، أو المرضى الذين يتكلمون لغات لم يتعلموها، ولكنهم سمعوها في ريعان شبابهم.

والإلهام الذي هو أصل الدهاء والعبقرية يصدر عن اللاشعور الموروث، وعن التربية الصحيحة. نعم يلوح لنا أن إلهامات القائد الذي يدوخ البلاد، ويتحكم في القدر، والمتفنن الماهر الذي يُبرِز ما في الأشياء من رونق وجمال، والعالِم الشهير الذي يستجلي الأسرار، هي أمور غريزية، ولكن اللاشعور الذي صدرت عنه هو الذي أنضجها مقدارًا فمقدارًا. والمشاعر وإن أمكن أن تظهر بتأثير بعض العوامل العقلية إلا أنها تتكون في عالم اللاشعور على كل حال، وقد ينتهي نضجها التدريجي بأن تظهر للعيان فجأة؛ كالانقلابات الدينية والسياسية.

والمشاعر التي نضجت في عالم اللاشعور لا تنفذ دائرة الشعور إلا بتأثير أحد المحرضات، وهذا هو السر في جهلنا أحيانًا مشاعرنا الحقيقية نحو ما يحيط بنا من موجودات، وما أكثر المرات التي تكون فيها مشاعرنا وما ينشأ عنها من آراء ومعتقدات خلاف ما نظن! وفي بعض الأوقات يكون الحب أو الحقد مستوليًا على نفوسنا من غير أن نعلم ذلك، وإنما يبدو لنا ذلك عندما نرغم على العمل؛ فالعمل هو بالحقيقة مقياس المشاعر الذي لا ريب فيه، وبه يعرف الإنسان نفسه، وتظل الآراء بدونه ألفاظًا فارغة لا معنى لها.

(٣) أشكال اللاشعور: اللاشعور الذهني واللاشعور العاطفي

يمكننا — على ما أظن — تفريق ثلاثة أنواع مختلفة في عالم اللاشعور: فالنوع الأول هو اللاشعور العضوي المسيطر على جميع أمور الحياة؛ كالتنفس والدورة الدموية … إلخ، فلما استقر أمره بتعاقب الوراثة فإنه يقوم بوظائفه قيامًا داعيًا للعجب دون أن نعلم ذلك، وهو يسيِّر الحياة فيقودنا من الطفولة إلى الهرم، ومنه إلى الموت من غير أن نقدر على إدراك عمله.

وفوق اللاشعور العضوي يوجد نوع آخر يقال له اللاشعور العاطفي، فتكوين هذا اللاشعور تم بعد تكوين الأول؛ ولذلك فإنه أقل رسوخًا منه؛ وإن كان على جانب عظيم من الرسوخ، ومن أجل هذا الرسوخ الكبير ترانا لا نؤثر في المشاعر إلا قليلًا، مع أننا نقدر على تبديل المواضيع التي نؤثر فيها بمشاعرنا.

وعلى رأس تلك السلسلة يوجد نوع يسمى اللاشعور الذهني، فلما كان ظهوره على مسرح الكون حديثًا، فإن جذور الوراثة ليست سائخة فيه كما يجب، ومع أن أمر

اللاشعور العضوي واللاشعور العاطفي قد أصبح من الثبات بحيث نشأت عنه غرائز تنتقل بالإرث، نرى أن اللاشعور الذهني لا يزال يبدو على شكل أهواء وأغراض، والتربية هي التي تتدرج به إلى الكمال في كل جيل.

إن للتربية سلطانًا كبيرًا على اللاشعور الذهني؛ لكونه أقل رسوخًا من ذَيْنِكَ النوعين، وليس لهذا اللاشعور سوى تأثير ضئيل في المشاعر التي هي قوام الخلق، وأما اللاشعور العاطفي فإنه يكون في الغالب سيدًا مهيمنًا غير مبالٍ بالمعقولات، وهذا سبب كون كثير من الرجال الذين يكونون على جانب عظيم من الفطنة والصواب في مؤلفاتهم وخطبهم يصبحون في سيرهم آلات متحركة، يقولون ما لا يودون أن يقولوه، ويفعلون ما لا يريدون أن يفعلوه.

نستنتج من الإيضاح السابق أن العقل ليس — كما ظُنَّ زمنًا طويلًا — أهم عامل في الحياة النفسية، فاللاشعور هو الذي يُنضِج، ولا تصل نتائج هذا النضج إلى دائرة العقل إلا تامة التكوين كالألفاظ التي تتدفق على شفتي الخطيب. وتتجلى قوة اللاشعور في كون جميع ما يتم على جانب عظيم من الدقة والضبط؛ فالتدريب على إحدى الصنائع لا يكمل إلا إذا صار العمل يُنجَز بقوة التكرار على شكل لا شعوري، ولذا عرَّفنا التربية في كتاب آخر بأنها عبارة عن إدخال الشعور إلى اللاشعور.

ومع أن علم الحياة الحديث أصاب في نقضه مبدأ علة العلل، فإننا نرى سلسلة الأشياء تبدو كأنها خاضعة لهذا المبدأ، يؤيد ذلك كون الشروح العقلية التي أتى بها العلماء لم تقدر على حل كثير من الأمور الغامضة في الكون، على أننا لو نظرنا إلى اللاشعور من حيث نتائجه لرأيناه يشتمل على شياطين لطيفة — هي سبب الأسباب الحديث — تسعى في إعمائنا لنضحي بمنافعنا الشخصية في سبيل منافع الجنس، وما هذه الشياطين إلا كناية عن ضرورات تأصلت في النفوس بفعل الزمان.

والأمر مهما يكن فإن اللاشعور يهيمن علينا في الغالب، ويعمي أبصارنا على الدوام، ولا نأسف على ذلك؛ لأن كشف المصير يجعل الحياة شقية؛ فالبقر لا يرعى الكلأ مطمئنًّا إذا علم أن مصيره إلى الذبح، وأكثر الموجودات تتقهقر جزعًا لو اطلعت على نصيبها.

الفصل الرابع

الذات العاطفة والذات العاقلة

(١) الذات العاطفة والذات العاقلة

يرشدنا البحث عن العوامل التي هي سبب آرائنا ومعتقداتنا إلى كون هذه الآراء والمعتقدات تابعة لأنواع المنطق المختلفة، وقبل درس هذه الأنواع أقسِّم العناصر النفسية تقسيمًا أساسيًّا هو أصل كل تقسيم، فهذه العناصر النفسية قسمان: العناصر العاطفة، والعناصر العاقلة، وبهذا يسهل فهم فصول كثيرة نبحث فيها عن أنواع المنطق المختلفة.

تميُّز المشاعر عن العقل أمرٌ وقع حديثًا في تاريخ البشر، فقد كان أجدادنا الأقدمون يحسون ويتأثرون كثيرًا، ولكنهم كانوا لا يعقلون إلا قليلًا، غير أن الإنسان لما بلغ شأوًا بعيدًا في تطوره أخذ يتفلسف ويتحذق، فظهر الفرق حينئذ بين المشاعر والعقل، وأما العهد الذي ثبت فيه كون المشاعر تخضع لأحكام منطق خاص يختلف عن المنطق العقلي اختلافًا كبيرًا، فقريب إلى الغاية.

وجهلُ هذا التفريق هو أحد أسباب الخطأ في ظنوننا وأفكارنا، فقد أرادت كتائب كثيرة من المشتغلين بالسياسة أن يقيموا بالعقل ما لا يتم أمره إلا بالمشاعر، وقد رأى كثير من المؤرخين الذين قلَّ اطلاعهم على دقائق الأمور أن يشرحوا بالمنطق العقلي حوادث لم يملها العقل قط، وهذا هو السبب في أن تكوين أكثر العوامل المهمة في التاريخ — كنشوء المعتقدات وانتشارها — ظلَّ معروفًا قليلًا.

وهنالك فلاسفة عظام خلطوا مخطئين المنطق العاطفي بالمنطق العقلي؛ فقد حاول (كَانْت) تشييد دعائم علم الأخلاق على أساس العقل مع أنه لا شأن للعقل في أكثر منابع الأخلاق، ولا يزال أكثر علماء النفس يتمادون في الضلال المذكور. وقد أصاب (ريبو) في إشارته إلى ذلك حيث قال: «يريد علماء النفس بأوهامهم العقلية المتأصلة أن ينسبوا كل شيء إلى العقل، وأن يشرحوا به كل أمر، جاهلين أن الحياة النباتية جاءت قبل الحياة

الحيوانية، وأن هذه تستند إلى تلك، وأن الحياة العاطفة أتت قبل الحياة العاقلة، وأن هذه تستند إلى تلك.»

ومن الضروري أن أطنب في البحث عن الفرق بين العاطفي والمعقول لأبلغ الغاية التي توخيتها في هذا الكتاب؛ إذ الغفلة عنه تقضي علينا بأن نجهل تكوين الآراء والمعتقدات، ومع ذلك يصعب أن نفرِّق بين العاطفي والمعقول تفريقًا دقيقًا؛ لأن التقسيمات اللازمة في مباحث العلم تُفضي إلى ما تجهله الطبيعة من قطع في سلسلة الأشياء، إلا أن العلم لا يتكون إذا لم نعلم كيف نفصل ما اتصل.

إن انفصال العاطفي عن المعقول وقع في دور بلغ فيه الإنسان درجة راقية من درجات التطور، ونظن أن المعقول نشأ عن العاطفي؛ لكون العاطفي أقدم منه، ثم إن الحيوان يكون في الغالب ذا مشاعر نامية مثل مشاعرنا، فالإنسان لا يمتاز من الحيوان إلا بتقدم عقله.

ومن صفات المشاعر كونها معلومة من قبل صاحبها مع أنه يصعب تعريفها، وإذا عُبِّر عنها فبعبارات عقلية، فبالعقل نعرف، وبالمشاعر نشعر، ولا يمكن الإعراب عن المعرفة والشعور بلسان واحد. نعم قد استطاع العقل أن يجد له لسانًا متقنًا محكمًا، ولكن لسان المشاعر لا يزال مبهمًا غير صحيح.

ومع تأثير الذات العاطفة والذات العاقلة الواحدة في الأخرى فإن لهما كيانَيْن مختلفَيْن؛ لأن الذات العاطفة تتطور على رغم أنفنا، وكثيرًا ما تتطور ضدنا، وهذا سر ما في الحياة من تناقض، فإذا أمكن أن نزجر أحيانًا مشاعرنا فلا نقدر على إيجادها أو محوها.

إذ ليس من الصواب أن نؤنِّب المرء إذا تغيَّر؛ ذلك لأن هذا التأنيب ينم على المبدأ الباطل القائل: إن العقل يستطيع أن يهيمن على المشاعر، فمتى ينقلب الحب إلى ضده فإن العقل يلاحظ هذا الانقلاب فقط دون أن يكون علته، ولا علاقة للأسباب التي يتخيلها العقل عندما يفسر مثل ذلك الانقلاب بالأسباب الأصلية التي نجهلها، وفي الغالب لا نعرف مشاعرنا الحقيقية أكثر من أن نعرف العوامل الموجبة لها. قال (ريبو): «كثيرًا ما يتصور المرء أنه يشعر بحبه لآخر حبًّا جمًّا، فالغياب أو ضرورة انقطاع أخرى قد يثبت لنا أن هذا الحب سريع العطب، كما أنه قد يثبت لنا صدق حب لا يكون باديًا بتأثير العادة.»

وعلى ما تقدم يتعذر إدراك سير الذات العاطفة عن طريق الذات العاقلة كما لاحظ المؤلف المشار إليه أيضًا، ومع ما بين الحياة العاطفة والحياة العاقلة من تباين واختلاف،

فإننا لا نبالي في سلوكنا بالفرق بين المشاعر والذكاء، يؤيد هذا القول طرق تربيتنا اللاتينية؛ فمن أباطيل جامعاتنا الخطرة هو اعتقادها أن إنماء الذكاء بالتعليم يؤدي إلى نمو المشاعر التي هي أساس الخُلُق، وهي في ذلك على خلاف التربية الإنكليزية التي أدركت منذ زمن طويل أن تهذيب الخُلُق لا يتم بمزاولة الكتب.

وبما أن الذات العاطفة تختلف عن الذات العاقلة فإننا لا ندهش إذا سمعنا أن رجلًا ذا ذكاء عالٍ قد يكون نذلًا في أخلاقه.[١] لا ريب في أن الذكاء والتعليم — بإثباتهما أن عدم الاستقامة يضر الإنسان أكثر مما يفيده — يجعلاننا لا نصادف سوى قليل من المتعلمين يتخذون اللصوصية مهنة، ولكن إذا وجدت في المتعلم روح لص فإنه يتمسك بها على رغم ما ناله من الشهادات العلمية، وبها يستعين في أعماله غير الشريفة.

والفرق بين الذات العاطفة والذات العاقلة الذي يُشاهَد في أكثر الأفراد يُشاهَد أيضًا في بعض الشعوب؛ فقد أشارت مدام (دوستائيل) إلى أنه لا ارتباط بين المشاعر والذكاء في الألمان، ويشاهَد هذا الفرق في الجماعات المؤقتة على وجه أكثر وضوحًا؛ لأن العناصر التي تملي على الجموع أمر حركتها هي المشاعر لا الذكاء، وقد بيَّنت علل ذلك في كتاب آخر، فلنتذكر أن الذكاء الذي يختلف باختلاف الأشخاص، ولا ينتقل كالمشاعر بالعدوى النفسية لا يكون ذا شكل جموعي أصلًا، وأما الأشخاص الذين ينتسبون إلى عرق واحد فهم ذوو مشاعر متجانسة لا تلبث أن تتحد عندما يصبحون جماعة.

والعنصر الأساسي في الإنسان هو الذات العاطفة، فلما تم نضج هذه الذات ببطء على مر الأجيال فإنها تتطور في الأفراد والشعوب بسرعة أقل من السرعة التي يتطور بها الذكاء. نعم يظهر أول وهلة أن التاريخ يناقض هذا الفكر؛ لأن التاريخ يدلنا على أن مشاعر جديدة تتولد مختلفة عن التي جاءت قبلها اختلافًا عظيمًا، فالأمة التي ظهرت في وقت بمظهر المحبِّ للحرب لا تلبث أن تصبح مسالمة، وكثيرًا ما تجيء الحاجة إلى المساواة بعد الحاجة إلى التفاوت، وطورًا تحل الزندقة مكان الإيمان، إلا أن تحليل هذه الأمور يثبت لنا أن تطور تلك المشاعر ليس إلا ظاهريًّا، فالحقيقة هي أن المشاعر لا تبدل سوى توازنها، وعلة هذا التبدل هو كون الإنسان في المجتمع يضطر إلى تكييف مشاعره حسب مقتضيات الوقت التي يلجئ إليها تعاقب الأحوال، فتستولي حينئذ بعض المشاعر التي كانت مزجورة على البعض الآخر.

وقد يبدو لنا أحيانًا أن المشاعر تغيرت، مع أن هذا التغير لم يكن إلا موضعيًّا، فالأمل الجاذب الذي يقود العامل في الوقت الحاضر إلى الحانات، حيث يَعِدُه رسل الإنجيل

الجدية بجنة مقبلة، هو عين المشاعر التي كانت تسوق آباءنا إلى الكنائس؛ حيث كان يتراءى لهم من بخار لُبانها تفتح أبواب السعادة الأبدية.

(٢) مظاهر الحياة العاطفة: الانفعالات والمشاعر والحرص

يطلق المؤلفون على مظاهر الحياة العاطفة اسم الانفعالات، أو اسم المشاعر، وعندي أن وصف تلك المظاهر يتطلب تقسيمها إلى ثلاثة أنواع: الانفعالات، والمشاعر، والحرص. فأما الانفعالات فهي مشاعر مؤقتة غير ثابتة، وهي تنشأ عن إحدى الحادثات الفجائية كالنازلة والمنعاة والوعيد والشتيمة، ونعدُّ الغضب والخوف والهول من فصيلة الانفعالات. وأما المشاعر فهي حالة عاطفية مستمرة كالحلم والرفق والدماثة ... إلخ، وأما الحرص فصادر عن مشاعر شديدة قادرة على إبطال تأثير الأخرى؛ كالحقد والحب ... إلخ.

ويقابل هذه الأحوال النفسية تغيُّر في وظائف الأعضاء، مع أننا لا نعرف سوى بضع نتائج دالة على وقوع تلك التغيرات؛ كاحمرار الوجه واضطراب الدورة الدموية ... إلخ، فما يقع في الخليات العصبية من تبدل طبيعي أو كيماوي، وما ينشأ عن هذا التبدل من مشاعر، يثبتان لنا وجود صلة بين الطرفين، لا نعرف عنها شيئًا سوى طورها النهائي، ومما يتعذر علينا في الوقت الحاضر هو أن نبيِّن كيف ينقلب تطور خليات الأعضاء تطورًا كيماويًّا إلى مشاعر.

وقد تختلف المشاعر والانفعالات باختلاف ما يطرأ على الأعضاء من أحوال صادرة عن بعض المهيجات؛ كشرب القهوة والمسكرات ... إلخ.

وأبسط المشاعر هو كثير التعقيد بالحقيقة، ولكن عندما نعجز عن تحليله نَصِفُهُ بالبسيط تقريبًا للذهن، فنحن في ذلك كالكيماوي الذي يعتبر بعض الأجسام بسيطة حين لا يقدر على تحليلها.

ويبحث علماء النفس أحيانًا عن المشاعر الذهنية، فقد قال (ريبو): «إن هذا التعبير يدل على أحوال عاطفية طيبة، أو ذات لغوب، هي من عمل الذكاء.» إنني لا أرضى بهذه النظرية التي لا تفرق بين العلة ومعلولها، فأحد المشاعر وإن جاز أن يحدث بتأثير طعام شهي إلا أنه يبقى من نوع المشاعر على الدوام.

ومتى زادت المشاعر قوة واستعصت تصبح حرصًا كما بيَّنا ذلك آنفًا. ولم يستطع علماء النفس أن يُعرِّفوا المشاعر ويصنفوها؛ فقد قسمها (سبينوزا) إلى الرغبة والفرح والحزن، واستخرج من هذه الأقسام بقية المشاعر، وأما (ديكارت) فقد قال بوجود ستة

أنواع أصلية هي: العجب، والحب، والحقد، والرغبة، والفرح، والحزن. فهذه التقسيمات إن هي إلا أوضاع لغوية لا توضح شيئًا، ولا تقف أمام سلطان النقد.

قد يتكون الحرص كالصاعقة فجأة، وقد يتكون على مهل، وعندما يتم نشوؤه يستولي على الذهن أو العاطفة دون أن يكون للعقل الذي يخضع لحكمه تأثير فيه. والحرص الكبير يندر وقوعه، فلمَّا كان الحرص الذي يقع في الغالب مؤقتًا فإنه لا يلبث أن يزول بعد أن ينال صاحبه مبتغاه، وهذه قاعدة ثابتة في مسائل الحب، فأبطال الحب الشديد هم على الأكثر أناس تحول الأحوال دون التقائهم كثيرًا، والحرص الذي يستمر زمنًا طويلًا هو الذي يضطرم على الدوام؛ كالأحقاد السياسية مثلًا، ويغيب الحرص في أغلب الأوقات منطفئًا، وفي أقلها متبدلًا، وحينئذ تتحول الآراء التي كانت سبب ظهوره، قال ريبو: «قد ينقلب حب الإنسان من حب بشري إلى حب إلهي، وقد يتحول التعصب الديني إلى تعصب سياسي أو اجتماعي، والعكس بالعكس، مثال ذلك: (إيغناس دولوايولا) الذي عدل عن خدمة أحد الملوك إلى خدمة المسيح مؤسسًا طريقة اليسوعيين.»

والعقل لا يؤثر في الحرص إلا بعد أن يطرأ على الحرص ضعف، وأما تأثيره فيكون بتسليطه أحد المشاعر على الآخر، وما يقع وقتئذ من عراك فبين المشاعر لا بين المشاعر والعقل.

(٣) ذاكرة المشاعر

للمشاعر ذاكرة كذاكرة العقل، وإن كانت أدنى منها كثيرًا، فهي لا تلبث أن تهن بفعل الزمان، وأما ذاكرة العقل فهي على جانب عظيم من الثبات عندما يستعان بها، حتى إن آثارًا كبيرة ككتب الهندوس المقدسة المسماة (ڤيدا)، وأغاني (هوميروس)، انتقلت إلينا جيلًا بعد جيل عن طريق ذاكرة العقل، وقد كان طلاب العلم في القرن الثالث عشر — حيث كانت الكتب نادرة ثمينة — يحفظون عن ظهر القلب ما يملى عليهم من الدروس. قال (أتكينسون): «إن كتب الصين التقليدية لو محقت في هذه الأيام لاستطاع أكثر من مليون صيني أن يجمعوها بفضل ذاكرتهم.»

ولو كانت ذاكرة المشاعر كذاكرة العقل ثباتًا، لجعل ما نحفظه من آلام حياتنا لا تُطاق، غير أنه يعترض على عدم رسوخ ذاكرة المشاعر بدوام أحقاد الطبقات والشعوب دوامًا مستمرًّا مع تعاقب السنين، نجيب عن هذا الاعتراض قائلين: إن ذلك الاستمرار الظاهري لم ينشأ إلا عن علل واحدة تكررت تكرارًا متصلًا. حقًّا إن الحقد إذا لم

يُنَبَّه لا يدوم أبدًا، فلولا الصحف الألمانية التي كانت توقد نار الحقد في قلوب الألمان ضد الإفرنسيين إيقادًا غير منقطع لزال ذلك الحقد، وإذا بقي الكره يغلي في صدور الهولنديين للإنكليز الذين سلبوهم في الماضي مستعمراتهم؛ فذلك لأن حوادث كثيرة كحرب الترنسفال أحيت ذلك الكره، ولأن هولندا تعتقد على الدوام أن إنكلترا تهددها، وتثبت المحالفة الروسية والائتلاف الفرنسوي الإنكليزي كيف أن شعوبًا متعادية في الماضي لا تلبث أن تنسى أحقادها إذا لم تحافظ عليها، وأغرب ما في ذلك هو أن إنكلترا أصبحت صديقتنا في وقت غير بعيد من حدوث مذلة (فاشودا).

يوضح المبدأ القائل بقلة استمرار ذاكرة المشاعر كثيرًا من الحوادث الماسة لحياة الشعوب، فيجب ألا يُعتمد على شكرها، كما أنه يقتضي أن لا يُفزَع من حقدها.

(٤) اشتراك المشاعر واشتراك الأفكار

سنبحث عن بعض عناصر الذكاء الأساسية في الفصل الذي خصصناه في هذا الكتاب لفحص المنطق العقلي، وإذا أشرنا هنا إلى تلك العناصر فذلك لبيان كيفية اشتراك العناصر العقلية والعناصر العاطفية، وتأثير بعضها في البعض الآخر.

إن صفة الذكاء البارزة هي التأمل والتعقل؛ أي إدراك علائق الأشياء الظاهرة والمستترة حسب بعض القواعد والسنن، وكذلك المنطق العاطفي فله قواعده وسننه، ولمَّا كانت منطقة اللاشعور مرتع هذه السنن فإنها لا تبدو للشعور إلا كمعلولات.

بيَّنا أن حياتنا النفسية تتألف من مشاعر ومعقولات، فكيف يؤثر أحد هذين الطرفين في الآخر؟ نعلم من نظريات علم النفس أن الأفكار تشترك على وجهين: اشتراك بفعل المحاكاة والمشابهة، واشتراك بفعل الاتصال والملاصقة، فأما الاشتراك بفعل المحاكاة والمشابهة فهو أن يذكِّرنا الانطباع الحاضر بانطباعات سابقة متشابهة، وأما الاشتراك بفعل الاتصال والملاصقة فهو أن يذكِّرنا الانطباع الحاضر بانطباعات أخرى وقعت معًا دون أن يكون بينها وجه شبه. ويظهر لنا أن المشاعر تشترك كما تشترك الأفكار، وقد يشترك الطرفان بالسوية بحيث نتذكر بأحدهما الطرف الثاني.

والفرق بين اشتراك المشاعر واشتراك الأفكار هو أن الأول يقع في الغالب على وجه لا شعوري بعيد من تأثيرنا، وسنرى على رغم هذا الفرق أن الذات العاطفة والذات العاقلة قد تؤثر إحداهما في الأخرى بفعل الاشتراك الذي أشرنا إليه في هذا المطلب.

هوامش

(١) نذكر من بين الأمثلة الكثيرة التي حكى عنها التاريخ مثال الوزير (بيكن) البارز: لم يكن في زمن هذا الوزير من يدانيه ذكاءً، ولكن لم يكن أيضًا مَن أبدى مثله دناءة، فقد كانت باكورة أعماله في الحياة أن خان (الكونت ديسكس) الذي أحسن إليه أكثر من كل إنسان، فأوجب قطع رأسه طمعًا في نيل منصب عند الملكة (إليصابات)، وبعد أن جلس الملك (جاك الأول) على العرش نال منصب نائب عام، ثم منصب وزير بناءً على رجاء الدوك (دويكنغام) الذي خانه أيضًا. وفي أيام وزارته بلغت جرأته على سرقة بيت المال والناس مبلغًا جعل القضاء يتتبعه، وقد حاول عبثًا أن يستعطف قلب القضاة باعترافه كتابةً بذنوبه، إذ حكموا عليه بالسجن مؤبدًا.

الفصل الخامس

عناصر الذات

امتزاج المشاعر التي يتألف الخلق منها

(١) عناصر الخلق

يتألف الخلق من تكتل عناصر عاطفية تنضم إليها بضعة عناصر عقلية تمتزج بالأولى قليلًا جدًّا، فمن العناصر العاطفية تشتق شخصية الإنسان الحقيقية، وبما أن هذه العناصر كثيرة إلى الغاية فإنه ينشأ عن اشتراكها أخلاق متنوعة؛ أي أخلاق نشيطة، وأخلاق متبصرة، وأخلاق جامدة، وأخلاق حساسة … إلخ، وكل من هذه الأخلاق يعمل عمله المختلف بتأثير المحرِّضات الواحدة.

وقد يكون الملاط بين عناصر الخلق وثيقًا، وقد يكون واهنًا، فمن العناصر ذات الملاط المتين تتألف شخصيات قوية تظل ثابتة على رغم تغير البيئة والأحوال، ومن العناصر ذات الملاط الضعيف تتألف شخصيات رخوة مذبذبة متقلبة، تتبدل بتأثير أخف المؤثرات إذا لم تعيِّن مقتضيات الحياة اليومية وجهتها كما تعيِّن ضفتا النهر مجراه. غير أن الخلق مهما يكن ثابتًا فإنه يبقى مربوطًا بأحوالنا العضوية، فالألم العصبي أو الرِّثْيَة أو المغص يحول الفرح إلى غمٍّ، والصلاح إلى خبث، والعزم إلى خنث، ولذلك لم يكن (نابليون) المريض في واترلو (نابليون) المعهود، ولو كان (يوليوس قيصر) ذا تخمة لما عبر نهر الروبيكون. وكذلك العوامل الأدبية فإنها تؤثر في الخلق، أو تعيِّن وجهته على الأقل، فمتى يعتنق المرء إيمانًا فإن حبه للدنيا ينقلب إلى حب الله، وقد يصبح الكاهن المتعصب الظالم ملحدًا، ولكنه يصير مؤذيًا متعصبًا لإلحاده.

لقد بيَّنت أن الخلق والعقل ليسا متآزيين في نموهما، فعلى نسبة ميل الخلق إلى الوهن ينمو العقل، فالذي أوجب تداعي مدنيات عظيمة هو شدة العزم في الشعوب ذات العقل الصغير؛ إذ إن أرباب النفوس ذات الحزم والإقدام لا تقف أمام ما ينصبه العقل من الموانع، ولا تلبث السلطة في المجتمعات الزاهرة النضرة التي ضعفت الإرادة فيها أن تنتهي في الغالب إلى أولي الجرأة من محدودي العقل والذكاء، وهذا ما يجعلني أشاطر مختارًا رأي (فاكيه) القائل: «متى يسود السلم أوروبا فإن الشعب الذي يبقى مسلحًا يفتتحها.» وسيستعبد هذا الشعب شعوب أوروبا، ويرغم المسالمين من أصحاب الذكاء العاطلين من النشاط والعزم على العمل الذي يستفيد منه.

(٢) أخلاق الشعب الجامعة

لكل شعب أخلاق جامعة مشتركة بين أكثر أفراده، فتلك الأخلاق تحدث في الشعب آراء متشابهة في بضعة مواضيع جوهرية، ولا حاجة لأخلاق الشعب الأساسية أن تكون عديدة؛ إذ الاستقرار في أخلاق الشعب لا عددها هو الذي يهيمن على مصيره؛ فلو أخذنا الإنكليز مثلًا لرأينا أن العوامل التي تقود تاريخهم هي من القلة بحيث يمكن تلخيصها في بضعة أسطر، وإليكها: عبادة المجهود الثابت المستمر الذي يمنع المرء من التقهقر أمام أي مانع، والذي يجعله يعتبر كل كارثة أمرًا لا يُرْتَق فتقه؛ احترام العادات وكل ما أثبته الزمان احترامًا دينيًّا؛ الحاجة إلى العمل وازدراء تأملات الفكر العقيمة؛ احتقار الضعف؛ حب الواجب؛ اعتبار ردع الرجل نفسه بنفسه صفة أصيلة يجب على التربية أن تعتني بها اعتناءً خاصًّا.

وهنالك خصائص خلقية لا تطاق في الأفراد، ولكنها تصبح فضائل عندما تخص المجتمع؛ كالفخر مثلًا، فالفخر الشعبي يحرض الأمم على الحركة والعمل، وبفضله كان الجندي الروماني يجد ثوابًا كافيًا بانتسابه إلى أمة دوخت العالم. وما الشجاعة الخارقة التي أبداها اليابانيون في حربهم الأخيرة مع الروس إلا صادرة عن مثل ذلك الفخر. ثم إن الفخر أساس الرقي، فمتى شعرت الأمة بأفضليتها على الأمم الأخرى فإنها تبذل حبها للمحافظة على تلك الأفضلية.

بالخلق لا بالذكاء تفترق الشعوب وتتحابُّ وتتباغض، وما بينها من تباين فبالأخلاق لا بالذكاء الذي هو من نوع واحد عند جميعها، ولـمَّا كان تأثير الشيء الواحد في الشعوب يختلف باختلافها فإن سير هذه الشعوب يتباين بحكم الطبيعة حتى في الأحوال التي

يظهر أنها واحدة، وسواء أنظرنا إلى الشعوب أم نظرنا إلى الأفراد فإن الاختلاف بين البشر يكون باختلاف الأخلاق أكثر منه بالمنافع والذكاء.

(٣) تطور عناصر الخلق

بما أن لُحْمَةَ الخلق تتألف من مشاعر أساسية فإن تطور المشاعر المذكورة يقع ببطء على مر القرون كما يؤيد ذلك ثبات الأخلاق القومية؛ فالعناصر النفسية التي هي مصدر هذه المشاعر راسخة رسوخ العناصر التشريحية، ولكن يوجد حول الأخلاق الأصلية أخلاق ثانوية تستطيع أن تتغير حسب الزمان والبيئة.

والذي يتبدل على الخصوص هو الموضوع الذي تطبق عليه المشاعر؛ فما حب الأسرة، ثم القبيلة، ثم المدينة، ثم الوطن، إلا تطبيق مشاعر واحدة على جموع مختلفة، ونعد المذهب الأممي والمذهب السلمي عبارة عن انتشار جديد لتلك المشاعر. كانت الحمية الوطنية قبل قرن مجهولة في ألمانيا على وجه التقريب، فقد كانت ألمانيا منقسمة إلى دويلات متنافسة، وإذا عُدَّ حب الاتحاد بعدئذ في ألمانيا فضيلة فإن هذه الفضيلة ليست سوى ذيوع مشاعر قديمة بين طبقات جديدة.

الأحوال العاطفية هي من الثبات بحيث يتطلب تطبيقها على مواضيع جديدة جهودًا عظيمة، فقد أوجب نيل شيء من التسامح قتل ألوف من الشهداء، وسيل الدماء كالنهر في حومة الوغى كما قال الموسيو (لاڤيس).

ومن الأمور الخطرة في حياة الشعب هو أن يسعى هذا الشعب مستعينًا بالعقل في إيجاد مشاعر متناقضة للمشاعر التي رسخت فيه بفعل الطبيعة، فها نحن نعاني نتائج ثورتنا الكبرى حتى الآن؛ إذ أفضت هذه الثورة إلى انتشار الاشتراكية التي تزعم أن من الممكنات تغيير مجرى الأشياء الطبيعي، وتجديد روح الأمم.

ولا يعترض على المبدأ القائل بثبات المشاعر كوننا نشاهد في بعض الأحيان تقلبات فجائية في شخصية الإنسان؛ كانقلاب الإسراف إلى بخل، والحب إلى حقد، والتعصب الديني إلى تعصب للإلحاد ... إلخ، فهذه التقلبات لم تكن إلا تطبيقًا للمشاعر الواحدة على مواضيع مختلفة.

وتوجد عوامل متنوعة — كمقتضيات الاقتصاد مثلًا — قادرة على نقل مكان مشاعرنا دون أن تبدل شيئًا فيها، ونذكر من بين مقتضيات الاقتصاد كون انتشار الملكية بين كثير من الناس يؤدي إلى تناقص عدد المواليد، فلو أصبح جميع أبناء البلاد مُلَّاكًا لقلَّ عدد السكان أكثر من ذي قبل على ما يحتمل.

لا تبدل المشاعر التي هي أساس الخلق وجهتها من غير أن تنقلب حياة المجتمع رأسًا على عقب، فما مصدر الحروب الدينية والحروب الصليبية والثورات إلا ذلك التبدل، والذي يجعلنا في الوقت الحاضر نرى جو المستقبل مكفهرًّا هو أن مشاعر طبقات الشعب أخذت تحول وجهتها؛ فقد أصبح كل واحد — بفعل أوهام المذهب الاشتراكي — ساخطًا على نصيبه، معتقدًا أنه يستحق نصيبًا آخر أطيب منه، وقد صار العامل يظن أن الطبقات القائدة مستغلة؛ ولذا صار يحلم بالاستيلاء على أموالها عنوة.

الفصل السادس

انحلال الخلق وتقلبات الذات

(١) التوازن بين عناصر الخلق

بينَّا أن عناصر الخلق راسخة رسوخ العناصر التشريحية، والآن نقول: إنه قد يصيب الأولى ما يصيب الثانية من أمراض مختلفة حتى الانحلال التام، فلهذه الأحوال تأثير عظيم في تكوين الآراء والمعتقدات، ويظل إدراك بعض الحوادث التاريخية ممتنعًا إذا لم نقف على ما يقع في الخلق من تبدل عرضي.

وسوف نرى في فصل آخر أن العوامل التي تصدر عنها آراؤنا ومعتقداتنا وأفعالنا هي مثل العيارات الموضوعة على كفتي الميزان؛ فالكفة التي تثقل عياراتها تهبط. غير أن الأمور لا تجري تمامًا على هذا الوجه البسيط، فقد تتزيف العوامل التي اتخذنا العيارات رمزًا لها بتأثير بعض المعكرات، حينئذ يتغير الإحساس، وينتقل مقياس القيم، ويتحول اتجاه الحياة فتتجدد الذات.

نشاهد تلك التقلبات على الخصوص عندما يطرأ اختلال عظيم على ما بين البيئة الاجتماعية التي تغيرت فجأة وبين المشاعر من توازن، والوقوف على التوازن بين البيئة التي تكتنفنا، والعناصر التي نتألف منها إنما هو على جانب عظيم من الأهمية؛ فهذا التوازن لا يختص بعلم النفس وحده، بل يتناول علم الكيميا، وعلم الطبيعة، وعلم الحياة أيضًا، فالجسم — سواء أكان جمادًا أم كان من ذوات الحياة — ينشأ على توازن بينه وبين بيئته، ويتبدل هذا الجسم بتبدل البيئة، فقد يمكن سبيكة الفولاذ أن تصبح بخارًا خفيفًا إذا كانت في بيئة ملائمة.

وكذلك فإن أقطاب السياسة يقدرون عند الحاجة على تغيير ما بين عناصر الخلق القومي من توازن؛ وذلك بجعلهم ما هو ملائم منها لمقتضيات الزمن يتغلب على الأخرى.

(٢) تقلبات الذات

تَبيَّن من الملاحظات السابقة أن الذات قد تتحول، وتشتق هذه الذات — كما رأينا — من عاملين لازمين؛ هما الموجود نفسه ثم بيئته. والقول بأن ذات الإنسان متحولة لا يلائم الأفكار التقليدية التي تزعم ثبات الذات ووحدتها.

حقًّا إن ذات الإنسان تتألف من خليات لا يحصى عديدها، فكل خلية تشترك في تكوين وحدة الذات اشتراك الجندي في تكوين وحدة الجيش، والتجانس الواقع بين الألوف من الرجال الذي يتألف الجيش منهم ناشئ عن اتحاد حركتهم الذي قد تقضي عليه علل كثيرة.

ولا طائل تحت الادعاء بأن الذات تظهر ثابتة على وجه العموم؛ فالذات إذا لم تتغير فذلك لعدم تحول البيئة الاجتماعية، ولو تحولت البيئة فجأة — كما يقع أيام الفتن — لتبدل الأشخاص أنفسهم تمامًا، فقد شوهد في دور الهول الأكبر رجال من أبناء الطبقات الوسطى اشتهروا في الماضي بدماثة أخلاقهم ولين طبائعهم قد أصبحوا سفاكين متعصبين، وعندما هدأت الزوبعة وعادت البيئة السابقة رجعت إلى أولئك الرجال شخصيتهم السلمية، ولقد فُصِّلت هذه النظرية منذ زمن بعيد، فأُثْبت أن حياة رجال الثورة الفرنسوية تظل سرًّا غامضًا بدونها.

وما هي عناصر الذات التي تتركب شخصية الإنسان من مجموعها؟ لا يزال علم النفس غير مجيب عن هذا السؤال؛ وأما نحن فنقول: إن عناصر الذات تنشأ عن شخصيات موروثة تكونت بتعاقب القرون، فالذات — هي كما ذكرت — مؤلفة من ملايين من محاي خلوية، ومن هذه المَحَايي تتكون أطوار كثيرة.

فبعض المهيجات الشديدة، أو بعض الأمراض كالتي تشاهد في الوسطاء والمُنَوَّمين ... إلخ تحوِّل تلك الأطوار وتولِّد — ولو مؤقتًا — في الرجل نفسه شخصية أخرى أرفع أو أدنى من شخصيته المعتادة، فنحن نشتمل على ممكنات خلفية هي أعظم مما نطيقه عادةً، وتحركها فينا بعض الحوادث والأحوال.

(٣) عناصر الثبات في الذات

تتألف من البقايا والفضلات التي تنتقل إلينا بالوراثة طبقة خلقية عميقة ثابتة، وبهذه البقايا الإرثية يختلف الإنكليزي عن الفرنسوي أو الصيني اختلافًا كبيرًا، إلا أنه ينضم إلى

هذه الموروثات عناصر مصدرها التربية والبيئة الاجتماعية؛ كالطائفة، والقبيلة، والمهنة، وغيرها من المؤثرات الكثيرة، فهذه العناصر هي التي تعيِّن وجهة الإنسان تعيينًا ثابتًا.

وأكثر العناصر التي تتكون الذات من مجموعها فعلًا — بعد العرق — هي التي تتعرف بها الجماعة التي ننتسب إليها، فلما صُبَّت أفراد هذه الجماعة — عسكرية كانت أم قضائية، أم كهنوتية، أم نوتية … إلخ — في قالب واحد من الأفكار والآراء والسلوك، فإنهم يكونون ذوي أخلاق متجانسة. وإذا تقاربت آراء هؤلاء وأحكامهم بوجه عام فذلك لأن زمرتهم الاجتماعية بتسويتها بينهم جعلت شذوذ أي واحد منهم أمرًا لا يطاق، فمن يريد أن يمتاز من جماعته تناصبه هذه الجماعة العداء برمتها.

ولا يخلو استبداد الطبقات الاجتماعية من فائدة كما سنبين ذلك، فأين يجد أكثر الناس انتحاءهم النفسي الضروري إذا لم تكن آراء الجماعة التي هم منها وسيرها دليلًا لهم؟ إنهم — بفضل الزمرة التي ينتسبون إليها — يملكون طرزًا في السير، والدفع على شيء من الثبات، وبفضل هذه الزمرة أيضًا نرى لأرباب الطبائع الهينة وجهة وقرارًا في الحياة.

ويحتوي الناس بانتمائهم إلى إحدى الجماعات على قدرة لا يحلم بها الرجل وهو منفرد أبدًا، فلم تكن مذابح الثورة الفرنسوية الهائلة صادرة عن أعمال فردية، وإنما أتى بها مقترفوها — من جيرونديين، ودانطونيين، وهيبريين، وروبسبيريين — وهم على شكل جماعات تطاحنت تطاحنًا تجلَّى فيه ما هو خاص بالجماعات من تعصب أعمى، ووحشية شديدة.

(٤) صعوبة التنبؤ بما ينشأ عن الخلق من سير وحركة

لا يدعينَّ أحد أنه يعرف ذاتًا غير متقبلة أو لا تؤثر فيها الأحوال، وإنما الذي يمكنه أن يقوله هو أن الأحوال إذا لم تتغير فإن سير الشخص الذي اختبره لا يتغير أبدًا. لا ريب في أن رئيس القلم الذي أنشأ تقارير صادقة في عشرين سنة يستمر على إنشاء مثلها بصدقه المعهود، ولكن يجدر بنا ألا نؤكد هذا القول كثيرًا؛ إذ قد تحدث أحوال جديدة — كحرص شديد يستولي على بصيرته، أو خطر يهدد شرف أهله أو وطنه — فيصبح مجرمًا أو بطلًا.

وتشاهد تقلبات الذات في منطقة المشاعر وحدها على وجه التقريب، وأما في منطقة الذكاء والعقل فالتقلب ضعيف إلى الغاية، فالسخيف يبقى سخيفًا على الدوام، وتقلبات

الذات التي تمنعنا من معرفة أمثالنا معرفة حقيقية أساسية تمنعنا من معرفة أنفسنا أيضًا، ولذلك كانت حكمة قدماء الفلاسفة القائلة: «اعرف نفسك بنفسك» نصيحة يتعذر تحقيقها، فالذات الظاهرة تكون عادةً ذاتًا خادعة كاذبة، ليس لأن المرء يعزو إلى نفسه كثيرًا من الصفات الحسنة دون أن يعترف بأية نقيصة فيه فقط؛ بل لأن الذات وإن اشتملت على قسط قليل من العناصر الشاعرة فإن أكثرها يتألف من عناصر لا شعورية يمتنع اختبارها.

والطريقة التي يكتشف بها الرجل أمر نفسه هي الفعل والحركة، فهو لا يعرف نفسه إلا بعد أن يختبر سيره في أحوال معينة، والقول بأننا نعلم مقدمًا كيف نسير في أحد الأحوال المقبلة ليس إلا زعمًا وهميًّا؛ فعندما أقسم المرشال (ناي) لـ (لويس الثامن عشر) أنه سيأتي بـ (نابليون) أسيرًا في قفص من حديد كان صادقًا في يمينه، ولكن نظرة من سيده (نابليون) جعلته ينقض عهده، وقد كانت عاقبة هذا القائد المنكود الحظ أن أعدم رميًا بالرصاص جزاء جهله حقيقة نفسه، ولو كان (لويس الثامن عشر) ذا اطلاع على نواميس علم النفس لعفا عنه على ما يحتمل.

تَظهر نظريات الخلق التي شرحناها في هذا الكتاب متناقضة، فلقد قلنا مؤكدين: إن المشاعر التي يتألف منها الخلق هي على جانب عظيم من الرسوخ والثبات، ثم أشرنا إلى إمكان تقلب الذات، إلا أن هذا التناقض يزول إذا تذكرنا الأمور الآتية؛ وهي:

أولًا: إن الأخلاق تتألف من عناصر عاطفية أساسية لا تتبدل على وجه التقريب، وتنضم إليها عناصر أخرى ثانوية تتغير بسهولة كتغير العناصر التي يوجبها مربي الحيوانات في النوع دون أن يغير صفاته الجوهرية.

ثانيًا: إن الأنواع النفسية كالأنواع التشريحية تخضع للبيئة خضوعًا تامًّا، فهي مضطرة إلى ملاءمة مع تقلبات هذه البيئة إذا كانت هذه التقلبات غير عظيمة أو غير فجائية.

ثالثًا: قد يلوح لنا أن المشاعر نفسها تغيرت عند تطبيقها على مواضيع مختلفة، مع أن الواقع هو كون طبيعة هذه المشاعر لا تتغير أبدًا، فإذا انقلب حب الدنيا إلى حب الله في بعض الأحوال فإن المشاعر تكون قد بدلت اسمها لا طبيعتها.

ولهذه الملاحظات فائدة عملية، فهي تعتبر قاعدة لكثير من المسائل المهمة في الوقت الحاضر؛ كمسألة التربية مثلًا. لقد شوهد أن التربية تغيِّر الذكاء أو المعرفة الشخصية، فاستُنْتج أنها تغيِّر المشاعر أيضًا، فدلَّ ذلك على الجهل بأن الأحوال العاطفية والأحوال

الذهنية لا تتطور تطورًا متساويًا. وبتوغلنا في الموضوع نرى أن شأن التربية والأنظمة السياسية ضعيف في مصير الأفراد والأمم.

يظهر أن هذا الرأي المخالف لمعتقداتنا الديموقراطية يناقض ما نشاهده من أحوال بعض الأمم الحديثة أيضًا، وذلك ما يمنع من الإقبال عليه بسهولة.

يعترض البارون (موتونو) — سفير اليابان في بطرسبرغ، وأحد أقطاب السياسة في الشرق الأقصى المشهورين — عليَّ في مقدمة كتبي المترجمة إلى اللغة اليابانية قائلًا: إنه طرأ بتأثير الأفكار الأوروبية على النفسية اليابانية تبدلات كثيرة. إنني لا أظن أن تلك الأفكار أثرت تأثيرًا حقيقيًّا في نفسية اليابانيين، وإنما تسربت الأفكار المذكورة في ثنايا الروح اليابانية الموروثة من غير أن تغير شيئًا في أجزائها الجوهرية، فإقامة المدفع مكان المخذفة أو المقلاع يحول مصير الأمة تحويلًا تامًّا، ولكنه لا يغير أخلاقها القومية أبدًا.

نستنتج من هذا الفصل أن الآراء والحركة لمَّا كانت تنشأ عن علل بعيدة من الإرادة والاختيار فإن تأثيرنا فيها محدود إلى الغاية، ومع ذلك فسوف نرى أن مكافحة المقادير المستولية على مشاعرنا وأفكارنا أمر ممكن.

الباب الثالث

أنواع المنطق المسيرة لآرائنا ومعتقداتنا

الفصل الأول

تقسيم المنطق

(١) هل للمنطق أشكال متنوعة؟

لقد اعتبر المنطق حتى اليوم فنًّا للتعقل والبرهنة، إلا أن الحياة هي السير وليس البرهان هو المسير، وسوف نثبت في هذا الفصل والفصول الآتية أن ما عددناه آنفًا من حدود ودوائر للحياة والنفس خاضع لأنواع منطقية مختلفة، فلما رأينا أن العمل والحركة هما مقياس المنطق الوحيد، فإننا نعتبر أن المنطق يختلف باختلاف ما يفضي إليه من نتائج متباينة.

ففي أي أمر كان يجب على العالم النفسي ألا يبحث بحثًا منفردًا عن غايته المبتغاة وحدها، أو الوسائل التي اتخذت لنيلها، أو النجاح بها، أو الإخفاق فيها؛ إذ الذي يهم ذلك العالم هو العوامل الموجدة لذلك الأمر، فإذا وجدت أعمال صالحة أو أثيمة فليس منها ما هو غير منطقي، وإنما صدرت هذه الأعمال عن أنواع منطقية مختلفة لا يسد أحدها مسد الآخر. خذ المنطق العقلي مثلًا تَرَ أنه يختلف في تفسيره أو اكتناهه للأعمال المذكورة عن المنطق الديني والمنطق العاطفي ومنطق الجموع.

(٢) أنواع المنطق الخمسة

للمنطق خمسة أنواع على ما أعتقد؛ وهي: منطق الحياة، والمنطق العاطفي، ومنطق الجموع، والمنطق الديني، والمنطق العقلي. وسأكتفي الآن بإجمالها على أن أخصص بعدئذ فصلًا لكل واحد منها.

منطق الحياة: سنبين الأسباب التي دفعتنا إلى وضع هذا النوع من المنطق في الفصل الذي خصصناه للبحث عنه، وإنما نقول الآن: إن منطق الحياة الذي يسيطر على بقاء

الأنواع وأشكالها يجري حكمه بعيدًا من تأثير إرادتنا، ويأتي بمطابقات تسير بفعل قوى لا نعرف من أمرها شيئًا. ويظهر أن القوى المذكورة تسير كأنها مالكة لعقل أسمى من عقلنا، وأنها غير آلية لاختلاف تأثيرها في كل آنٍ بحسب الغاية التي ترمي إليها، فضم منطق الحياة إلى ما يهيمن عليه من أنواع المنطق الأخرى يملأ فراغًا أخفته نظريات ما بعد الطبيعة عن العيان.

المنطق العاطفي: لم يعرف علماء النفس في الماضي سوى المنطق العقلي، وقد أخذوا في هذا الوقت يضيفون إليه المنطق العاطفي، أو منطق المشاعر الذي يختلف عنه اختلافًا كليًّا، ووجه التباين بين المنطقين هو أن اشتراك الأفكار والمعقولات يكون شعوريًّا، مع أن اشتراك المشاعر هو غير شعوري، ثم إن المنطق العاطفي يقودنا في أكثر أعمالنا.

منطق الجموع: يجب ألا يخلط هذا المنطق بالمنطق العقلي؛ فلقد أثبتنا منذ كثير من السنين أن المرء وهو جزء من الجماعة يكون في سيره غيره وهو منفرد، وهذا ما يجعلنا نقول: إنه مسير وهو في الجماعة بمنطق خاص يتضمن ما يشاهد في الجموع وحدها من أصول ومبادئ.

المنطق الديني: المنطق الديني نتيجة لما في الإنسان من روح دينية، وهذه الروح التي كانت عامة بين الناس في القرون الغابرة لا تزال منتشرة على ما يظهر، ولا أهمية لارتباط الأشياء والحوادث بعضها ببعض عند أولي النفوس الدينية، فالارتباط المذكور في نظر هؤلاء إن هو إلا أمر يختص بموجودات علوية نعاني عزاءهما فقط، ولا يختلف المنطق الديني عن المنطق العاطفي بكونه شعوريًّا اختياريًّا فقط، بل بتسبيبه أعمالًا تناقض أعمال المنطق العاطفي مناقضة تامة.

المنطق العقلي: هذا المنطق هو فن التأليف بين الأفكار والتمييز بين ما تشابه وما اختلف منها، وعنه وحده على وجه التقريب بحث علماء النفس منذ (أريسطوطاليس) فوضعوا فيه كتبًا عديدة.

(٣) اقتران أنواع المنطق

أنواع المنطق قد تتنضد أو تتحدد أو تتعارك في الأشخاص أنفسهم، وقد يتغلب أحدها على الأنواع الأخرى بحسب الزمان والشعوب أحيانًا من غير أن يبطل عملها تمامًا.

كان المنطق العاطفي يسوق القائد في أثينا إلى شهر الحرب على خصومه، وكان المنطق الديني يدفعه إلى استشارة الآلهة في الزمن المناسب لإجراء حركاته، وكان المنطق العقلي يملي عليه خططه، وفي أثناء جميع ذلك كان منطق الحياة يُعيِّشه.

وستتجلى لنا أوصاف أنواع المنطق في مباحثنا الآتية، ولكن لا يطمعنَّ القارئ باكتشاف كنهها في المباحث المذكورة، فهذا الكنه لا يزال مجهولًا حتى كنه المنطق العقلي الذي بحث عنه أكثر من سواه، حقًّا إننا لم نستدل على وجود أنواع للمنطق إلا بنتائجها، وليس هذا شأنها وحدها، بل إن أكثر العلوم دقةً؛ كالعلوم الطبيعية، مجبورة على الاستناد إلى فرضيات ومزاعم تحولت إلى حقائق محتملة عندما اقتضت الضرورة ذلك.

إن مباحث الضياء والنور والحرارة والكهرباء وكل مباحث علم الطبيعة قائمة على «فرضية الأثير»، وقد اقتضت الضرورة أن يسند إلى هذا الجوهر المجهول خصائص يتعذر إدراكها، والتوفيق بينها، كالزعم بأنه أقسى من الفولاذ مع أن الأجسام المادية تسير فيه دون أن تلقى صعوبة، فبعد أن كان علماء الطبيعة يعدون كثافة «الأثير» ألطف من كثافة الغاز كثيرًا اضطروا لإيضاح إحدى الحادثات الجديدة إلى القول بأنه ذو ثقل أشد من ثقل المعادن بملايين من المرات.

فإذا كانت العلوم التي هي على جانب كبير من الصحة — كعلم الطبيعة — تستعين بفرضيات، فإننا لا نعجب من سيرنا على مثل هذا النهج في علم كعلم النفس أشد تعقيدًا من العلوم الأخرى، فعلماء الطبيعة لا يجزمون بوجود «الأثير»، وإنما يقولون إن الأمور تجري كما لو كان «الأثير» موجودًا، فلولا الزعم بوجود «الأثير» لاستحال تفسير الحادثات. ونحن كذلك، فإننا لا نجزم بوجود أنواع منطقية ذات كينونات منفصلة، ولكننا نقول إن الحوادث تجري كأن هذه الكينونات موجودة في الحقيقة.

الفصل الثاني

منطق الحياة

(١) شأن منطق الحياة

أبسط حوادث الحياة في الظاهر، كالتي تُشاهَد في الخلية الواحدة، هي على جانب كبير من التعقيد، فلمظاهر هذه الحوادث ارتباط وثيق يشبه ارتباط العناصر العقلية الذي نسميه المنطق، ولذلك ليس ما يمنعنا من إطلاق اسم المنطق عليها أيضًا.

ويسيطر منطق الحياة على جميع الحوادث الجثمانية، فما تأتي به خليات الجسم من أفعال لم يكن آليًّا ويتحول بحسب مقتضيات الزمن، فكأن هذه الأفعال مقودة من عقل خاص يختلف عن عقلنا اختلافًا كليًّا. ولإثبات ذلك نكتفي بنقل هذه العبارات التي جاءت في كتابي المسمى «تطور المادة»، وإليكها:

> تأتي البُنَى الذَّرِّيَّة التي تصنع الخليات بأعمال نطاسية لا نقدر على الإتيان بمثلها، بل ولا بمثل ما هو دونها في مختبراتنا، فهي تقدر على تحليل أمتن الأجسام وأصلبها كالكلورور دوسوديوم، واستخراج الأزوت من الأملاح الأمونياكية، والفوسفور من الفوسفات ... إلخ، تدير هذه الأفعال الغريبة المتجهة نحو أحد المقاصد قوى مجهولة تسير كأنها ذات ذكاء أرفع من ذكائنا، وما تنجزه القوى المذكورة في أدوار الحياة من عمل أسنى جدًّا مما يقدر أرقى العلوم على فعله، وسيعتبر العالم الذي يستطيع أن يحلل بذكائه وسعة عقله ما تقدر خليات أحقر الموجودات على تحليله كآلة لسموه على باقي البشر.

تؤيد أفعال الحياة الجثمانية أنها مضطرة إلى التحول حيثما وجدت، فإذا دخل في تركيب الموجود شيء غير نافع فإنه لا يلبث أن يُزل أو يُنْبَذ، وأما الشيء المفيد فإنه يرسل إلى الأعضاء فيتحول هنالك تحولًا عجيبًا، وتشتبك هذه الأفعال التي لا يحصيها عدٌّ من غير أن تتضرر؛ ذلك لأنها تسير سيرًا هو غاية في الإتقان والإحكام، ومتى تقف حركة المنطق الدقيق الذي يدير المراكز العصبية فإن الموت يقع لا محالة.

وعليه يجوز تسمية تلك المراكز العصبية «مراكز الإدراك الجثماني»، فهي تسيِّر الحياة وتحرسها لإيجادها حسب الأحوال عناصر دفاع عن الحياة مختلفة، وهي كما قال الدكتور (بونيه): «تعلم أحسن من أي عالم من علماء وظائف الأعضاء، أو من أي طبيب ماذا يلائم العضو الضعيف من دواء، وليس شأن العلم الراقي سوى تحريكها عند فتورها.»

ومتى تتطور الخلية على شكل معين، أو متى يعتاض الحيوان عن العضو الأبتر عضوًا آخر مستعينًا بأعصاب وعضلات وأوعية شريانية، فإننا نشاهد منطق الحياة يهيئ لمثل ذلك الطارئ الفجائي من الحوادث ما يعجز المنطق العقلي عن تقليده وإدراك أمره، وأيضًا فإن منطق الحياة هو الذي يعلم الطائر كيف يطير، وكيف يقلب طيرانه حسب الأحوال، فقد اقتضى مرَّ عصور عديدة على الإنسان حتى استطاع بمنطقه العقلي أن يقلد الطائر قليلًا.

وما في أعمال الحياة من ضبط وإحكام، وما تفعله كل يوم من التئام بالأحوال ذات التقلب المستمر، وما فيها من استعداد للدفاع عن الجسم ضد عوارض العالم الخارجي الفجائية، يجعلنا نَعُدُّ تعبير «منطق الحياة» تعبيرًا ضروريًّا.

ومنطق الحياة هو الذي ينظِّم ديمومة الفرد والنوع الذي ينتسب إليه، فحياة الفرد زائلة، وحياة النوع وإن كانت أطول إلا أنها ليست مؤبدة؛ إذ تدلنا بقايا الأنواع الچيولوچية على أن هذه الأنواع لم تظل باقية حتى اليوم، بل سبقتها أنواع وعقبتها أخرى ذات دوام محدود.

يظهر أن الأنواع تزول حينما تثقل وطأة ما ورثته عن الأجداد من خصائص فلا تقدر على ملاءمة تقلبات البيئة، هذا هو تاريخ عالم النبات وعالم الحيوان، كما أنه تاريخ كثير من الشعوب، فالنوع أو الفرد أو الشعب في دور الطفولة يمتاز بمرونة عظيمة يستطيع بها أن يلائم أي تحول في البيئة، وأما في دور شيخوخته فيكون ذا صلابة تمنعه من الالتئام، وهذا هو السر في كون أحد الموجودات في مقتبل العمر يلائم

تقلبات البيئة مع أن هذه التقلبات تقضي عليه في دور انحطاطه، وكذلك فإن هذا يوضح لنا لماذا تغيب الشعوب الشائخة عن التاريخ عندما لا تقدر على التحول.

ولو اقتصر منطق الحياة على تنظيم وظائف الحياة لأغفلنا أمر البحث فيه، ولكن ما العمل وهو مسيطر على عوامل مهمة للآراء والمعتقدات والسير والحركة، ثم لَمَّا كانت الحياة دعامة المشاعر فإننا قد نتصور أن منطق الحياة ليس ذا تأثير في المنطق العاطفي فقط، بل إن أحد هذين المنطقين مختلط بالآخر. نقول ذلك ونحن نرى أن المنطقين المذكورين منفصلان، وإنما منطق الحياة هو البقعة التي ينبت عليها المنطق العاطفي.

إذن ليس عندنا إيضاح كاشف نعلل به سبب إنكار منطق الحياة من قبل علماء النفس، فهذا المنطق هو أهم أنواع المنطق الأخرى لهيمنته عليها، فمتى يأمرها تجِبْهُ طائعة.

(٢) الغرائز ومنطق الحياة

إن (بركسون) وإن أصاب في تفريقه بين الغريزة والعقل، لكنه لم يصِبْ كبد الحقيقة تمامًا؛ إذ يوجد كثير من الغرائز هي عادات عقلية أو عاطفية تراكمت بالوراثة، وأما التفريق بين حوادث الحياة بسيطة كانت — كالجوع والحب — أم معقدة — كالتي تشاهد في الحشرات — وبين الذكاء فصحيح.

والبحث عن بعض الغرائز كثير الصعوبة، ولا يتم استقراؤها على شيء من الوضوح إلا بترك جميع ما في كتب علم النفس المزاولة من أفكار، حقًّا يقتضي التسليم بأن الموجودات الدنيا تسير في بعض الأحوال كما يسير الإنسان المسوس من عقل عالٍ، وذلك حسب طرق نجهل كنهها، ولكننا لا نجحدها لمشاهدتنا لها، ولا تظهر هذه الدراية في الموجودات التي هي على شيء من التقدم؛ كالحشرات مثلًا، بل تشاهد أيضًا في الموجودات الأولية؛ كالخليات التي لا شكل لها ولا جنس، والتي تدل على بزوغ فجر الحياة. فالخلية المائية — أي الكُرَيَّة التي تكونت بذاتها من حُبيبات حية — هي بعزمها على مسك قنيصة تأتي بأعمال تناسب غايتها، وتتحول بحسب الأحوال كأنها ذات تمييز وإدراك، وقد صرح (داروين) عندما حقق سعي بعض الحشرات الدقيق في المحافظة على البُيَيْضَات التي تخرج الديدان منها على شكل غير شكلها «أن التأمل في هذا الموضوع عقيم». لا شك في أن نواميس منطق الحياة وقواعده متعذر إدراكها، ولكنه يجب علينا أن نحقق

نتائجها بضبط ودقة؛ كي نثبت أن هذه النتائج غير صادرة عن قدرة عمياء يعبَّر عنها بالغريزة.

وليس ما هو أكثر بصيرة وحذقًا من سلسلة منطق الحياة، وكنه هذا المنطق مع كونه لا يزال مجهولًا إلا أن تعيين وجهته سهل هيِّن، فغايته أن توجد في الشخص وسائل ضرورية سواء لبقائه بالتناسل أو لملاءمته الأحوال الخارجية. والوسائل المذكورة هي من الإتقان والإحكام بحيث لا تبلغها الآمال والهمم، فقد بيَّن كثير من علماء الطبيعة — مثل: (بلانشار) و(فابر) ... إلخ — دقة أعمال الحشرات وقوة التمييز فيها واستعدادها لتغيير سيرها حسب الأحوال؛ فقالوا إنها تعلم كيف تحوِّل خواص المواد الغذائية التي هيأتها لدوادها حسبما تكون ذكرًا أو أنثى، وأنه يوجد أنواع من الحشرات غير ضارية، ولكن لمَّا كان دوادها لا يعيش إلا من الفرائس الحية، فإنها تشلها على وجه لا تتفسخ فيه حتى تنقب الدوادُ البيضَ فتخرج منها وتفترسها. ثم يعترف (فابر) بأنه يوجد في الحشرة — عدا غريزتها التي تدير أعمالها النوعية الثابتة — شيء من الشعور والاستعداد للكمال، غير أنه لم يجرؤ على تسمية هذا الاستعداد الأولي بالذكاء، فأطلق عليه اسم «قوة التمييز»، ويصدر عما يوصِّفه (فابر) بكلمة التمييز نتائج يتعذر على أمهر العلماء وأكثرهم براعةً أن يفعل مثلها، ولذلك قال مستنتجًا: «إن الحشرة بصحوها تلقي العجب والدهش فينا.»

ومثل هذه الحوادث العديدة التي شاهدها العالم (غاستون بونيه) — أحد أعضاء المجمع العلمي — في النمل والنحل جعله يسند إلى الحشرات صفة سماها (إدراك الجمع)؛ فقد أبان أن النحل تطيع أوامر «لجنة القفير المدبرة»، وتتغير هذه الأوامر حسب معلومات الباحثين عن طبائع النحل الذين يرودون كل صباح الضواحي والأرباض، ومتى تغادر النحلة القفير فإنها تنفذ الأمر تمامًا، فإذا أرسلتها اللجنة تفقد الماء في حوض، وكان يُرش على جانب هذا الحوض شراب أو عسل هدرًا، فإن النحلة لا تلتفت إلى ذلك الشراب أو العسل، والنحل الذي فُوِّض إليه أمر اجتناء رب النبات لا يعبأ بالطلع واللقاح ... إلخ.

وكيان هذه الحشرات الصغيرة الاجتماعي منظم إلى الغاية، قال المؤلف المذكور: «مثل القفير في نظامه كمثل نظام الاشتراكية الحكومية المسوية حيث لا حب، ولا إخلاص، ولا رحمة، ولا إحسان؛ فكل واحد مرغم على الرزوح تحت أثقال العمل المتواصل في سبيل المجتمع.»

تلقي تلك الحوادث التي كثرت مشاهدتها بلبلة في أنصار علم النفس العقلي القديم؛ لأن الحوادث المذكورة وإن كانت توضح سابقًا بكلمة الغريزة إلا أن التحقيق أثبت أنه

ينطوي تحت هذا اللفظ المبتذل سلسلة من الحوادث المجهولة جهلًا تامًّا، كانت الغريزة تعتبر فيما مضى صفة ثابتة أنعمت بها الطبيعة على الحيوانات يوم تكوينها كي تسيِّرها في أدوار الحياة كما يقود الراعي قطيعه، وقد عدَّ (ديكارت) الحيوانات آلات متحركة، فعلى ما في حركة هذه الآلات من أمر غريب عجيب بدت له كشيء بسيط جدًّا.

ولكن لما تعمق العلماء في مباحثهم اعترفوا بتحول الغرائز التي كان يُظن أنها ثابتة لا تتحول. خذ النحل مثلًا تَرَ أنه يقدر على تغيير قفيره عندما تدفعه الضرورة إلى ذلك، وقد جاء في مذكرة للمسيو (روبو) عرضها سنة ١٩٠٨ على مجمع العلوم، وبحث فيها عن تقدم الغريزة في زنابير أفريقيا «أن ما بين أنواع تلك الزنابير من فروق يمكننا من أن نستقرئ سلسلة تطور غريزتها التي تتجه — بادئة من الزنابير المنفردة — نحو الزنابير الاجتماعية».

وما لاحظناه من حوادث الحشرات نلاحظ مثله في الحيوانات العليا، فهذه الحيوانات تستطيع أن تأتي بأفعال يتألف من تدوينها علم راقٍ لو كان المنطق العقلي هو الذي أملاها، ونعد من تلك الأفعال ادخار الحيوان ما يحتاج إليه من قوة شديدة ليطير في الهواء من غير عناء كما يشاهد في الصقور والخطاطيف … إلخ، فالطيور المذكورة تهبط من ارتفاع كبير مطاردة طرائدها، ولأجل ذلك تطوي أجنحتها فتنزل إلى الأرض على شكل منحنٍ، وهي تستفيد من القوة الحادة التي نالتها في أثناء هبوطها عند صعودها ثانيةً في الهواء، ومما يقدر عليه الطير أيضًا هو أن ينال برشاقة ما في منحدر مجاري الهواء من قوة يلائم بها على الفور تقلبات الجو الفجائية.

لا ريب في أن تعبير منطق الحياة الذي أوجدناه لا يؤدي الآن إلى إيضاح حقائق الأمور إيضاحًا كاشفًا، ولكنه يفيدنا على الأقل بإثباته أن جميع أفعال الحيوان التي زُعم أنها غريزية هي بالحقيقة غير ناشئة عن الغريزة العمياء التي حاول العلماء حتى الآن أن يسندوها إليها، فالعدول عن الشروح الآلية كالتي أتى بها (ديكارت) هو في الواقع تسليم بوجود عالم نفسي واسع مجهول نكاد لا نبصر منه سوى وميض خفيف.

ومع أن البيان السابق يبتعد قليلًا من مقاصد هذا الكتاب فإننا نعده شيئًا جوهريًّا لا مناص من الإلماع إليه فيه، فلا يذهب عن بالنا عند البحث في علل آرائنا ومعتقداتنا أنه تستتر تحت سطح الحوادث الخارجي قوى لم تدركها الأبصار، وهي أقوى من عقولنا المسيرة بها في الغالب.

نلخص هذا الفصل بالكلمات الآتية؛ وهي: إن ظهور منطق الحياة قد تم قبل ظهور أنواع المنطق الأخرى، وإنه لا حياة بدونه، فلو توقف عمله لصارت الأرض بلقعًا كالحًا تتحكم فيه قوى الطبيعة العمياء؛ أي القوى التي ليست عضوية.

الفصل الثالث

المنطق العاطفي ومنطق الجموع

(١) المنطق العاطفي

قد ميَّز العلماء منذ وقت بعيد دائرتين في روح البشر؛ وهما دائرة المشاعر ودائرة العقل، وأما القول بوجود منطق للمشاعر فقد وقع في زمن قريب، وقبل أن نفرق بين المنطق العقلي ومنطق المشاعر نعترف بأن للحياة العاطفية كيانًا مستقلًّا عن كيان الحياة العقلية، فظهور الحياة العقلية قريب في تاريخ العالم، مع أن الحياة العاطفية وما تضمنته من منطق قد سيَّر ذوات الحياة منذ الأجيال الچيولوچية، وقد عاشت الحيوانات وبلغت غايتها على ما يرام بفعل منطق الحياة والمنطق العاطفي فقط. خذ الدجاجة مثلًا تَرَ أنها تعرف بعاطفتها كيف تربي فراريجها، وتقودها، وتعلمها الاقتيات، وتكفُّ أذى عدوها عنها.

أيام كان الناس لا يعرفون غير المنطق العقلي كانوا يرون أن العقل هو مصدر ما فيهم من ظنون وأفكار، والواقع أن العقل أصل المسائل العلمية، وهو قلما يكون سبب الأمور الاعتيادية التي تحدث في أثناء الحياة اليومية، فالمنطق العاطفي هو في الغالب مصدرها، وكلما أمعنَّا في تفهُّم ما للمبادئ العاطفية من تأثير نتوثق من صحة هذا القول الأساسي، حينئذ نرى أن أدلاء العاطفة هي غير أدلاء العقل، وأن حوادث المنطق العاطفي يرتبط بعضها ببعض حسب قواعد وثيقة بعيدة من المنطق العقلي.

وسيكون شأن المنطق العاطفي الذي استأثرت به أهواء الكتَّاب الروائيين والشعراء حتى الآن عظيمًا في علم النفس القادم، فشأن المؤثرات العاطفية في الحياة هو في الدرجة الأولى كما قال (ريبو)، وليست المعرفة رَبَّةً بل أَمَةً كما قال هذا الفيلسوف أيضًا.

(١-١) مقايسة بين المنطق العاطفي والمنطق العقلي

تبدو أوصاف المنطق العقلي والمنطق العاطفي بالمقايسة بينهما، فالمنطق العقلي يدير دائرة الشعور، وأما المنطق العاطفي فإنه مستولٍ على دائرة اللاشعور، وبما أن سلسلة المنطق العاطفي لا شعورية، فإننا لا ندرك تطور مشاعرنا إلا قليلًا، فنحن نقود حياتنا العقلية، ولكن لا سلطان لنا على حياتنا العاطفية.

والمنطق العاطفي والمنطق العقلي كلاهما من الاختلاف بحيث يتعذر إيجاد مقياس مشترك بينهما، ولذلك يستحيل أن نعبر عن المشاعر بكلمات مصدرها العقل، وليس المنطق العقلي بمستطيع أن يفهم أو يفسر أو يزن ما يمليه منطق المشاعر من أعمال، وأما الكلمات التي نحاول أن نشرح المشاعر بها فإنها توضح هذه المشاعر إيضاحًا رديئًا، وإذا تمكنتْ من ذلك قليلًا فحسب ناموس الاشتراك النفسي، فمِن تعوُّد ربط المشاعر ببعض الألفاظ نتذكَّر عند خروج تلك الألفاظ بعض هواجس نفسية عاطفية، والموسيقى التي هي لسان المشاعر الصادق تذكِّرنا بالمشاعر أحسن مما تذكرنا بها الألفاظ والكلمات، ولكن نظرًا لخلوها من الضبط فإنها لا تكون واسطة ارتباط بين مشاعر الناس إلا على وجه مبهم.

ويجهل المنطق العاطفيُّ العقليَّ، ولذلك يبتُّ في الأمور قبل أن يتم الثاني تفكيره، فهو لا يبالي — كالمنطق العقلي — بالمعقولات والمتناقضات والأصول والمبادئ.

ويستند المنطق العقلي إلى مبادئ مادية مستنبطة من التجربة والاختبار، فالحوادث الصريحة المجردة التي يسهل قياسها هي قوام تلك المبادئ، وأما المنطق العاطفي فلا دعامة له سوى مبادئ معنوية أدبية يتعذر قياسها وتقديرها على وجه الضبط والصحة، وهذا هو السر في كون هواجس النفس الشعورية الصادرة عن المنطق العاطفي تظل مبهمة غير صريحة على الدوام.

وتشترك الأفكار في المنطق العقلي حسب قواعد عامة معلومة، وأما المشاعر في المنطق العاطفي فإنها تجتمع في الغالب على شكل غير إرادي، وبمقتضى نظام دقيق — أظنه الغريزة — لم نعلم منه سوى شيء يسير، وفضلًا عن ذلك نقول: إن بعض المشاعر تولِّد مشاعر أخرى لا تلبث أن تمتزج بها؛ فالألم يوجب الغم، والحب يورث السرور، والغضب يولد الميل إلى الانتقام … إلخ.

ولكن قواعد المنطق العقلي مادية، فإنها تطبق على صورة واحدة من قبل جميع الرجال الذين بلغوا شأوًا من الرقي، وهذا هو سبب اتفاق هؤلاء الرجال على جميع

المواضيع العلمية، وأما المنطق العاطفي فإنه — بالعكس — يختلف باختلاف الناس؛ إذ الناس متباينون في مشاعرهم، ولذلك تعذَّر الاتفاق على جميع المسائل التي تمس المشاعر؛ كالمعتقدات الدينية والأخلاقية والسياسية ... إلخ.

ولَمَّا كانت قواعد المنطق العاطفي غير عامة كقواعد المنطق العقلي، فإن الرسالة التي تؤلف في منطق أحد الناس العاطفي لا تطبق على الباقين، وأما رسالة المنطق العقلي فإنها ثابتة تشمل الناس قاطبة.

تبيَّن من الملاحظات السابقة أن الأمور الواحدة تختلف بحكم الضرورة عند النظر إليها من خلال المنطق العقلي أو المنطق العاطفي، فمن الخطأ أن نحكم بالعقل حوادث أملاها منطق المشاعر.

وعلى رغم قلة اطلاعنا على سنن المنطق العاطفية فإن الاستقراء يدلنا على بضع قواعد يستعملها أعاظم الخطباء في أغلب الأوقات، فبدلًا من أن يقضي أولئك الخطباء أوقاتهم في تنظيم الأدلة وتنميق البراهين التي هي إن أقنعت لا تؤثر في السامعين فإنهم يحركون بالتدريج ساكن هؤلاء السامعين بضروب المؤثرات التي يتفننون في تنويعها؛ لعلمهم أن ما يوجبه أحد المحرضات من تأثير لا يلبث أن يهن وينفد، وهم باستدراج لبق، وكلمات ساحرة، وصوت عذب، يكوِّنون جوًّا عاطفيًّا ملائمًا لقبول استنتاجاتهم.

والمشاعر لأنها العامل الحقيقي في أفعالنا فمن الطبيعي أن يقودنا منطقها؛ إذ الناس متى هاجت عواطفهم يغيرون سيرهم، ومتى كُسِبت قلوبهم يُغلَبون على أمرهم. وأما استفادة الخطيب من المنطق العقلي فهي أنه يرسم به خططًا يرتب بها خطبه.

والمبادئ العاطفية تؤثر في الصورة التي نتصور بها العالم، وهي أساس أفكارنا الخلقية والدينية والسياسية والاجتماعية، وكذلك الحقائق العلمية، فإن نظرياتها مشبَّعة من تلك المبادئ.

ومن حسن الحظ كون المنطق العاطفي لا يديرنا على الدوام، فسوف نرى أن المنطق العقلي يقدر أحيانًا على زجر اندفاعاته، إلا أن هذا الزجر لا يتم بسهولة؛ لأن المنطق العقلي لا يزال ضعيفًا على رغم نموه بتعاقب القرون، ومع ذلك فإن الطريق الطويلة التي قطعها المنطق العقلي تبدو لنا عند البحث عن الهمج الذين استحوذت عليهم المشاعر الخالصة؛ إذ تسيِّر هؤلاء الفطريين الذين ليس للمنطق العقلي سلطان عليهم اندفاعاتُهم، فمتى يعضهم الجوع يتدهوروا على فريستهم، ومتى يحقدوا على عدوهم ينقضوا عليه كالوحوش، هكذا كان يعيش رجال القرون الخالية الذين عدَّهم فلاسفة الثورة الفرنسية نماذج يُقتدى بها.

(٢) منطق الجموع

المنطق العاطفي هو إحدى الدعائم التي يستند إليها منطق الجموع، ولا نبحث الآن عن هذا المنطق، فسندرسه في فصل آراء الجموع ومعتقداتها، وإنما ننبه هنا إلى أنه لا يمكن خلط المنطق العاطفي بمنطق الجموع الذي لا يتجلى إلا في الجماعات، والذي قد يؤدي إلى أفعال تناقض التي تصدر عن المنطق العاطفي. وسوف نرى أنه يتألف من روح الجموع مركَّب خاص لا يعرف المستحيل ولا التبصر، وتكون المشاعر فيه مفرطة، وفيه يبطل عمل المنطق العقلي.

بيَّنا في هذا الفصل أن المنطق العاطفي — مع المنطق الديني الذي سنبحث عنه الآن — هو مصدر الحركة فينا، فالحركة لا تكون إلا بالحس، ومتى نحس يبرز حكم المنطق المذكور. حقًّا لقد سيطر هذا المنطق على جميع الأجيال، وما تخلص الإنسان قليلًا من ربقته إلا في دور قريب، فالساعة التي يهيمن فيها المنطق العقلي على المنطق العاطفي بدلًا من أن يهيمن هذا على ذلك لم تدقَّ بعد.

الفصل الرابع

المنطق الديني

(١) أوصاف المنطق الديني

المنطق العقلي هو منطق شعوري يعلِّم الإنسان التعقل والتفكير والبرهنة والاختراع، والمنطق العاطفي هو منطق لا شعوري يصدر عنه سيرنا، ولا تأثير للعقل والذكاء في حلقاته في الغالب، وأما المنطق الديني الذي ندرسه الآن فطبقته أعلى من طبقة المنطق العاطفي، فالحيوانات لا تعرف المنطق الديني مع أنها ذات مشاعر كثيرة.

والمنطق الديني على رغم كونه أدنى من المنطق العقلي — الذي ينم على درجة راقية في التطور — مثَّلَ بما ولَّده من معتقدات دورًا عظيمًا في تاريخ الأمم، وهو مصدر التأويل والتفسير اللذين — مع أنهما غريبان عن العقل — هما ذوا سلطان على الحركة، ولو حل المنطق العقلي في الماضي مكان المنطق الديني لكان سير التاريخ خلاف ما وقع.

والمنطق الديني يرضى — كالمنطق العاطفي — بالمتناقضات، ولكنه ليس كالثاني لاشعوريًّا، وكثيرًا ما يتضمن شيئًا من التأمل والتفكير. وبالحركة التي هي مقياس أنواع المنطق يظهر لنا الفرق بين المنطق الديني والمنطق العاطفي ظهورًا واضحًا، فالمنطق الديني يسوق الإنسان إلى ما لا يسوقه إليه المنطق العاطفي من أعمال تناقض أكثر منافعه صراحةً، ومن يتصفح تاريخ الأمم السياسي أو الديني يَرَ أمثلة كثيرة على ذلك.

قد يعترض عند مطالعة تاريخ الحوادث المذكورة التي أدت إلى اختفاء كثير من الأحوال العاطفية؛ كالحياء وحب الأبناء، بأن يقال: إن هذا الاختفاء ينشأ عن حلول مشاعر مكان أخرى، ولكن ما هي علة هذه الحلول؟ يقتضي ألا يبحث عنها في المنطق العقلي؛ لأن العقل لا يشير علينا بأن نفعل تلك الأعمال، وكذلك يجب ألا يبحث عنها في المنطق العاطفي، إذن تلجئنا الضرورة إلى الاستعانة بمنطق آخر يسمى المنطق الديني،

وما بين المنطق الديني والمنطق العاطفي من فروق سيتجلى لنا على وجه أوضح من ذي قبل عندما نفحص شأن المنطق الديني في تاريخ الحضارة.

وتقوم في المنطق الديني مقام العلل الطبيعية — التي سلَّم بها المنطق العقلي — عزائم موجودات أو قوى علوية تجب خشيتها ومداراتها؛ لأنها ذات أهواء وتأثير في جميع أفعالنا، وتشاهد قوة المنطق الديني على الخصوص عند أولي النفوس التي أصيب في تسميتها بالنفوس الدينية، فالنفسية الدينية تتجلى في الشخص بإسناده قدرة سحرية لا تأثير للعقل فيها إلى موجود، أو شيء معين، أو قوة مجهولة، وتختلف نتائج هذه النفسية بحسب النفوس، فهي عند بعضهم دعامة لمعتقدات دينية معلومة تتراءى لهم أنها صادرة عن شيء يقال له ألوهيات، والقوى العلوية هي عند آخرين أمر مبهم، ولكنها ذات سلطان وقدرة، وحينئذ تبدو روح التدين في هؤلاء على شكل إحدى الخرافات أو الأساطير؛ ولذلك نقول: إن الملحد متدين كالتقي الورع، وفي الغالب يكون أشد تدينًا منه.

يُستدل على الروح الدينية في الإنسان بعزوه إلى تميمة، أو تعويذة، أو عدد، أو ماء، أو حج، أو ذخيرة خصائص خارقة للعادة، ويُستدل عليها أيضًا بإسناده إلى الأنظمة السياسية أو الاجتماعية قوة قادرة على تحويل الرجال. وخلق التدين، وإن كان على الدوام يتبدل شكلًا إلا أنه لا يغير شيئًا من جوهره الذي ينسب به شأنًا عظيمًا إلى بعض القوى الحافلة بالأسرار، فإذا تغيَّر موضوع التدين بفعل الزمان فإن خلق التدين لا يتبدل أبدًا.

ولا يبالي خلق التدين بالنقد مهما يكن صائبًا، ولذا يورث في النفس سذاجة لا حد لها، فالذين يلقبون أنفسهم بأحرار الفكر لنبذهم قواعد الدين يعتقدون الشعور بالأمور قبل وقوعها، أو يعتقدون الفؤول والطوالع، أو يعتقدون ما في حبل المصلوب من قدرة سحرية، أو يعتقدون شؤم العدد الثالث عشر، فالعالم في نظرهم يشتمل على كثير من الأشياء التي تحمل معها سعادة أو شقاء، وليس بين الناس مقامر لا يؤمن بهذا المبدأ إيمانًا قاطعًا.

ولمَّا كان إيمان المعتقد لا نهاية له فإن المستحيلات العقلية لا تؤثر فيه، ولا يخرق العقل والتجربة والاختبار حجابه أبدًا، وكذلك حبوط الآمال لا يضعضعه لجعله المرء يعتقد أن القوى الخارقة ذات الأهواء والأغراض لا تسير حسب ناموس معين، وكلما تقدم الإنسان في سلم الحضارة تتحدد روح التدين العامة عند الهمج بالتدريج، وتنحصر في بضعة مواضيع يؤمن بها الرجل المتمدن إيمان الرجل الفطري؛ أي إيمانًا لا تزعزعه

الأدلة والبراهين العلمية، وبهذا الأمر المشاهد ندرك السبب في تسليم بعض أفاضل العلماء بعقائد صادرة عن السحر والتنجيم.

ولا ريب في أن مبتكرات العقل تعجز عن زلزلة خلق التدين؛ لالتجاء هذا الخلق على الدوام بعالم الآخرة الذي يتعذر على العلم أن يقتحمه، ولذا كان عدد الذين يرغبون في الآخرة عظيمًا إلى الغاية.

(٢) خلق التدين أساس المعتقدات

خلق التدين هو البقعة التي تنبت فيها المعتقدات الدينية والسياسية وغيرها، وتشاهد نتائج هذا الخلق على الخصوص عند الهمج، فلمَّا كان لا علم لهؤلاء بسنن الكون فإنهم يعيشون في عالم مفعم بالأرواح التي تجب قراءة العزائم عليها بدون انقطاع، ويتوهمون على الدوام أنه يوجد خلف كل حقيقة ظاهرة قدرة خفية تسببها، وأما الرجل المتمدن فذو معتقدات أرقى من تلك؛ لأنه مشبَّع بتأثير التربية من المبدأ القائل بوجود نواميس ضرورية في عالم الطبيعة لا يستطيع أن ينكرها، إلا أنه يعتقد أنه بصلواته يتمكن من جعل قوى ما بعد الطبيعة توقف عمل تلك النواميس، فعلى هذا الوجه يجتمع المنطق الديني والمنطق العقلي أحيانًا في نفس واحد من غير أن يؤثر أحدهما في الآخر.

وما في المؤمن الحقيقي من سرعة التصديق فلا حد له بوجه عام، وأعظم المعجزات لا تلقي في قلبه حيرة؛ إذ لا نهاية لما يعزوه إلى الله من قدرة.

يُرى في كنيسة «أوڤيدو» صندوق يقول الإعلان الذي وُزِّع على زائريها: «إنه جيء به بغتةً من مدينة القدس بواسطة الرياح، وإنه يحتوي على لبن من لبن أم يسوع المسيح، وشعرات مسحت بها القديسة هيلانة رجلي مُخَلِّص العالم، والعصا التي فلق بها موسى البحر الأحمر، وجفير القديس بطرس … إلخ.» فهذه الوثيقة التي هي واحدة من ألوف من الوثائق المتماثلة تثبت لنا كيف أن العقيدة الدينية شديدة التأثير، ونعد من نوع الوثيقة المذكورة بقية جسد أحد القديسين الموضوعة في صندوق ذهب محفوظ في إحدى الكنائس العظيمة، وحبل المصلوب، فعلينا أن ننظر إلى تلك الوثائق بعين مغضية، وقلب سمح؛ ذلك لأنها وليدة آمال السعادة أولًا، ولكونها صادرة عما في النفس من احتياجات متأصلة ثانيًا.

وإذا نظرنا إلى المنطق الديني من خلال جميع عناصر الحياة الاجتماعية، فإننا نراه ذا تأثير في الفنون والآداب والسياسة وصنعة الشفاء، فما الدور الروائي إلا أحد

مظاهره، وليس عند أرباب الفن سوى عقائد دينية تجعلهم لا يعبأون بطرق التحليل العقلي، ويتجلى تأثير الروح الدينية في عالم السياسة على الخصوص؛ فالأحزاب الرديكالية واللاإكليروسية والمتطرفة تعيش على جانب عظيم من التدين.

ولا تزال البقاع التي ارتادها العلم محدودة إلى الغاية مع أنه لا حد لرغباتنا. ولا شك في أن سيطرة المنطق الديني على البشر ستمتد زمنًا طويلًا بعد، فهو بإيجاده القوانين، والعادات، والأديان قد ولَّد جميع الأوهام التي سيَّرت النوع الإنساني حتى يومنا هذا، وهو من القوة بحيث يقدر على جعل الخيال حقيقة، وبتأثيره عرف ملايين من الرجال الفرح أو الألم، وما في العالم من مثل عليا فصادر عنه.

الفصل الخامس

المنطق العقلي

(١) عناصر المنطق العقلي الأساسية

قد أُلِّفَت للبحث عن المنطق العقلي مؤلفات كثيرة ذات فائدة قليلة، والذي يجعلنا نتكلم عنه في هذا الكتاب هو؛ أولًا: أنه يمثل أحيانًا في تكوين الآراء دورًا لا بأس فيه، وثانيًا: لبيان وجه الفرق بينه وبين أنواع المنطق الأخرى التي بحثنا عنها في الفصول السابقة، وسنباشر بيان بعض العناصر التي يستند إليها المنطق العقلي في عمله وهي: الإرادة، والدقة، والتأمل.

الإرادة: الإرادة هي صفة يعزم بها الإنسان على الإتيان بعمل، ولها ثلاثة أطوار: التفكير، والقصد، والتنفيذ. وإذا أنعمنا النظر فيها نرى أنها تصدر عن العقل والعاطفة معًا، فهي تنشأ عن العاطفة؛ لأن جوهر بواعث العمل في الإنسان هي العاطفة، وهي تنشأ عن العقل؛ لأننا — بفضل الدقة والتأمل — نمزج في روحنا صورًا نفسية يقدر بعضها على إبطال عمل البعض الآخر.

وخلافًا لما جاء في كتب علم النفس نقول: إن الإرادة قد تكون شعورية وقد تكون لاشعورية، وأقوى العزائم وأشدها هي اللاشعورية، فهي التي لا يملك الحيوان وأكثر الناس سواها، وإذا صعب علينا مشاهدة شكل الإرادة اللاشعورية؛ فذلك لأن العقل يتدخل على الفور كي يوضح ما تنجزه تلك الإرادة من أعمال؛ إيضاحًا يجعلنا نتصور أنه هو الذي سبَّب تلك الأعمال.

ويرى (ديكارت) — وقد شاطره كثير من الفلاسفة في الوقت الحاضر رأيه — أن للإرادة كيانًا غير كيان العقل هو أصل معتقداتنا؛ فالاعتقاد عند (ديكارت) هو إرادة التسليم بمبدأ يمليه العقل، أو إنكار ذلك المبدأ، وسوف أنقض هذه النظرية التي لا

يزال أكثر الفلاسفة يناضلون عنها في هذا الكتاب بأن أثبت أن المعتقد لا يكون إراديًّا أصلًا.

ويقترب (أريسطوطاليس) من المبادئ المشروحة هنا أكثر من (ديكارت)؛ ذلك لأنه بنى نظريته في علم النفس على التمييز بين الصفات العاطفية والصفات العقلية، ثم قال: إن الإرادة تظهر من مزج هذين الطرفين أحدهما بالآخر، فعلى هذا الوجه تكون الإرادة معلولة لا علة، ويكون (أريسطوطاليس) أقام العاطفة أمام العقل، مع أن (ديكارت) أقام الإرادة أمامها.

الدقة: الدقة هي أن يحصر المرء ذهنه في شيء واحد، أو في شكل هذا الشيء الواحد، أو في ما ينشأ عنه من بوادر، فيجرد منه الموضوع الذي يهمه.

وقد عَدَّ كثير من المؤلفين الدقة وجهًا من وجوه الإرادة، فهي على رغم كونها خاضعة للإرادة ليست متحدة بها ذاتًا ومعنًى، وكذلك لا يجوز خلط الدقة بالعقل الذي لم تكن الدقة سوى عنصر يستعين به.

تطبع الأشياء التي تحيط بنا طابعها على حواسنا، فلو تم شعورنا بجميعها شعورًا متساويًا؛ كآلة الفوطوغراف مثلًا، لاشتمل دماغنا على صور كثيرة لا فائدة فيها، ولكننا بفضل دقتنا لا ندرك الأشياء إلا بنسبة احتياجنا، وذلك بأن نحصر ذهننا في أحد المواضيع.

ويتصف الحيوان بالدقة أيضًا، ولكن دقته غير إرادية مع أنها قد تكون في الإنسان إرادية، وينشأ عن نمو الدقة في الرجل زيادة في قدرته العقلية، وعلى نسبة الدقة في المرء يعظم عقله، فلولا دقة (نيوطن) العظيمة لما ذاع صيت (نيوطن)، وإذا تجلت عبقرية هذا الرجل بغتةً فذلك بعد دقة صابرة، وتأمل مديد.

التأمل: التأمل يورث التعقل في الإنسان، وهو عبارة عن قدرة الإنسان على أن يستحضر — مستعينًا بفعل الدقة — الصور النفسية المشتقة من الإحساسات، أو الألفاظ التي تنم على تلك الصور، حينئذ يمكن مزجها والمقايسة بينها، واستخلاص أحكام منها. وبالطريقة المذكورة لا نعلم الأشياء ذاتها، بل نقف على ما بين هذه الأشياء من علائق، الأمر الذي هو غاية ما يسعى إليه العلم. وقابلية التأمل تتضمن قابلية الدقة، فضعف هذه يستلزم ضعف تلك، وبالتأمل يتعقل الإنسان كما ينبغي بشرط ألا يتدخل المنطق العاطفي والمنطق الديني في الأمر، فمتى يتناول المعتقد المواضيع التي يراد تعقلها فإن التأمل يخسر ما فيه من استعداد للنقد.

(٢) شأن المنطق العقلي

العمل الأساسي للمنطق العقلي هو أن يؤلف هذا المنطق — مستعينًا بالتأمل وبالطريقة المشروحة آنفًا — بين الصور النفسية، أو الكلمات التي تعبر عنها، وقد عُدَّ أساس معتقداتنا زمنًا طويلًا مع أننا نرى أنه لم يكن سبب أي معتقد منها، وإنما الشأن الذي قد يكون له هو أن يُتم زعزعة المعتقدات بعد أن يكون الدهر قد أَكَلَّ قواها، وعلى ما للمنطق العقلي من شأن هو كالمعدوم في تكوين المعتقد، فإنه ذو شأن كبير في تأليف المعرفة، فهو الذي أقام صرح العلوم، وإليه تستند الصناعات الحديثة في تقدمها.

إذن لا يجوز لنا أن نبالغ في بيان قدرته، ولكن يجب أن نعلم الحدود التي لم يتجاوزها بعد، فهو ليس ذا سلطان على حوادث الحياة والخواطر، ولم يضئ من هذه الحوادث ذات الجري والانصباب سوى شيء قليل مشكوك فيه، وقد انحصرت دائرة عمله في المادة التي استقرت مؤقتًا بفعل الموت أو الوقت.

ولما رأى العلماء أنه لا شريك للعلم في سيطرته على دائرة المعرفة ظنوا منذ أمد بعيد أن المنطق العقلي الذي هو مصدر العلم ينفع لإيضاح تكوين المعتقدات وتطورها، وقد استمر علم النفس على هذا الضلال قرونًا عديدة، إلا أنه الآن على وشك الخروج من ضلاله؛ فقد دل الاختبار على أن الموجودات تتحرك وتسير قبل أن تعقل وتدرك، ولذلك فهي مقودة في أعمالها بأنواع منطقية أخرى، وكلما أمعنا في هذه الحقيقة التي أرجع إليها في الغالب لحداثة ظهورها نرى أن شأن المنطق العقلي ثانوي في حياة الأفراد والأمم.

لم يكن التعقل والإدراك أمرين ضروريين للسير والحركة، فأدنى الحشرات تسير كما يقتضي من غير أن تهتم بمنطقنا، والعقل والإدراك هما فاعلان في الموجودات مستقلان عن فاعل السير، وكثيرًا ما يزجران هذا الفاعل عن العمل بدلالتهما على أخطاره.

وبفضل ما في الناس من اندفاعات عاطفية ودينية يسيرون غير مطلعين على كيفية تكوين أعمالهم، ومن العبث أن نؤثر فيهم بقوة الدليل العقلي؛ إذ إنهم لما فيهم من إدراك قليل يسخرون من كل من ليس على طريقهم، وما مثل الذي يحاول أن يُدخل إلى قلوبهم شيئًا من الأفكار العقلية إلا كمثل الطفل الذي يسعى في إدخال عضو كبير في قمع الخياط. فعلى من يود أن يلزم الأفراد والشعوب ببعض الحقائق العقلية أن يزن قبل ذلك كفاءتهم الدماغية.

وشأن المنطق العقلي في سياسة الشعوب ضئيل جدًّا، ولا يتجلى هذا الشأن إلا في الخطب، فالمشاعر لا العقل هي التي تسيِّر الأمم وتقيمها وتقعدها، وسوف نرى في

باب آخر أن المنطق العاطفي هو الذي يخرج على الدوام ظافرًا في الصراع بينه وبين المنطق العقلي. قال (ريبو): «القول إن الفكر المجرد الجاف العاري من مسحة عاطفة — كالقضية الهندسية — ذو تأثير في سير الناس هو زعم نفسي عقيم باطل.» فالوقت الذي تستولي فيه براهين الفلسفة على العالم لا يزال بعيدًا، وإنما المعتقدات التي يستخف بها المنطق العقلي هي التي قلبت العالم مرات كثيرة دون أن يقدر هذا المنطق على مقاومتها.

(٣) ظهور المنطق العقلي متأخرًا بفعل الإنسان ضد الطبيعة

أشرت سابقًا إلى أن المنطق العقلي هو آخر أنواع المنطق ظهورًا، وأن هذه الأنواع كفت لقيادة الموجودات والأجيال الچيولوچية حتى الوقت الحاضر على وجه التقريب.

ليس المنطق العقلي من عمل الطبيعة، بل من عمل الإنسان ضد الطبيعة، فلإيجاد الإنسان ذكاءه وعقله في شخصه قد أخذ بالتدريج يعاني قوى الكون أقل من ذي قبل، ويستعبد هذه القوى كل يوم، ومن كان في ريب من كون الإنسان لا الطبيعة موجد المنطق العقلي فليلاحظ أن ما يبذله من مجهود فلمقاتلة حوادث الطبيعة على الخصوص.

والطبيعة لا تبالي بمصير الفرد أبدًا، وإنما تعتني ببقاء النوع، فجميع الموجودات عندها سواء، وما تبذله من همة في المحافظة على أشد المكروبات إيذاءً هو كالعناية التي تبذلها للمحافظة على أكثر الناس عبقرية، فبالمنطق العقلي الذي اكتسبناه استطعنا أن نكافح سنن الكون الجائرة، وكثيرًا ما تمَّ لنا النصر في هذا الكفاح، وقد انحصرت معاناتنا لتلك السنن في الأمور التي توقفت معرفتنا عند حدها، فاليوم الذي نكتنه فيه منطق الحياة والمنطق العاطفي هو اليوم الذي نتغلب فيه على هذين المنطقين، وحينئذ يملك الإنسان ما يعزوه إلى آلهته القديمة من قدرة وسلطان.

والعلم لا يزال بعيدًا من تحقيق تلك الأمنية، فمع دنوه كل يوم من قدرة الطبيعة المقدرة فإنه مرغم على معاناة هذه القدرة بملاءمتها، ولربما كانت هذه القدرة الكبيرة أعظم مما يظنه العلم، فنحن نخضع لحكم الطبيعة، ولكن ألا تخضع الطبيعة نفسها لوجود ينظم القدر وتذعن له الآلهة؟ لم تكن الفلسفة من الرقي بحيث تجيب عن هذا السؤال.

الباب الرابع

العراك بين أنواع المنطق

الفصل الأول

التصادم بين المبادئ العاطفية والمبادئ الدينية والمبادئ العقلية

(١) العراك بين أنواع المنطق في الحياة اليومية

عبَّرنا عن عوامل الآراء والمعتقدات بأنواع المنطق المختلفة، وقد بيَّنا أوصافها في الفصول السابقة، ونظرًا لما بين هذه الأنواع من الاختلاف فإنها في الغالب تعترك، فكيف يُفصل هذا العراك؟

لا يبدو العراك المذكور في الواقع إلا على وجه استثنائي؛ إذ يوجد في الحياة اليومية توازن بين ما تناقض من اندفاعات أنواع المنطق، ويرضي مزاجنا النفسي بأن يسيطر عليه أحد تلك الأنواع بحسب الوقت والبيئة والأحوال، وليس هذا التوازن اندماجًا لأنواع المنطق بعضها في بعض، بل هو عبارة عن تنضدها على أن يحافظ كل منها على تأثيره وعمله.

وبتراصف أنواع المنطق المختلفة في المرء نفسه نجيب عن سؤال مهم وهو: كيف أن أرباب العقول النيرة الذين تعودوا أساليب العلم، وطرقه الدقيقة يؤمنون بمعتقدات دينية، أو سياسية، أو سحرية، أو غيرها من المعتقدات التي ينهزم جيشها أمام المنطق العقلي الخالص؟ حقًّا يسهل الجواب عن ذلك، فالمنطق العقلي هو دليل هؤلاء الأرباب في مبادئهم العلمية، وأما في معتقداتهم فإنهم ينقادون لقواعد المنطق الديني أو المنطق العاطفي، والعالم ينتقل من دائرة المعرفة إلى دائرة المعتقد كما ينتقل من مسكن إلى آخر، وإذا ذهب في الغالب ضحية الخطأ فذلك لمحاولته أن يطبق في تفسير مظاهر المنطق الديني أو العاطفي من معتقد وغيره تفسيرًا علميًّا مناهج المنطق العقلي.

ومتى ينقطع التوازن بين أنواع المنطق فإنها تعترك، ويندر أن يغلب المنطق العقلي في ذلك العراك؛ إذ يسهل التنكيل به واستعباده من قبل بعض المبادئ الصبيانية، وهذا هو السبب في كون الدليل العقلي لا ينفع في أمر المعتقد دينيًّا كان أم سياسيًّا أم أخلاقيًّا، ولا تفعل إقامة الحجة العقلية على رأيٍ مصدره العاطفة أو التدين سوى استفزاز رب الرأي المذكور وتهييجه، وكذلك المرد لا يستطيع بعقله أن يتغلب على رأي فيه ناشئ عن المشاعر والعقيدة إلا إذا بلغ هذا الرأي من البلى والدروس مبلغًا ذهب بقوته.

ولا تتجلى لنا نتائج العراك بين المنطق الديني والمنطق العقلي إلا بالمَثَل الذي ضربه (باسكال) وفحصناه تفصيلًا في فصل آخر، فمن العبث أن نطنب الآن فيها.

وسنقتصر فيما يلي على البحث في تصادم المنطق العاطفي والمنطق العقلي، فأيضًا هذان الطرفان ليسا متكافئين قوةً، وإنما يستطيع العقل في أثناء ذلك التصادم أن يسلط بعض المشاعر على الأخرى متذرعًا بأنواع الحيل كي يتمكن من التغلب على التي يود قهرها.

(٢) التصادم بين المبادئ العاطفية والمبادئ العقلية: تأثير الأفكار في المشاعر

تؤثر المشاعر التي تقود الإنسان في أفكاره كثيرًا مع أن هذه لا تؤثر في تلك إلا قليلًا، وليس الفكر سوى نتيجة أحد المشاعر التي تطورت تطورًا غير شعوري مجهول لدينا.

وعلة كون العقل لا يؤثر في المشاعر هي أن حياة المشاعر خافية علينا، وإذا أردنا أن نعرف درجة تطور مشاعرنا على وجه لا تأثير لإرادتنا فيه فلننعم النظر في أنفسنا، حينئذ نرى أنها تنبت نباتًا ريِّثًا متباطئًا، كالنبات الذي أجاد في وصفه الشاعر الفيلسوف (سوللي برودوم) في قصيدته المشهورة التي عنوانها «الإناء الكسير»، فالكلمة أو الإشارة الواحدة التي لا أهمية لها عند صدورها تستطيع على مر الأيام أن تحول الصداقة إلى ضدها.

وشأن العقل في المشاعر التي يتكون الخلق منها هو أن يفصلها بعضها عن بعض، وأن يحركها بإحدى الصور النفسية، وأن يجعلها على هذا الوجه قادرة على كبح شيء من اندفاعاتنا، وهو بذلك يرفع الرجل ولو مؤقتًا إلى درجة أعلى من درجته.

إذن يقدر العقل بتأليفه بين المشاعر والمعقولات أن ينتفع بالمشاعر انتفاع البناء بالحجارة التي يعرف أن يقيم بها نفسها مباني شتى، وليس تأثير العقل في المشاعر

لا حد له، بل يظهر أنه محصور؛ لأن الاختبار يدلنا على أن العقل يفقد سلطانه عندما تكون المشاعر شديدة، وقد تصل بعض المشاعر في قوتها إلى حد لا يستطيع العقل، وأكثر منافع المرء وضوحًا أن يؤثرا معه فيها، وسنورد أمثلة كثيرة على هذا الأمر في فصل المعتقدات.

لا تتحول المشاعر مباشرةً إلى أفكار، ولكنها تولد أفكارًا لا تلبث أن تستدعي مشاعر، فكلا الطرفين مع محافظتهما على استقلالهما يؤثر أحدهما في الآخر تأثيرًا متواليًا، وعلى ذلك فإن الأفكار ذات تأثير لا يسعنا إنكاره في حياتنا الفردية والاجتماعية، وهذا التأثير لا يتم أمره إلا إذا استندت الأفكار إلى دعائم عاطفية.

ولَمَّا كانت المشاعر مصدرًا للأفكار فإن ما يقع بين الأفكار من عراك هو بالحقيقة يقع بين المشاعر، والشعوب التي يظهر أنها تتقاتل من أجل بعض الأفكار هي تتقاتل في الواقع من أجل بعض المشاعر التي تشتق منها تلك الأفكار.

وتفقد أحوال الإنسان العاطفية قوتها، لا ذاتها، إذا لم تسمح له الفرص بإظهارها، كما تفقد الأعضاء قوتها لعدم تمرينها. على هذه الصورة توارت في إنكلترا وفرنسا صفات الإشراف الخلقية التي كانت ضرورية للقيام ببعض الوظائف عندما ألغيت هذه الوظائف، وإذا لم تنمِّ تلك الطبقات التي خسرت صفاتها الخلقية ذكاءها أصبحت دون ما كانت سائدة له من طبقات أخرى، ويظهر أن هذا الناموس الذي يجهله مربُّونا كثيرًا والقائل إن المشاعر التي لم تتمرن تنفصم، لناموس عام، فتاريخ الأمم حافل بالأمثلة المؤيدة له، ومن تلك الأمثلة كون غرائزنا الحربية التي نمت كثيرًا أيام الثورة الفرنسوية وفي الدور الإمبراطوري لم تلبث بعد هذين الدورين أن أخذت تتقلص مفسحة مجالًا لمذهب سلمي داعٍ إلى نزع السلام، منتشر كل يوم بين الجموع حتى بين العقلاء، وقد نشأ عن ذلك التضادُ الآتي، وهو: «كلما صارت الشعوب سلمية أمعنت حكوماتها في التسليح.»

وسبب هذا الشذوذ الظاهري هو أن الأفراد يخضعون لحكم أثرتهم الشخصية، مع أن الحكومات مرغمة على الاهتمام بمصالح المجتمع، فالحكومات بما نالته من تجارب واختبارات متتابعة تعلم أكثر من الجموع وخطبائها أن الأمم التي تهن لا تلبث الأمم

المجاورة لها[1] أن تغزوها وتستولي عليها، وهذه سُنَّة قد أجرت حكمها على جميع الأمم حديثة كانت أم قديمة؛ فالبولونيون، والمصريون، والترك، والصرب … إلخ لم يتجنبوا ما ينتج عن غزوات الشعوب الأخرى من تخريب إلا بتنازلهم عن جميع أراضيهم، أو عن جزء منها.

يحدث تطور المشاعر الذي أشرنا إلى بعض نتائجه بفعل كثير من المؤثرات، ونعدُّ من هذه المؤثرات البيئةَ على الخصوص، فالإنسان كي يلائم البيئة مكرهٌ على تنويم قسم من مشاعره والانتفاع بقسم آخر يجعله التمرين قويًّا متينًا، والتمرين المذكور لا يكون إلا بالتربية التي تهتم بإنماء صفات الخلق الأساسية، ولا سيما مَلَكة الاستنباط والشجاعة والإرادة، وغيرها من الصفات التي تعارضها مشاعر أخرى، فالخوف من التبعة يلاشي ملكة الإقدام، ويزول الإخلاص لمنافع المجتمع في الحال إذا قُيِّدَ بالأثرة الشخصية … إلخ.

(٣) تنازع المشاعر: العوامل الزاجرة

جميع من هم على الفطرة من همج وحيوان يميلون إلى السير بغرائزهم، ولكن متى عاش الهمج في قبيلة وأصبح الحيوان داجنًا فإن الضرورة تلجئهم إلى زجر بعض تلك الغرائز، ولا يكون هذا الزجر إلا بجعل بعض مشاعرهم القوية — كالخوف من العقاب، والطمع في الأجر — تقاتل مشاعرهم الأخرى المندفعة، والقدرة على قهر الاندفاعات العاطفية هي عنصر أساسي للحضارة، فلولا هذا العنصر الذي هو ركن الأخلاق الركين لكانت الحياة الاجتماعية مستحيلة.

وليست العوامل الزاجرة التي تثبت العاداتُ وعلمُ الأخلاق والقوانينُ أمرَها كنايةً عن عراك بين المشاعر والعقل، بل هي كما بيَّنت آنفًا عبارة عن صراع بين ما يتقابل من المشاعر بفعل العقل. ولم يكن للقوانين المدنية أو الدينية غاية سوى التأثير في مظاهر بعض المشاعر تأثيرًا رادعًا.

وكل حضارة تتضمن ضغطًا وقسرًا، فالفطري عندما تعلَّم بتأثير ناموس العقود الاجتماعية الأولى كيف يرد جماح اندفاعاته قليلًا تحرَّر من طور الحيوانية ودخل في طور إنساني متأخر، ولما أُكرِه على ردع نفسه أكثر من ذي قبل دخل في طور الحضارة التي لا تقوم إلا بكبح الإنسان نفسه.

ويتطلب الضغط المذكور سعيًا مستمرًّا، ويتعذر استمرار هذا السعي إذا لم يسهل أمره كأن يصير لاشعوريًّا بفعل العادة التي ثَبَّتتها التربية، ومتى أصبح الوازع النفسي

على شيء من التقدم فإنه يحل مكان الوازع الخارجي، ولكن إذا لم يستطع الرجل أن يجعل لشخصه وازعًا نفسيًّا فعليه أن يذعن للوازع الثاني، فلو تجرد الإنسان من هذين الوازعين لرجع إلى طور الهمجية الأولى. نعم إن المشاعر هي التي تقودنا، غير أن المجتمعات لا تعيش إذا لم يتعلم أفرادها الحدود التي يجب على مشاعرهم أن تقف عندها، والتي يؤدي تجاوزها إلى الفوضى والانقراض.

ولا تقل إن المشاعر التي ردعتها مقتضيات الاجتماع المدونة في القوانين عفا أثرها ودرس رسمها، فمتى تنفلت هذه المشاعر ذات الاندفاع من ربقة الزواجر تظهر من عالم الخفاء، وهو سر المظالم التي تُقترف أيام الثورات حيث يصبح المتمدن متوحشًا.

هوامش

(١) لقد أوضح رئيس الوزارة الألمانية هذه الحقيقة في خطبة ألقاها في شهر مارس سنة ١٩١١ أمام (الرخستاغ)، وإليك بعضها:

> إن مسألة نزع السلاح هي عند كل خبير مجرب مشكلة يتعذر حلها ما دام الإنسان إنسانًا والدول دولًا، فمهما يفعل الضعاف فإنهم سيكونون فريسة الأقوياء لا محالة، والشعب الذي لا يريد أن ينفق على تسليح نفسه ينزل إلى الدرجة الثانية كي يحل مكانه شعب أقوى منه.

الفصل الثاني

العراك بين أنواع المنطق في حياة الأمم

(١) نتائج كسر الزواجر الرادعة للمشاعر في الحياة الاجتماعية

إن وجوب زجر المشاعر التي بالمجتمع بمشاعر أخرى ثبت أمرها بالتربية وعلم الأخلاق والقوانين هو مبدأ الحياة العامة الأساسي كما ذكرنا، ولا تتحرر المشاعر التي عانت البيئة الاجتماعية في ردعها ما عانته من المصاعب من غير أن ينشأ عن ذلك فوضى. ومن العلائم الأولى لهذه الفوضى كثرة اقتراف الجرائم كما نشاهده الآن في فرنسا، والذي يساعد على زيادة اقتراف الجرائم على الخصوص انتشار مذهب الإنسانية الذي يشل حركة إنزال العقاب ويسير بالناس إلى كسر جميع الروادع.

ويقاسي نظامنا الديموقراطي الحاضر بالتدريج نتائج إبطال تلك الروادع التي هي وحدها تقاوم ما فينا من مشاعر منافية للاجتماع، فالحقد على الأفضليات والحسد اللذان هما أشد ما أصيب به ذلك النظام من آفات يشتقان من هذه المشاعر المضرة الخطرة التي لا تموت في الإنسان أبدًا، وإن صعب ظهورها في مجتمعات الماضي ذات المراتب المتسلسلة.

والمشاعر المذكورة التي أخذت تنتشر في الوقت الحاضر بتحريض بعض الساسة الطامعين في نيل حظوة عند الجمهور وخريجي الجامعات الساخطين على نصيبهم تجري حكمها المخرب ذا الجبروت إجراءً مستمرًّا، فلولا انحلال الزواجر التي رسخت بالوراثة لما حدثت أمور كتمرد موظفي البريد والمعدنين، والفتنة التي وقعت في كثير من مدن إحدى المديريات الكبيرة. ومن العوامل التي جعلت هذا الانحلال الاجتماعي أمرًا ممكنًا هي هبات ولاة الأمور الذين أورثهم الخوف ضعفًا في قلوبهم، وبالتدريج نشأ عن عجز القوانين المبدأ القائل: إن الوعيد والإيقاع هما أصدق الوسائل لخرق حرمة القوانين ذات الكرامة الحصينة في الماضي.

والذي جعل ولاة الأمور يمنحون تلك الهبات الدالة على نذالة فيهم هو إنكارهم بضعة مبادئ نفسية يجب على جميع أولي الحل والعقد أن يعلموها كما علمها أولو الأمر المتقدمون، ومن بين هذه المبادئ نذكر واحدًا أساسيًّا وهو: أن المجتمع يعيش بالمحافظة على الاعتقاد الموروث الذي يأمر باحترام القوانين القائم عليها بناء ذلك المجتمع احترامًا دينيًّا.

وما في القوانين من قدرة تجعل الناس يحترمونها فأدبي معنوي؛ إذ ليس في العالم قوة مادية قادرة على إلزام الناس احترام قانون يهتكون جميعهم ستره.

وإذا أراد شيطان شرير أن يقضي على مجتمع في بضعة أيام فما عليه إلا أن يغرَّ أفراده كي يمتنعوا عن إطاعة القوانين، حينئذ تكون البلية أعظم من غزو العدو واستيلائه؛ لأن الفاتح يكتفي على العموم بتبديل أسماء القابضين على زمام الأمور، ومن مصلحته أن يحافظ باعتناء على العوامل الاجتماعية التي لها من تأثير شافٍ ما ليس للجيوش الجرارة.

والسعي في تقويض معتقد الأمة في سبيل المحافظة على نفوذ القوانين هو استعداد لثورة أدبية أشد خطرًا من أية ثورة مادية، فالمباني التي تخربها الثورة المادية إن أمكن تجديدها بسرعة فإن تجديد روح الأمة يتطلب في الغالب قرونًا طويلة، وقد عانينا مثل ذلك الانحلال النفسي الأدبي في أجيال كثيرة من تاريخنا، وإليك ما جاء في كتاب (هانوتو) الذي بحث فيه عن (چان دارك) مشيرًا إلى الأمر المذكور:

> متى تزول سلسلة المراتب في الأمة، ومتى تخسر القيادة نفوذها، ومتى يتداعى حصن الحرمة، ومتى ينقض البناء الاجتماعي، ينفسح المجال لأعمال الفرد، فكلٌّ يسعى وقتئذ في إنماء عمله حسب نواميس الطبيعة على أنقاض الأنظمة المنهدمة ذات الرطوبة.

وما عَلِمَ أنصار البدع — الذين يحاربون التقاليد باسم التجدد، والذين يحلمون بأن يقوضوا دعائم المجتمع ليقضوا على ما فيه من مال ونشب كما حلم (آتيلا) بأن ينهب روما — أن حياتهم عبارة عن نسيج حاكته الوراثة، وأن لا بقاء بغيره، ولا نجهل ماذا تؤدي إليه تجاربهم من تخريب، إلا أنه يقتضي مكابدتها مرة أخرى؛ لأن التجارب المكررة وحدها هي التي تثقف الناس، وما الحقائق المبثوثة في الكتب سوى كلمات فارغة لا تنفذ روح الشعب إلا إذا دعمتها النيران وقصف المدافع.

(٢) المبادئ الدينية والمبادئ العاطفية في حياة الأمم

إن تأثير المنطق العقلي العظيم في تقدم العلوم، وفي تطور حياة الأفراد أحيانًا، هو ضعيف إلى الغاية في حياة الأمم، ولكن لو نظرنا إلى ظواهر الأمور دون أن نكتشف عللها الخفية، وألقينا السمع إلى ما في كتب التاريخ من قصص، لرأينا خلاف ذلك، ألم يلتجئ المؤرخون في شروحهم إلى العقل؟ أَوَلا نشاهد أن الناس مجمِعون تقريبًا على أن سبب الثورة الفرنسوية هو ما جاء في كتب فلاسفة القرن الثامن عشر من المباحث، وأن غاية تلك الثورة هي نصر مبادئ العقل؟

لم يُستشهد بالعقل كما استُشهد به في أثناء الثورة المذكورة، حتى إن الناس أقاموا له تمثالًا في أيامها، والواقع لم يكن ذا تأثير ضئيل مثله في ذلك الدور، ستبدو لنا هذه الحقيقة عندما نتخلص من نير أفكارنا المنتقلة لنا عن الآباء، فنقدر على تدوين كتاب يبحث عن روح الثورة الفرنسوية.

والمسيِّر لتلك الثورة في جميع أطوارها، حتى في بداءتها، هو مبدأ عاطفي، فالذي دفع أبناء الطبقات الوسطى — الذين هم أول من أثارها — إلى إيقادها هو الحسد الشديد الذي كان يغلي في صدورهم ضد طبقة اعتقدوا أنهم مساوون لأبنائها. لا شك في أن الشعب لم يطمع أول وهلة في بعض المناصب العالية التي كان لا أمل له في نيلها، وعلى رغم هذا فقد استُقبل نشوب الثورة الفرنسوية بحماسة؛ ذلك لأن تحطيم الروادع الاجتماعية والوعود الخلابة التي وعدوه بها جعلته يرغب في المساواة بينه وبين سادته السابقين وفي ضبط أموالهم، ولم يستهوِهِ شيء من الشعار الثوري الذي نُقش على النقود وعلى مقدم الأبنية كما استهوته كلمة «المساواة» التي استمر تأثيرها حتى يومنا، فالناس لا يأخذون الآن كلمة الإخاء على أفواههم؛ نظرًا لأن مبدأ تنازع الطبقات أصبح شعار الوقت الحاضر، وأما مبدأ الحرية، فإن الجموع لم تفقه معناه في أي زمن، وقد أنكرته على الدوام.

وإذا كانت الثورات تخلب الشعوب فذلك لأن المشاعر تتحرر بها من ربقة الزواجر التي أوجبتها مقتضيات الاجتماع، وقد بيَّنت في فصل سابق تأثير الزواجر المذكورة في المشاعر، فهذه الزواجر تكون ضرورية للشعوب المتقلبة ذات الاندفاعات الشديدة، وعندما لا تُسكِّن التربية والتقاليد والقوانين هذه الاندفاعات فإن الشعب الذي هي فيه لا يصبح فريسة لزعماء الفتن وحدهم؛ بل يكون معرَّضًا لغزو الشعوب المعادية التي تعلم كيف تستغل قوة الحس والانفعال فيه، ويثبت ذلك ما ورد في التاريخ من الأمثلة العديدة

التي نعد منها حرب سنة ١٨٧٠، كان إمبراطور فرنسا المريض وملك بروسيا الطاعن في السن يريدان اجتناب الحرب مهما يكلفهما ذلك، ولكي يمنع ملك بروسيا شهرها عدل عن ترشيح قريبه لعرش إسبانيا، ولكنه كان يوجد خلف هذين الرجلين المترددين صاحبي الإرادة الضعيفة رجلٌ ذو دماغ قدير وعزمٍ كبير قابضٌ على زمام المصير، فقد استطاع هذا الرجل الحازم بحذفه بضع كلمات من إحدى البرقيات أن يثير غضب أمة شديدة الحس، ويُكرِهها، وهي غير مستعدة، على شهر الحرب على أعداء أخذوا للحرب أهبتها منذ زمن بعيد، ثم شرع بعدئذ يلعب في مشاعر كل أمة حتى توصَّل إلى جعلها جميعها محايدة. ومن هذه الأمم الإنكليزُ الذين أعمتهم مشاعرهم بعد أن أثَّر فيها ذلك الرجل النفسي المحنك، فامتنعوا عن الاشتراك في وضع لائحة تكون أساسًا لمؤتمر غير مدركين ماذا يكلفهم في المستقبل تكوين دولة حربية عظيمة. وعليه فإن من يعرف كيف يتصرف بمشاعر الناس لا يلبث أن يصبح سيدهم.

(٣) التوازن وعدمه بين أنواع المنطق في حياة الأمم

تبيَّن لنا من الإيضاحات السابقة أن اندفاعات الفرد الصادرة عن أنواع مختلفة للمنطق تكون في حال الاعتدال متوازنة، والأمر كذلك في حياة الأمم، ومتى يطرأ شيء على ذلك التوازن بفعل بعض المؤثرات تقع اضطرابات عميقة، فتقرِّب الأمة من القيام بثورة، فالثورة في الغالب عبارة عن داء نفسي مصدره عدم التوازن بين الاندفاعات الناشئة عن أنواع المنطق المختلفة التي يصبح أحدها متغلبًا.

وغلبة المنطق الديني على الخصوص هي التي تؤدي إلى حدوث انقلابات عظيمة في حياة البشر، ونورد الحروب الصليبية والحروب الدينية والثورة الفرنسوية أمثلة على ذلك، فمثل هذه الحوادث عنوان لأزمات تقع في حلق التدين المتين الذي لا تستطيع الأفراد والشعوب أن تتخلص من حكمه.

وتنشأ تقلبات التاريخ عما بين أنواع المنطق المختلفة من تصادم، فمتى يتغلب المنطق الديني فإنه يعقب ذلك حروب دينية وما تؤدي إليه من قسوة متجبرة، ومتى تتم الغلبة للمنطق العاطفي فإننا نشاهد حسب الأحوال إما تأهبًا للحرب، وإما بالعكس انتشارًا للمذهب الإنساني أو مبدأ السلم اللذين لا يكونان أقل سفكًا للدماء من حيث النتيجة. ومتى يزعم المنطق العقلي أنه تدخل في حياة أمة فلا تنشأ عن ذلك انقلابات أخف من تلك؛ إذ لا يكون العقل وقتئذ سوى لباس يستر تحته اندفاعات عاطفية أو دينية.

وظلت الجموع وزعماؤها — كما أوضحت — مشبعة مثل الأجداد من خلق التدين، فقد ورَّث بعض الألفاظ والصيغ المؤثرة في الجماعات ما للآلهة القديمة التي عبدها الآباء من قدرة سحرية، وهكذا بقي الأمل الوهمي في الجنَّات التي تخلب الألباب حيًّا.

أساس خلق التدين ثابت، ولكن أشكاله هي التي تتغير، والمظهر العقلي الحاضر هو الشكل الأخير لذلك الخلق، فباسم العقل النظري يود رسل المعتقدات الحديثة تجديد المجتمعات والبشر، ويسهل إيضاح ما يُسند الآن إلى العقل من قوة قادرة على تحويل المجتمع، فلما كانت مبتكرات العلوم التي هو سببها عظيمة إلى الغاية، فقد أصبح من الطبيعي أن يعد قادرًا على تغيير المجتمعات، ونشر السعادة بأساليبه المعهودة.

غير أن تقدم علم النفس أوجب اطلاعنا على أن المجتمعات لا تتطور بتأثير العقل، بل بتأثير اندفاعات العاطفة، وخلق التدين التي لا سلطان للعقل عليها، وما على قادة الشعوب الآن أن يأتوا به من مجهود صعب فهو أن يؤلفوا بين اندفاعات أنواع المنطق التي تسيِّرهم، وبين اندفاعات المنطق العقلي التي ترغب في أن تسيطر عليهم سيطرة تامة، وقد أخذت إنكلترا مع كونها مملكة التقاليد تعاني أمر ذلك العراك؛ إذ صارت نظمها السياسية التي هي سر عظمتها عرضة لهجمات المبادئ العقلية التي تسعى الأحزاب المتطرفة أن تجدد بها بنيان البلاد الاجتماعي.

إن التصادم بين أنواع المنطق المختلفة لا يستمر أبدًا، فلقد رأينا آنفًا أن هذه الأنواع تميل إلى التوازن. نعم يدوم التباين بينها، ولكن من غير أن نشعر بذلك؛ لأن العنصر العقلي في الغالب يخضع لحكم المؤثرات العاطفية والدينية وإن لم يعترف بهزيمته، وبهذا نوضح علة إقلاعنا عن المناقشة في عواطفنا ومعتقداتنا على الدوام.

ظهر من الملاحظات السابقة أن لكل من المبادئ الدينية والمبادئ العاطفية نواميس خاصة، ولذلك تبقى في النفس مصدرًا لسير الأفراد والشعوب، وعلى ما بين اندفاعات المرء من تناقض فإنها لا تلبث أن تتوازن إذا لم يُعكَّر صفاؤها ولم يحاول أن يوفق بينها توفيقًا مستحيلًا، فالحقائق العاطفية والحقائق الدينية والحقائق العقلية هي بنات مختلفة لأنواع من المنطق يتعذر اتحادها.

الفصل الثالث

ميزان العلل

(١) الميزان النفسي: السير والحركة

إن ما بين أنواع المنطق المختلفة من اندفاعات متناقضة يجعلنا في الغالب نتردد في الطريقة التي يجب أن نتبعها، وبما أن الحياة تقتضي السير فعلينا أن نختار أحد السبل، ولكن كيف نختار؟ يتجلى لنا أمر هذا الاختيار بالمثال الآتي:

لنضع أشياء في كفتي ميزان، فإذا كان ما وُضع في كلٍّ من الكفتين متساويًا، فإن عقرب الميزان يبقى عموديًّا مذبذبًا، وإلا فإنه يميل إلى إحدى الجهتين، وعدا الموازين المادية توجد موازين نفسية مماثلة لها، فعلل السير هي عيارات هذه الموازين النفسية، وأما عقربها فهو العمل الذي ينشأ عن وجود الكفة في إحدى أحوالها.

وقد يكون العقل أحيانًا علة السير، ولكنه ينضم في الغالب إلى العلل العقلية الشاعرة عللٌ لا شاعرة تثقل وطأتها على إحدى الكفتين؛ أي إن العلل جميعها تتقاتل، والغلبة في العراك تكون لأقواها، فمتى تكون العلل المتقاتلة ذات قوى متكافئة فإن الكفتين تهتزان وقتًا طويلًا قبل أن تميل إحداهما إلى جهة، وهنالك التردد والتذبذب في الأخلاق، وعندما تكون العلل المعتركة متفاوتة في قوتها، فإن إحدى الكفتين تميل لتستقر، وهنالك يبت الإنسان في سيره وحركته.

(٢) شأن الإرادة في ميزان العلل

نقدر في الغالب على التصرف في عيارات الميزان النفسي بأن نزيدها أو نقللها، فلا ريب في أن الأبطال ذوي الجرأة والإقدام الذين قطعوا جبال الألب وعبروا بحر المانش طائرين أول مرة في الهواء حذفوا من كفتي الميزان بعض العلل العقلية التي قد تثبط عزائمهم

في أمور خطرة كهذه لم يجرؤ أحد قبلهم على اقتحامها، ومع ذلك فإن الإرادة لا تكلف نفسها على الدوام أمر وضع العيارات في ميزان العلل؛ إذ إن عناصر الحياة العاطفية أو الدينية تقوم بهذا الأمر من تلقاء نفسها، وذلك مثل ما يقع في أثناء بعض الحوادث الفجائية؛ كقذف الرجل نفسه إلى الماء أيام الشتاء كي ينقذ شخصًا مجهولًا، فلو كان للتأمل عمل في الأمر لوازن بينه وبين عناصر العاطفة، وغيَّر ميل عقرب الميزان. ومن هنا يتضح لنا السبب في كون حوادث البطولة العظيمة الغريزية كثيرة مع أن حوادث البطولة الصغيرة اليومية المستمرة قليلة العدد، كأن يحرم الإنسان نفسه ملاذ الحياة في سبيل قريبه المريض العاجز.

وعلى ما تقدم فإن الإرادة الشاعرة قد تؤثر في ميزان العلل، ولكن إذا كانت هذه الإرادة غير شعورية — كما في أمر المعتقد — فإن عملها يكون لاغيًا، حينئذ يُجري المنطق الديني حكمه مستقلًّا عنا، وعند الحاجة على رغم أنفنا أو ضدنا.

وأما إزاء المنطق العاطفي وحده فقوَّتنا أكثر مقاومة مما هي إزاء المنطق الديني؛ لأن المشاعر إذا لم تكن غاية في الشدة فإن العقل يقدر على التصرف في بعض العيارات؛ أي العلل، ولا نأسف كثيرًا على ضعفنا أمام اندفاعات المنطق العاطفي؛ لأن هذه الاندفاعات وإن كانت في الغالب ذات نتائج مضرة إلا أنها قد تأتي أحيانًا بأعمال مفيدة للبشر.

ومتى يتعلم الإنسان أن يوفق بين اندفاعاته العاطفية والدينية، وبين مبتكرات العقل فإن نطاق الممكنات يتسع في نظره.

وفي توازن العلل — حيث تتكوَّن الآراء والمعتقدات — كثيرٌ من العلل والعوامل التي لا تأثير لنا فيها، ولو استمر عدم تأثيرنا لقلنا كما قال كثير من المذاهب الفلسفية: إن القدر هو الذي يسيِّرنا. والقدر بالحقيقة قد استولى على تاريخ البشر زمنًا طويلًا؛ لأن الناس لما ظلوا عاجزين دورًا مديدًا عن قيادة أنفسهم خضعوا لسنن ما اختلف من أنواع المنطق التي لا صلة بينها وبين العقل خضوعًا مقدرًا.

(٣) كيف يؤثر المنطق العقلي في ميزان العلل؟

لقد ظهرت بظهور المنطق العقلي البطيء قوة جديدة في العالم، وبهذه القوة يؤثر الإنسان في الغالب في كفتي ميزان العلل، وقد بيَّنا عندما بحثنا في كتاب آخر عن انحلال المقادير كيف يصير المنطق العقلي عاملًا كبيرًا في هذا الانحلال، فبفضل ما في المنطق المذكور من قدرة يستطيع الإنسان أن يؤثر في مجرى الأمور، وهو لعدوله بالتدريج عن الانقياد

للمؤثرات اللاشعورية التي كانت تقوده فيما مضى قد أخذ يتعلم كل يوم كيف يهيمن عليها ويقبض على زمامها.

وإذا كان المنطق العقلي — والإرادة تدعمه — لا يزال عاجزًا عن تقرير المصير فذلك لأننا نجهل حتى الآن أكثر علل الحوادث، ولأن كثيرًا من أعمالنا ذو نتائج لا تتحقق إلا في مستقبل مفعم بالطوارئ، فهذه الطوارئ ذات أخطار، وبها ينضم إلى ميزان العلل عيارات ذات قيم مجهولة.

نستدل على ذلك بكون دهاة البشر الحقيقيين — القابضين على مصير الأمم، والذين لا يظهر منهم في كل عصر سوى عدد قليل — مع علمهم في الغالب كيف يجعلون الكفة راجحة فإنهم يخاطرون بالأمور كثيرًا، وهذه المخاطرة تتجلى لنا على شكل واضح عند النظر إلى (بسمارك) الذي استشهدنا به مرات عديدة؛ نظرًا لنفسيته التي يفيد درسها، فقد كان المسيِّر لهذا السياسي المحنك هو المبدأ القائل بالوحدة الألمانية، ولكن ما أكثر المهالك التي تعرَّض لها، والأحوال التي عاكسته، والموانع التي عاناها في سبيل ذلك! كان عليه في أول الأمر أن يقضي على النمسا الحربية ذات النفوذ الذي اتفق لها بفعل ماضيها المجيد، وما ناله سنة ١٨٦٦ من نصر في معركة «صادوا»، فبعناء ولعجز متناهٍ في قائد العدو، ثم كان عليه بعد ذلك أن يحارب نابليون الثالث الذي كان الناس يعدون جيوشه لا تُغلب. نعم يقدر الرجل العظيم على الاستعداد لجميع تلك الأمور، ولكن من غير أن يضمن النجاح، وبالخلق المقدام والذكاء الواسع الخارق وحدهما تُقتَحم مثل تلك المخاطر.

والمنطق العاطفي على الخصوص هو الذي يقذف بالإنسان إلى المخاطرة، وهو الدعامة الأولى التي يستند إليها في القيام بمشروع يسوق إليه المنطق العقلي أيضًا. نعم كان يوجد في اجتياز جبال الألب وعبور بحر المانش بواسطة الطيارة خطر عظيم، ولكن المنطق العقلي قد دعم إرادة مشبعة من حب المجد ومن الميل إلى اقتحام المصاعب وغيره من العناصر ذات المصدر العاطفي، فوقع ذلك الاجتياز والعبور. فالسبب في عظمة رجال التاريخ، وأفاضل العلماء، وأكابر المفكرين، ومشاهير الربابنة هو كونهم علموا كيف ينتفعون بجميع أنواع المنطق المسيطرة على الإنسان، ويتصرفون في ميزان العلل الذي يتقرر فيه أمر المستقبل.

ولا تتقدم الحضارات بالجموع التي هي لُعَبٌ تسيِّرها الغرائز، بل بصفوة الرجال التي تفكر لأجل الجموع وتقودها، ولم يفعل الساسة بمحاولتهم تسخير المنطق العقلي لمنطق الجموع كي يبرر اندفاعاته سوى إحداث فوضى عميقة.

نلخص هذا الفصل والفصول التي تقدمته بالكلمات الآتية؛ وهي: إن حوادث التاريخ تنشأ عن توازن أنواع المنطق المختلفة وتصادمها، ولكلٍّ من هذه الأنواع في ميزان العلل الذي توزن فيه مقاديرنا شأنه الخاص، فإذا هيمن أحدها على الأخر فإن مصير الناس يتبدل.

والمنطق العاطفي يجعل الإنسان يسير غير متأمل وراء اندفاعات مشؤومة، والمنطق الديني يولِّد الأديان التي تُلجئ الإنسان إلى الاهتمام بنجاته الأبدية، ومنطق الجماعات يوجب جلوس طبقات الشعب الدنيا على منصة الحكم، ويرجع بهذا الشعب إلى الهمجية، والمنطق العقلي يلقي الشكوك والريب في قلب الإنسان، ويدفعه إلى البطالة.

الباب الخامس

آراء الأفراد ومعتقداتهم

الفصل الأول

العلل الباطنية للآراء والمعتقدات

(١) تأثير علل الآراء والمعتقدات

جاء في جريدة «الكومانتتر» الإنكليزية — بمناسبة كتابي المسمى «روح السياسية» — ما يأتي: «لربما يظهر يومًا ما كتابٌ غريبٌ في فن الإقناع، فلو فرضنا أن علم النفس يصل في المستقبل إلى درجة راقية كعلم الهندسة والميكانيك لأمكننا أن نُنبئ بتأثير الدليل والبرهان في روح الإنسان كما ننبئ بخسوف القمر، وسيكون لعلم النفس الذي يبلغ تلك الدرجة قواعد نحوِّل بها الرجل إلى أي رأي؛ فتصبح روحه حينئذ كالآلة الكاتبة، حيث يكفي ضغط زر منها ليظهر الحرف المطلوب حالًا.»

قد نسلم نظريًّا بإحداث ذلك العلم — الذي عرف أقطاب السياسة وزعماء الشعوب منه بضع نبذ — في المستقبل، ولكن إيجاده كاملًا يتطلب ذكاء في البشر أسمى من ذكائه الحاضر كثيرًا، وسبب ذلك جلي واضح: إن من أشد مسائل علم الفلك صعوبة المسألة التي لم يحل منها العلماء حتى الآن سوى جزء على رغم ما بذلوه من الجهود العظيمة، والتي هي عبارة عن تعيين المواضع لثلاثة أجسام مختلفة جرمًا وسرعةً مؤثر بعضها في البعض الآخر في آنٍ واحد، والعناصر النفسية التي يقتضي تعيينها هي أكثر عددًا، ويختلف تأثيرها باختلاف قوة الحس والشعور في الأشخاص.

على أن التنبؤ في سير الناس ليس مستحيلًا على الدوام، وبيان ذلك أنه يوجد في تركيب المشاعر المعقد — الذي يتألف الخلق منه — عناصر راجحة تعيِّن وجهة الأخرى، كعناصر البخل، والأثرة، وحب الذات، والعجب ... إلخ، فالذي تقلبت عليه هذه المشاعر تسهل قيادته؛ إذ يُعلم حينئذ ما هو وتره العاطفي الذي يُضرب عليه، وأما الرجل الذي توازنت فيه المشاعر دون أن يستحوذ بعضها على البعض الآخر فيصعب اكتناهه وتسييره.

ولا شأن للعوامل كلها في تكوين الرأي، فالذي يؤثر منها في رجل لا يؤثر في الآخر، والذي يوقد نار الحرص في شعب لا يحرك ساكن شعب مجاور.

والحقيقة هي أن تكوين أكثر الآراء والمعتقدات لا يستلزم سوى قليل من العوامل، فعوامل العِرق والبيئة والعدوى تكفي لإنشاء المعتقدات العظيمة، وعامِلا الانفعال والمنفعة الشخصية يكفيان لتكوين الآراء اليومية، ومع ذلك فإنك ترانا مكرهين على البحث في عوامل أخرى؛ ذلك لأن هذه العوامل إذا لم تكن ذات تأثير على الدوام، فإنه ليس فيها ما هو غير مؤثر في أحد الأوقات.

(٢) الخلق

يوجد بجانب أخلاق العِرق العامة أخلاق الفرد المتقلبة، وشأن الأخلاق في تكوين الآراء والمعتقدات عظيم إلى الغاية، فأعقل الحكماء لا يقدر على التخلص من تأثيرها، وما في مبادئه الفلسفية من تفاؤل أو تطيُّر فناشئ عن خلقه أكثر منه عن ذكائه، وعليه فقد أصاب (ويليام جيمس) حيث قال: «إن تاريخ الفلسفة هو تاريخ التصادم بين العقل البشري، وهذا الاختلاف بين الأمزجة له أيضًا شأن في ميدان الأدب والفن والحكومة والطبائع، فإذا نظرنا إلى الطبائع نرى من الناس من يبدو عليه التكلف، ومنهم من لا يبدو عليه، وإذا نظرنا إلى الحكومة نرى بين أعضائها من هو محب للسلطة ومن هو فوضوي، وإذا نظرنا إلى الأدب نرى بين حملة لوائه من هو لغوي مفرط، أو مغالٍ في الأسلوب، ومن هو مبالغ في تصوير الأشياء كما هي.»

وإذا طبقنا تأثير الخلق الشخصي في الآراء نعلم لماذا بعض الناس محافظون وبعضهم ثوريون، فالثوريون يميلون بفعل مزاجهم إلى الثورة ضد جميع ما يحيط بهم، غير مبالين بنظام الأمور نفسه، وتتألف كتائبهم على العموم من الذين انحلت أخلاقهم الثابتة الإرثية بتأثير مختلف العوامل، فصاروا لا يلتئمون بالبيئة التي يعيشون فيها، ونعتبر كثيرين منهم من فصيلة المنحطين ذوي الأمراض والعاهات الذين لم يلتئموا بالمجتمع فأصبحوا حاقدين عليه بحكم الطبيعة كما يحقد الهمجي على مدنيةٍ أُكرِه على الخضوع لمبادئها.

وجيش الثوريين في الوقت الحاضر يتكون على الخصوص من المنحلين الذين ضاقت المدن الكبيرة بأمراضهم الكحولية والإفرنجية والحمية والسمية ذرعًا، وعلى نسبة تقدم

الحضارة يزداد عدد هذا الجيش، وسيكون إنقاذ المجتمعات من هجماته العنيفة من أشد مشاكل المستقبل خطرًا.

في بعض الأحيان يكون شأن أولئك العديمي الالتئام في التاريخ عظيمًا؛ ذلك لأنهم ذوو قدرة عظيمة على الإقناع، يؤثرون بها في روح الشعوب، فالمتهوسون أمثال (بطرس الراهب) و(لوثر) قلبوا العالم رأسًا على عقب.

(٣) المثل الأعلى

مَثَلُ الأمة الأعلى يدل على كثير من آرائها ومعتقداتها، فهو خلاصة رغائبها العامة واحتياجاتها وأمانيها، والناظم لهذه الخلاصة هو العِرق وماضيه وغير ذلك من العوامل التي لا أبحث عنها الآن، وقد بيَّنت في كتاب آخر قوة المثل الأعلى فأثبتُّ أنه لا يتزعزع من غير أن تتزلزل دعائم البنيان الاجتماعي الذي يقوم عليه، وإذا كان كثير من الناس يترددون اليوم في آرائهم ومعتقداتهم، ويسيرون طائعين خلف اندفاعات كثيرة التناقض؛ فذلك لأنهم ذوو مثل أعلى ضعيف على رغم ما يتصفون به أحيانًا من ذكاء هو غاية من السمو والرقي.

وما في المتعصبين من قوة فيُشتق من خضوعهم لمثلهم الأعلى الخطر خضوعًا تامًّا، واليوم نشاهد ذلك في الاشتراكيين الذين سحرهم مثلهم الأعلى، فقد ثقلت وطأة هذا المثل على حياتنا القومية، وهو السبب في سن قوانين مهددة لنمو هذه الحياة.

إذ لم يكن المثل الأعلى مبدأ نظريًّا يمكننا أن نتغاضى عن تأثيره، فمتى يعم أمره فإنه يكون ذا تأثير عظيم في أدق شؤون الحياة، حتى إن الذين ينكرون نفوذه يعانون هذا النفوذ على رغم أنوفهم.

والمعتقدات دينية كانت أم اجتماعية أم سياسية لا تكون ذات قوة إلا إذا أصبحت مثلًا أعلى مقبولًا بوجه عام، وعندما يلتئم المثل الأعلى المذكور مع مقتضيات الزمن وممكناته، فإنه يسبب عظمة الأمة التي تعتنقه، ولكن حينما يكون مناقضًا لسير الأمور الطبيعي، فإنه يؤدي إلى انقراض تلك الأمة.

(٤) الاحتياجات

الاحتياجات هي من أكبر العوامل في تكوين الرأي وكل تطور اجتماعي، ونعد الجوع أكثرها شدة؛ فهو الذي ساق أجدادنا الأولين من الكهوف والمغاور إلى سلم الحضارة،

وهو الذي تسعى لقضائه أكثرية البشر، ولولاه لما ترك البرابرة أرضهم البور وغيروا مجرى التاريخ بتدهورهم على روما، وليس شأنه اليوم بأقل منه في الماضي، فلقد أصاب من قال: إن الاشتراكية هي مسألة مِعَدٍ.

وكلما تقدمت الحضارة فإنه يضاف إلى قائمة الاحتياجات القديمة احتياجات جديدة، وما الاحتياج إلى الأكل، وإلى التناسل، واللباس، والدين، والأمور الأدبية، والكمال، سوى عناوين لمقتضيات الحياة والعاطفة التي تقودنا، والتي تنشأ عن علَّتَي الحركة في الموجودات؛ أعني اللذة والألم. ويؤدي إيجاد احتياجات جديدة في الجموع إلى ظهور آراء حديثة، ويعرف أقطاب السياسة أن يحدثوا احتياجات تفيد بلادهم، فما الاحتياج إلى الاتحاد في ألمانيا ثم إلى إنشاء أسطول حربي قوي سوى احتياجين مصنوعين أكرِهت البلاد عليهما.

وقد أوجب تطور الصناعة العلمي حدوث احتياجات جديدة كالخطوط الحديدية والتليفون، ومن سوء الحظ أن بلغت هذه الاحتياجات من النمو مبلغًا زاد على الوسائل الضرورية لقضائها، فصارت مصدرًا للاستياء الذي هو عامل قوي في انتشار الاشتراكية.

والاحتياجات هي أيضًا سبب التسليح المؤدي إلى الإفلاس في أوروبا؛ لأنه لما عظمت الاحتياجات كثيرًا في أوروبا، وأصبح تنازعُ البقاء فيها أشد منه في الماضي، صارت كل دولة فيها تطمع في الاغتناء على حساب الدول المجاورة لها، فالألماني الذي كان منذ زادت احتياجاته بغتةً أصبح محاربًا متوعدًا، ثم لما كان الألمان يزدادون عددًا، وأوشكوا أن يكونوا من الكثرة بحيث لا تكفي بلادهم لإطعامهم، فإن الوقت الذي تتعلل فيه ألمانيا بإحدى العلل الواهية كي تستولي على الأمم المجاورة، وتشاركها في أمر معيشتها قد قرب، وهذا السبب وحده هو الذي يدفعها الآن إلى بذل نفقات باهظة في سبيل جيشها وبحريتها.

(٥) المنفعة

ليس من الضروري أن نطنب في بيان تأثير المنفعة في تكوين آرائنا؛ ذلك لأن هذا الأمر شيء مسلم به، ويمكننا أن نعتبر أكثر الأشياء من عدة وجوه؛ أي من حيث المنفعة العامة، أو من حيث المنفعة الخاصة.

وللمنفعة ما للحرص من قدرة على تحويل ما يلائمها إلى حقيقة؛ ولذلك فهي في الغالب أقوى من العقل حتى في المسائل التي يظهر أن العقل هو المهيمن عليها. خذ الاقتصاد السياسي مثلًا تَرَ أن مبادئه المختلفة مشبعة من البحث في المنفعة الشخصية

بحيث نستطيع أن نقدِّر بها مقدمًا ميلَ الرجل ذي المهنة المعينة إلى نظام حرية المبادلة، أو نظام الحماية.

وتقلبات الرأي تتبع تقلبات المنفعة بحكم الضرورة، فالمنفعة الشخصية هي العامل الأصلي في الأمور السياسية، فالنائب الذي انتقد ضريبة الدخل بما أوتي من قوة لا يلبث أن يدافع عنها بعزم لا يقل عن السابق عندما يأمل أن يصير وزيرًا، وكذلك الاشتراكيون فإنهم يصبحون محافظين بعد أن يغتنوا.

ولا يقتصر أمر المنفعة على تكوين الآراء، بل إنها بعد أن تستفزها الاحتياجات تضعف أدب الإنسان وحسن سيرته؛ فالقاضي الذي يطمع في الرقي، والجراحي الذي يعمل عملية جراحية لا تفيد، والمحامي الذي يزيد الدعوى تعقيدًا، تنحطُّ أخلاقهم أكثر من ذي قبل عندما يحرك احتياجُهم إلى النفائس منفعتهم.

وشأن المنفعة الأدبية هو كشأن المنفعة المادية في تكوين الآراء، فإذا أوردنا عزة النفس المكلومة مثلًا نرى أنها تولِّد أحقادًا شديدة، وما ينشأ عن هذه الأحقاد من آراء، فمصدر حقد أبناء الطبقة الوسطى على الأشراف وانتقامهم منهم أيام الثورة الفرنسوية هو على الخصوص ازدراء هؤلاء لأولئك في العهد السابق، ولو أدرك (مارا) — الذي انتقم لنفسه من سادته السابقين — و(هبرت) — الذي أوجب قطع كثير من الرؤوس بعد أن كان ملكيًّا متحمسًا — دور الإمبراطورية ونالا فيه وظائف وألقابًا لأصبحا كخصومها من المحافظين المتأججين.

(٦) الحرص

إن المشاعر الثابتة الموصوفة بالحرص هي أيضًا مصدر الآراء والمعتقدات والحركة، وبما أن بعض أنواع الحرص تنتقل بالعدوى فإنه يسهل عليها أن تتسرب في الجموع حيث تصبح ذات تأثير لا يُقاوَم، وما أكثر المرات التي تدهورت فيها بعض الأمم بفعل الحرص على البعض الآخر في غضون أجيال التاريخ!

وقد يحرك الحرص نشاط الإنسان، ولكنه في الغالب يفسد سداد الرأي، ويمنع الإنسان من أن يرى الأمور كما هي، وأن يفهم صورة تكوينها، وسبب كثرة الأغلاط في كتب التاريخ أنَّ الحرص هو الذي أملى أنباءها.

نرى مما تقدم أن الحرص ذو تأثير عظيم في آرائنا وفي تكوين الحوادث، ومن دواعي الأسف أن أنواع الحرص ذات التأثير الكبير هي التي ليست محلًّا للاعتناء

والاعتبار، فلقد حقق (كانت) ما لهذه الأنواع الرديئة من الشأن الاجتماعي العظيم؛ حيث بيَّن أن الخبث هو عامل كبير في رقي البشر، ويظهر أن الناس لو اتبعوا مبدأ الإنجيل القائل: «ليُحب بعضكم بعضًا» بدلًا من أن يتبعوا مبدأ الطبيعة الذي يشير عليهم بأن يقتتلوا لظلوا عائشين في الكهوف.

الفصل الثاني

العوامل الخارجية للآراء والمعتقدات

(١) التلقين

أكثر آرائنا ومعتقداتنا؛ سياسية كانت أم دينية أم اجتماعية، نتيجة التلقين، قال (جيمس): «إن التلقين عبارة عن القوة التي تؤثر بها الأفكار في المعتقدات والسير.» وعندي أن هذا التعريف غير صحيح، فالتلقين هو بالحقيقة كناية عن قوة الإقناع ليس بالأفكار وحدها، بل بأي عامل آخر؛ كالتوكيد والنفوذ … إلخ، ولو نظرنا إلى الأفكار دون غيرها لرأيناها ذات تأثير ضعيف.

وللتلقين مناهج كثيرة نعد منها البيئة، والكتب، والجرائد، والخطب، والعمل الشخصي … إلخ، والكلام من أكثر هذه المناهج تأثيرًا، وتوكيد الكلام يزيده قوة ونفوذًا.

وشدة التلقين تختلف باختلاف العوامل، فهذه الشدة تبتدئ من التأثير الضئيل للبائع الذي يحاول أن يحملنا على ابتياع شيء من سلعه، وتنتهي إلى التأثير الذي يؤثر به المُنَوِّم في المصاب بمرض الأعصاب حيث يجعله سليب الإرادة، وفي عالم السياسة يكون الزعيم ذو النفوذ العظيم هو المنوم.

وتكون نتائج التلقين بحسب حالة الملقَّن النفسية، فالملقَّن يصبح بتأثير أحد المحرضات — كالحقد والحب — التي تضيِّق دائرة شعوره أكثر انفعالًا؛ فيسهل تحويل آرائه.

ولا يتخلص أولو الفضل من سلطان التلقين، فلقد بيَّن (جول لوميتر) في محاضرته عن (فينيلون) أن هذا الحَبْر الشهير أصبح مقودًا من (مدام كويون) ذات المرض العصبي بعد أن اتخذته مرشدًا لها؛ إذ استطاعت أن تقنعه بصحة آرائها في المذهب الصوفي الداعي إلى عدم المبالاة بالنجاة الأبدية وبالأعمال، وقد بلغ تأثيرها فيه مبلغًا جعله يعرض ذلك المذهب على مؤتمر من الأساقفة برئاسة (بوسويه) الذي لم يلبث أن اكتشف تلقين (مدام

كويون) للحَبْر المشار إليه، فقال: «أنصاع مبهوتًا من رؤيتي امرأة ذات بصيرة محدودة، قليلة الفضل، كثيرة الوهم، تؤثِّر في رجل ذي روح عالية!» غير أن الذين يطلعون على التاريخ الحديث لا يعتريهم الدهش كما اعترى (بوسويه)؛ لأن كثيرًا من الحوادث كمسألة (هومبرت)، ومسألة (دوبري دولا ماهيري) ... إلخ، أثبتت لهم أن عددًا كبيرًا من الصيارفة الماهرين والمحامين القديرين والقادة المدبرين تركوا ثروتهم بين أيدي أناس محتالين معدودين من الرُقاة المشعوذين.

وما الشعوذة سوى نوع من التلقين، والإنسان يعاني أمرها كما يعاني الطير شعوذة الثعبان، ومما لا ريب فيه أن بعض الناس النادرين يؤثرون في الحيوان بما يتخذونه من ضروب الرقية، كما يشاهد ذلك مربو الحيوانات، وما أكثر الجرائم التي اقتُرفت بفعل الشعوذة والرقية! فما لقيت كونتة (تارنوسكا) صعوبة في جعل عشاقها يقتلون رجالًا كثيرًا، وقد أصبحت من النفوذ والتأثير بحيث كان يجب تبديل فرسانها وحَرَسِ سجنها تبديلًا مستمرًّا.

ويوجد شبه بين الأمثلة المذكورة وبين أعمال الوسطاء أو الدراويش الذي يلقنون من يحيط بهم فيجعلونهم يعتقدون أمورًا لا أساس لها، على هذا الوجه ذهب كثير من مشاهير العلماء ضحية تلقين الوسيطة المشهورة المسماة (أوزابيا) كما سأبين ذلك في فصل آخر.

وبما أن شأن الجماعات يزيد بالتدريج وكان التلقين هو المؤثر فيها، فإن نفوذ الزعماء يعظم يومًا فيومًا، وما الحكومات الشعبية إلا حكومات بعض زعماء يتجلى استبدادهم في كل آنٍ؛ لأن الزعماء هم الذين يأمرون بالاعتصابات، ويُكرِهون الوزراء على إطاعتهم، ويسببون وضع قوانين عقيمة مخالفة للعقل والصواب.

قدرة الزعماء على التلقين كبيرة جدًّا، وبها يرغمون الجموع على الخضوع والانقياد، فلقد بيَّن مدير شركة (أورليان) في عيد هذه الشركة السنوي أن موظفيها اعتصبوا في زمان اضطر فيه إلى التسليم بجميع مطاليبهم، ثم قال: «إن سبب هذا الاعتصاب هو بضعة محرضين التجأوا في تحريضهم إلى إقامة الوعيد والسب والشتم مكان الدليل والبرهان.» ولو كان عند ذلك المدير اطلاع كافٍ على سنن النفس لعلم أن إبطال تلقين أولئك المحركين يتم بإخراجهم من الشركة، فالتلقين لا يقاوم إلا بالتلقين، ولا يؤدي الإذعان لما يقترحه الزعماء سوى زيادة نفوذهم.

(٢) الانطباعات الأولى

الانطباعات الأولى هي أول ما يشعر به المرء عند مصاقبته أول مرة ما جهله سابقًا من رجل، أو حادثة، أو شيء آخر، وحيث إن التدقيق في الأمر متعب شاق فإن الناس يكتفون على العموم بالانطباعات الأولى.

والانطباعات في بعض عناصر الحياة الاجتماعية تسير أحيانًا هي والبرهان، ولكن يوجد عناصر أخرى تظل فيها انطباعاتنا الأولى وحدها دليلًا، ونعد من هذه العناصر الفنون والآداب على الخصوص، ولمَّا كانت الانطباعات تابعة لمشاعر متبدلة فإن ما تولِّده في النفوس من صور وآراء يتحول بسهولة، وهذا هو سر اختلافها باختلاف الأزمنة والأشخاص والشعوب، فالانطباعات الأولى التي تورثها الأشياء نفسها في أمير إقطاعي أو أسقف من أشياع (كالفين) أو رجل متعلم أو عامي أو عالم لا تكون واحدة، وأما مسائل العلم التي لا تأثير للعاطفة فيها فإنه قلما يشاهد فيها مثل هذا الاختلاف، وعلة ذلك كون أقوالنا ومبادئنا فيها لا تتم بتأثير الانطباعات الأولى.

وأحيانًا تزول الانطباعات الأولى بغتةً بتأثير انطباعات أخرى مناقضة لها، ولكنها قد تكون قوية لا تتلاشى إلا شيئًا فشيئًا بفعل البلى والدثور.

ويقتضي اعتبار الانطباعات الأولى دلائل مبهمة، وعلائم غير صحيحة يجب نقدها، والبحث عن حقيقتها على الدوام، وإلا فإن عدم تمحيصها — كما يفعل الناس في الغالب — يؤدي إلى وقوع المرء في الضلال مدة حياته؛ ذلك لأنه ليس لها دعامة تستند إليها سوى العواطف والكراهة الغريزية التي لا يرشدها أي عقل، ولأن مبادئنا في العدل والظلم، والخير والشر، والصواب والخطأ، تقوم في أكثر الأحيان على هذه الأسس الواهية.

(٣) الاحتياج إلى التفسير

الاحتياج إلى التفسير كالاحتياج إلى الاعتقاد يلازم الإنسان من المهد إلى اللحد، وقد ساعد على تكوين الآلهة، ويساعد على ظهور عدد غير قليل من الآراء، ويسهل قضاؤه، فأبسط الأجوبة تكفيه، وهذه السهولة هي مصدر كثير من الأغلاط.

وبما أن روح البشر مولعة بالقضايا القاطعة فإنها تحافظ على آرائها الباطلة الصادرة عن الاحتياج إلى التفسير زمنًا طويلًا، معتبرة كل من يحارب هذه الآراء عدوًّا مقلقًا للراحة، والمحذور الأساسي للآراء القائمة على تفاسير باطلة هو أن الإنسان بعد

أن يعدها جازمة لا يسعى في البحث عن غيرها، فلقد أوجب جهلنا جهل أنفسنا تأخر العلوم قرونًا كثيرة، وتضييق دائرتها في الوقت الحاضر.

والتعطش إلى التفسير يتناول على الدوام أمورًا لا تُدرَك، فالنفس تسلم بأن «المشتري» هو الذي يرسل الرعد والصواعق عوضًا عن أن تعترف بأنها تجهل العلل التي تسببها، والعلم نفسه بدلًا من أن يقر بجهله بعض المواضيع فإنه يكتفي في الغالب بمثل هذا التفسير لإيضاحها.

(٤) الألفاظ والصيغ والصور

الألفاظ والصيغ من أكثر العوامل توليدًا للآراء والمعتقدات، وهي لما فيها من قدرة رهيبة قد أوجبت هلاك أناس أكثر من الذين قتلتهم المدافع، وما في الألفاظ من قدرة فناشئ عن أنها توقظ في المرء مشاعر دالة عليها، وقد بيَّنت في مؤلفات أخرى ما لها من الشأن في أمور السياسة.[١]

إن قوة الصيغ عظيمة في المجالس، فبها يحرك رجال السياسة مشاعر السامعين، ولم يلبث رئيس الوزارة الفرنسوية الموسيو (كليمانسو) أن سقط بغتةً بتأثير لفظ واحد أيقظ في أعضاء البرلمان مشاعر الخزي التي تكونت أيام حادثة «فاشودا»، وكذلك خلفه فإنه سقط للعلة نفسها، وللفظين الآتيين اللذين تلوكهما أفواه المشتغلين بالسياسة مثل ذلك التأثير، وهما: التمول والصلعكة.

وقد تبلغ الألفاظ في فعلها مبالغًا تؤثر أحيانًا في أكثر الرجال تأملًا، وعندما تكون النفس إزاء حادثة يتعذر اكتناهها فإنها تكتفي بإيجاد صيغة، فلما جهل العلماء أسرار الحياة وعجزوا عن بيان السبب في تحول حبة البلوط إلى سنديانة، وعن بيان الكيفية التي تتطور بها ذوات الحياة اكتفوا بصيغ تقوم مقام التفسير والإيضاح.

والألفاظ توقظ في المرء صورًا نفسية، ولكن الصور المرسومة أجلب للإنسان، وإني ذكرت في كتابي المسمى «روح السياسة» مقدار ما أوجبته الإعلانات المصورة من تأثير كبير في الانتخابات الأخيرة التي وقعت في إنكلترا، وقد أدرك أرباب الصناعة والطباعة هذا الأمر فتفننوا في استعمال الإعلانات المصورة ترويجًا لسلعهم.

وولاة الأمور أنفسهم قد اطلعوا على شأن الصور في تكوين الآراء، فبعدما قلَّ الاكتتاب الاختياري في كتائب الفرسان فكَّر منذ بضع سنين أحد رجال الحرب الواقفين على سنن النفس في تعليق إعلانات مصورة تمثل فرسانًا نشطين يقومون بأنواع التمرينات، وعلى

رأس الإعلانات أشير إلى الفوائد التي ينالها المتطوعون، وقد كانت نتيجة ذلك أن استغنت أكثر الكتائب فكفَّت عن قبول اكتتابات جديدة.

(٥) الأوهام

تكتنفنا الأوهام منذ عهد الطفولة حتى الموت، فنحن لا نعيش إلا بالأوهام، ولا نتبع سوى الأوهام، وبأوهام الحب والحقد والحرص والفخر نحافظ على قوة السير والحركة فينا غافلين عن قسوة المصير.

والأوهام العقلية هي قليلة بالنسبة إلى الأوهام العاطفية، وإذا كانت تنمو فذلك لأننا نود على الدوام أن نشرح بالعقل مشاعر هي في الغالب مطمورة في دياجير اللاشعور، ويحملنا الوهم العاطفي أحيانًا على الاعتقاد بأننا نحب أناسًا وأشياء لا يهمنا بالحقيقة أمرها، ويجعلنا هذا الوهم نعتقد أيضًا دوام مشاعر لا بد من اختفائها بفعل تطورنا الشخصي.

بهذه الأوهام نحيا، وهي التي تزوق لنا الطريق المؤدية إلى الفناء الأبدي، ولا نأسف على كونه يندر تحليلها، فالعقل لا يحللها من غير أن يقضي على بواعث الحركة فينا، والعوامل التي تشل الإرادة تكثر عند البحث عن علل الإرادة، وحينئذ يغوص المرء في بحر من التناقض والتردد. كتبت مدام (دوستائيل): «إن الاطلاع على كل شيء، وإدراك كل شيء يؤديان إلى التذبذب»، فلو وُجد ذكاء له ما نعزوه إلى الآلهة من قدرة على إدراك الحال والمستقبل في لحظة واحدة لما اهتم بأي أمر، ولبطلت بواعث سيره إلى الأبد.

يظهر لنا بعد بيان ما تقدم أن الوهم هو ركن حياة الأفراد والشعوب الحقيقي، وأنه هو الذي يمكن أن يُعتمد عليه وحده، ومع ذلك فإن كتب الفلسفة تغفل عنه أحيانًا.

(٦) الضرورة

يوجد فوق أهواء المشترعين الذين لا يفتأون يسنُّون القوانين في سبيل إصلاح المجتمع سيد قاهر؛ أعني: الضرورة، فالضرورة — وهي لا تبالي بتأملاتنا — تمثل القدر القديم الذي كانت الآلهة نفسها مكرهة على الخضوع له.

والاختلاف بين أوامر المشترعين العمي وبين الضرورة المسيطرة على الأشياء يزيد كل يوم، ومع ذلك الاختلاف نرى أن المجتمع الفرنسوي يعيش على رغم قوانينه لا بقوانينه.

والمشترعون لظنهم أنهم قادرون على عمل كل شيء لا يبقى ما هو غير ممكن في نظرهم، فيكفي عندهم أن يكون الشيء سديدًا ليكون ممكنًا، ولكن الضرورة لا تلبث أن تُبدِّد بيدها الحديدية جميع أوهامهم وخيالاتهم، ونرى في التدابير القاسية التي أملتها الضرورة في أستراليا ضد الاعتصابات المهددة لحياة تلك البلاد والمؤدية إلى خرابها مثالًا بارزًا على ذلك، والغريب في هذه المسألة هو أن أعضاء الوزارة الأسترالية كانوا من الاشتراكيين المتطرفين.

هوامش

(١) قالت جريدة الطان في عددها الصادر في ٢٩ كانون الثاني سنة ١٩١١ ما يأتي:

> لقد أجاد الدكتور (غوستاف لوبون) — في كتابه الذي بحث فيه عن روح السياسة والاجتماع بحثًا عميقًا — عندما أشار بحذقه النادر وبصيرته الثاقبة إلى تأثير الألفاظ السحري في الجماعات والمجالس نيابية أم غير نيابية، فقد أتى مجلسنا النيابي بعمل يؤيد صحة نظره؛ إذ إن هذا المجلس أصبح منذ بضعة أيام مسحورًا من لائحة «اللامركزية».

الفصل الثالث

لماذا تختلف الآراء؟ ولماذا لا يقدر العقل على تقويمها؟

(١) اختلاف الأمزجة النفسية يورث اختلاف الآراء

في جميع المواضيع التي يستحيل إثباتها إثباتًا علميًّا يعظم الاختلاف فيما يدور حولها من الآراء، ولما كانت الآراء قائمة على عناصر عاطفية أو دينية فإنها تتبدل على الخصوص بتبدل البيئة، والخلق، والتربية، والمنفعة … إلخ.

وعلى رغم هذه التبدلات توجد مناحٍ عامة تسوق الأشخاص أنفسهم إلى إبداء آراء من فصائل واحدة، فما هو مصدر هذه المناحي يا ترى؟ نكتشف هذا المصدر عندما نحقق أن الأمة ليست عبارة عن أشخاص يختلفون بتربيتهم وأخلاقهم فقط، بل بصفات انتقلت إليهم بالوراثة على الخصوص.

والمجتمع في أول الأمر يتكون من أشخاص لا يختلف بعضهم عن البعض الآخر إلا قليلًا؛ إذ لا يكون عندهم وقتئذ نفسية أخرى غير نفسية قبيلتهم، ولكن عوامل التطور والانتخاب لا تلبث أن تجري حكمها فيتفاوت الناس بالتدريج، حينئذ يترقى بعضهم مسرعًا، والبعض الآخر متثاقلًا، وهكذا يتفاوتون في قطع مراحل الطريق الواحدة.

وينشأ عن ذلك أن المجتمع في دور من أدوار تطوره يحتوي على أناس يمثلون جميع الأطوار التي اجتازها ذلك المجتمع بالتتابع، ولَمَّا لم يقطع بعض هؤلاء الناس حدودَ نفسية دور سابق، فإن هذا البعض لا يستطيع أن يلتئم مع دور لاحق، إذن فالحضارة بإصلاحها الناس لا تقدر على تحويلهم بالتساوي، فالناس بدلًا من أن يسيروا نحو المساواة التي تدعو إليها أوهامنا الديموقراطية في الوقت الحاضر فإنهم صائرون

إلى تفاوت زائد، ولا يكون مبدأ المساواة الذي كان سنَّة الأجيال الغابرة ناموس الحال والمستقبل.

وعلى ما تقدم تكون الحضارة بترقيها التدريجي قد أتت بعمل كعمل الساحر، فنشرت في وقت واحد على الأرض الواحدة رجال المغاور والكهوف وأمراء الإقطاعات ومتفنني دور النهضة وعمال الدور الحاضر وعلماءه.

وكيف تكون عناصر الشعب المختلفة ذات اشتراك ووحدة؟ نعم قد تتكلم الأمة في الظاهر بلغة واحدة، ولكن الألفاظ لا تلبث أن توقظ في أبناء هذه مبادئ ومشاعر وآراء متباينة إلى الغاية، وعمل الحكومات الشاق في الوقت الحاضر هو أن تحفظ الناظم بين هؤلاء الوارثين لأمزجة نفسية كثيرة الاختلاف يتفاوتون بها في الالتئام مع بيئتهم، ومن العبث أن تسعى في جعلهم متساوين، فهذا أمر لا يتم بالأنظمة والقوانين ولا بالتربية.

ومن الأوهام الكبيرة السائدة في هذه الأيام هو الاعتقاد أن التربية تساوي بين الناس، والحقيقة هي أن التربية تظهر مواهب الرجال، ولكنها لا تساوي بينهم أبدًا، فما أكثر حملة الشهادات من رجال السياسة وخريجي الجامعات الذين لهم مزاج الهمجي النفسي، ودليل الهمج في الحياة.

(٢) عناصر تقويم الآراء

ليس للآراء ما للمعتقدات من ثبات، وقد تبلغ الآراء في تقلبها مبلغًا يجعلنا نظن أننا قادرون على تقويمها بسهولة، والواقع خلاف ذلك.

إن الطريقتين اللتين تتبادران إلى الذهن في إصلاح الآراء وتقويمها هما العقل والتجربة، وقد رأينا أنه لا تأثير للعقل في المعتقدات الراسخة، وسنرى الآن هل يؤثر أحيانًا في الآراء البسيطة بتأثيره الضعيف، وسنرى أنه لما دلَّت المعرفة على عدم كفاية العقل لإضاءة نور الحقيقة ظهر نظامان سياسيان صارت إليهما جميع الحكومات في الأمم منذ بداءة التاريخ.

ولكن إذا كان العقل لا يكفي لإصلاح آرائنا فبأي شيء نبصر الحقيقة في عالم السياسة والأخلاق والاجتماع؟ سأبين في الفصل الآتي أنه ليس عندنا لإدراك ذلك سوى طريقة واحدة؛ أعني التجربة. فلنبحث الآن عن الشأن الذي عُزي إلى العقل.

(٣) شأن العقل في تكوين الآراء والأحكام المهمة

تأثير العقل كبير في جميع الآراء العلمية والفنية، وأما خطأ علماء النفس والفلاسفة فناشئ عن اعتقادهم أن للعقل مثل ذلك التأثير في الآراء العادية، وقد زعم زعماء الأحزاب الخياليون أنهم يستندون إلى العقل في تكوين آرائهم، حتى إن رجال العهد نصبوا له تمثالًا، وباسمه يسن فرسان البيان في الوقت الحاضر النُّظم والقوانين.

غير أن الاختبار يثبت أن تأثير العقل قليل لا في حياة الشعوب وحدها، بل في سيرنا اليومي، وقد أشار (تاين) إلى ذلك فقال: «لو احتجنا إلى الاعتقاد أن الآلهة هي التماسيح لأقمنا للتماسيح معبدًا في ميدان كاروسيل.»

وعندي أنه يظهر يوم إقامة هذا المعبد كتيبة من الأساتذة والمحامين الماهرين لتبرر بناءه بأدلة وبراهين عقلية، فالعقل يذعن على الدوام لأكثر اندفاعاتنا العاطفية والدينية المخالفة للصواب كي يزكيها.

والواقع هو أن الآراء اليومية تتكون مستقلة عن كل عقل، وقد لا تكون ضد العقل، وبما أننا سنسترسل في اندفاعاتنا العاطفية والدينية التي توجب تلك الآراء، فإننا نتخيل أن الآراء المذكورة صحيحة، ولا نسمح لأحد بأن يسفهها، ثم لو كان العقل سبب آرائنا الحقيقي لما بدا من جميع الناس سوى رأي واحد في كل موضوع، ولكان الأمر كما في القضايا العلمية المسلم بها لا كما في النظريات العلمية التي ليست سوى تفاسير يمليها المنطق العقلي أحيانًا بتأثير المنطق الديني أو المنطق العاطفي.

وكلما ابتعدنا من منطقة العلم الخالص؛ أي كلما مررنا من دائرة المعرفة لندخل في دائرة المعتقد يزيد الاختلاف بين الآراء في جميع المواضيع، وقد يبدو هذا الاختلاف في المسائل التي يلوح أن العقل هو المسيطر عليها؛ كالأحكام القضائية مثلًا، وسنستعين بهذه الأحوال البارزة لنثبت كيف يصعب على المنطق العقلي أن يتخلص من تأثير العاطفة والدين.

فلنقسِّم الرجال الذين فُوِّض إليهم أمر القضاء بين الناس كي نصل إلى هذا الغرض، حينئذ نرى على أسفل درجة في السلم أولي النفوس الذين يتكون رأيهم بتأثير المنطق العاطفي دون غيره، ثم نرى على أعلى درجة في ذلك السلم رجالًا ذوي أمزجة نفسية لا تؤثر فيهم سوى براهين المنطق العقلي.

وإلى الصنف الأول ينتسب المحلِّفون في محاكم الجنايات، فالمحلفون لكثرة عددهم تتألف منهم جموع، ويكتسبون ما للجموع من صفات؛ أي لا تؤثر الأدلة العقلية فيهم

إلا قليلًا، فيمكن تحويل قناعتهم بالتأثير في مشاعرهم، وعلى ذلك فإن المرأة التي تقترف جناية كبيرة، ويكون لها ذرية صغار يجدِّون في طلبها باكين لا تلبث أن تصير محطًّا لتوجُّع المحلفين ورحمتهم. وإذا كانت المجرمة امرأة حسناء قتلت عاشقها بتأثير الحسد والغيرة، فإن المحلفين في فرنسا يرحمونها أكثر مما يرحمون الأولى فيبرئونها، وأما في إنكلترا فيحكمون عليها بالإعدام، وبهذه الحالة يتجلى لنا تأثير العرق في تكوين الآراء.

وفوق الصنف المذكور الذي تستحوذ عليه المشاعر يجيء قضاة المحاكم الابتدائية، فهؤلاء من الحداثة بحيث يمكن أن تؤثر أدلة المشاعر فيهم، وإذا كان المحامي مشهورًا فإنه يخلبهم، ومع هذا فقد يتأثرون من الأدلة العقلية، اللهم إذا لم تعترضها منافعهم الشخصية، وأحيانًا يكون لرغبتهم في الرقي وللعوامل السياسية تأثير عظيم في آرائهم، ولذلك تكون أحكامهم متقلبة مشتبهًا فيها. يُحدِث عندي هذا الاعتقاد كون محاكم الاستئناف تنقض ثلث أحكامهم على وجه التقريب.

ودرجة قضاة محاكم الاستئناف هي فوق درجة أولئك؛ إذ لَمَّا كان هؤلاء القضاة أكبر سنًّا وأعظم درجةً، فإنهم يخضعون لتأثير المنطق العقلي أكثر مما لتأثير المنطق العاطفي.

ثم نشاهد على ذروة السلم قضاة محكمة النقض والإبرام، فبما أن القضاة المذكورين طعنوا في السن فأصبحوا من الشيوخ، وصارت علائم الهرم بادية علهم، وبما أنهم أضحوا لا يبالون بالمنافع الشخصية، ولا يعلمون للرحمة والعاطفة معنًى، فإنهم يتمسكون بدائرة القانون نفسها غير ناظرين إلى الأحوال الخصوصية؛ ولذلك لا يذكر المحامون أمامهم أدلة مصدرها العاطفة، بل يحاولون أن يؤثروا فيهم ببراهين العقل، فدقائق القانون هي التي تستولي عليهم من كل الوجوه. ولا يخلو ذلك من خطر؛ لأن قاعدة الحقوق التي تكون عند وضعها صائبة لا تلبث أن تصبح غير صائبة بفعل تطور الأمور الاجتماعي، ووقتئذ يجب تأويلها على وجه موافق لمقتضى الحال كما يفعل بعض القضاة في أحكامهم التي هي فاتحة التشريع، على هذه الطريقة صارت المبارزة جنحة بعد أن كانت جناية، وكذلك زناء الأزواج الذي كان جناية يعاقب فاعلها بالسجن سنين طويلة أصبح جنحة خفيفة.

ظهر مما تقدم أن آراء بعض الرجال المتعلمين المتصفين بمزية الإنصاف، والمتجردين عن الهوى تكون في الغالب مختلة، وهذا ما يؤيد بياننا القائل: إن العقل وحده لم يكفِ لتنوير بصائرهم، وتثقيف أذهانهم.

وإذا لم ننظر إلى تلك الصفوة، بل إلى الاجتماعات كالمجالس النيابية التي يكون أعضاؤها في الغالب سائرين وراء مصالحهم الشخصية وحرصهم السياسي نرى أنه لا شأن للعقل في مقرراتهم، حتى إنهم لا يستمعون أحيانًا إلى ما يمليه العقل من براهين، وهم لا يقترعون إلا على ما توحيه إليهم منافع أحزابهم، أو مآرب منتخبيهم.

أجل، إنه يستشهد بالعقل في المجالس النيابية، غير أن العقل هو أقل العوامل تأثيرًا فيها، ويعلم نوادر الزعماء الذين يستطيعون أحيانًا أن يغيروا اقتراع أحد الاجتماعات السياسية أنهم لا يؤثرون بالمعقول في السامعين، بل بتحريكهم مشاعر هؤلاء، ويستعينون على ذلك ببضع صيغ لها ما لآيات الدين من التأثير.

(٤) شأن العقل في تكوين الآراء اليومية

تبيَّن لنا ما للعقل من الشأن الضئيل في مقررات صفوة الرجال وأحكامهم، وشأن العقل يكون أقل من ذلك في تكوين الآراء اليومية؛ إذ إننا بالحقيقة نرى آراء مختلفة في مواضيع لو تناولها العقل لم يصدر فيها سوى أحكام متجانسة، ويتجلى هذا الاختلاف عند الوقوف على شأن العناصر الدينية والعناصر العاطفية في تكوين الآراء.

ولا ينشأ اختلاف الرأي — كما يزعمون أحيانًا — عن تفاوت في تعلم الذين يبدونه؛ لأننا نشاهد صدور هذا الاختلاف عن أناس تقاربوا علمًا وذكاءً، وقد يثبت لدينا ذلك عند اطلاعنا على الأجوبة التي جمعت في أثناء استقراء بعض المسائل المعينة.

ومن بين الأمثلة الكثيرة أورد مثالًا بارزًا نشره الموسيو (بينيه) في إحدى المجلات، وإليكه: لما أراد الموسيو (بينيه) أن يطَّلع على نتائج حذف تاريخ الفلسفة من برامج المدارس الثانوية أرسل سؤالًا إلى جميع الأساتذة الذين كانوا يدرِّسونه عن رأيهم في الحذف المذكور، إلا أن الأجوبة التي أخذها عن ذلك كانت متناقضة؛ إذ عَدَّ بعض الأساتذة حسنًا ما عدَّه البعض الآخر مضرًّا، ثم سأل الموسيو (بينيه) مستنتجًا: «كيف يستحسن أستاذ إصلاحًا يمقته زميله؟! فيا له من أمر مفيد أثبت للأساتذة أن آراء البشر تكون نسبية حتى آراء أصحاب الكفاءة من الرجال!»

وقد حدث مثل التناقض المذكور في جميع المواضيع، وفي كل زمان، ومع ذلك فإن الإنسان مضطر إلى اختيار أحد الآراء كي يسير في الحياة. فكيف يقع هذا الاختيار؟ اكتشف الناس حتى الآن طريقتين فقط: إما قبول رأي الأكثرية، وإما قبول رأي رجل واحد نُصِّب ملكًا، ومن هاتين الطريقتين تشتق جميع النظم السياسية.

لا شك في أن الرأي إذا دعمته الأكثرية لا يكون لهذا السبب أرقى من الرأي المخالف، كما أن رأي الفرد الذي ألزم الناس به قد لا يكون أسمى من غيره، وإنما ضرورة السير هي التي توجب اختيار إحدى الطريقتين، فلولا الاختيار لوقع تذبذب في الأمور، وبطل السير والحركة.

ورأي الفرد الذي هو على جانب كبير من الفضل والعبقرية يكون على العموم أرقى من رأي المجموع، ولكن إذا كان الفرد قليل الفضل فإن آراءه قد تكون كثيرة الخطر، ومن يتصفح تاريخ ألمانيا وفرنسا منذ خمسين سنة يشاهد أدلة عديدة على فوائد تينك الطريقتين ومحاذيرهما؛ أي استبداد الفرد، واستبداد المجموع.

الفصل الرابع

تقويم الآراء بالتجربة

(١) التجربة في حياة الأمم

رأينا في الفصل السابق كيف أن المنطق العقلي في أكثر المواضيع — ما عدا المسائل العلمية — لا يأتي إلا بملاحظات مبهمة تلجئ الناس إلى اختيار الطرفين: إما السير حسب رأي الأكثرية، وإما السير حسب رأي فرد نُصِّب ملكًا، ولكن لما كان الإذعان لرأي لا يكفي لتحويل هذا الرأي إلى حقيقة، فكيف نكتشف قيمة الرأي الصحيحة؟

لا يظهر لنا ذلك إلا بالتجربة، تلك الطريقة البطيئة الغالية التي لا تطبق والحالة هذه على جميع المواضيع، فهي إزاء المعتقدات الراسخة عاجزة عجز العقل، وأما في آراء الجموع كبعض الآراء السياسية مثلًا فإنها لا تلبث أن تؤثر إذا كانت بارزة مكررة.

إن حياة الأمم أكبر دليل على ضرورة التجارب المكررة البارزة، فيجب أحيانًا تخريب مدن كثيرة وإراقة دماء غزيرة كي تفقه أمة بضع حقائق تجريبية، وفي الغالب لا تستمر استفادة الأمم من التجارب زمنًا طويلًا؛ لأن ضعف ذاكرة المشاعر يؤدي إلى عدم انتفاع جيل لاحق بتجارب جيل سابق، فلقد شاهدت جميع الأمم منذ بدء العالم أن الحكم المطلق يعقب الفوضى، ومع ذلك فإنها لم تستفِد من هذا الدرس الأبدي، وقد أثبتت الحوادث المكررة أن الاضطهاد هو أحسن وسيلة لانتشار معتقد ديني، ومع ذلك نرى المظالم تقع بدون انقطاع، وقد علَّمت التجربة أن الإذعان إزاء وعيد الغوغاء يبطل عمل الحكومات، ومع ذلك فإن رجال السياسة لا يزالون ينسون هذه الحقيقة، وكذلك التجربة فإنها دلت دلالة قاطعة على أن منتجات الحكومة تكلف — لأسباب نفسية صادقة — ثمنًا أغلى من ثمن المنتجات الخصوصية، ومع هذا يكدح الاشتراكيون كل يوم في إكراه الحكومة على احتكار صنع مصنوعات جديدة.

ولا تؤثر التجارب إلا إذا كانت بارزة كما بينت آنفًا، وهاك مثالًا جديدًا مشهورًا على ذلك: لقد أنبأ علماء النفس، وجميع علماء الاقتصاد، وجميع أكابر التجار بأن اشتراء خطوط الأويست «الغرب» الحديدية وإدارتها من قبل الدولة يكلف ثمنًا غاليًا، ولو كان الأمر متعلقًا بالثمن لما شعر الجمهور بذلك كثيرًا، غير أن إدارة الدولة لهذه الخطوط أوجبت في بضعة أشهر وقوع نكبات هائلة، وزهوق نفوس كثيرة، مما جعل الناس يدركون عاقبة تلك التجربة الصارمة، ولا يجرؤون على مطالبة الدولة باشتراء خطوط حديدية أخرى.

(٢) صعوبة إدراك العوامل التي هي سبب التجربة

ولا يستدلنَّ القارئ من كون التجارب البارزة كالتجربة التي أشرنا إليها في المطلب السابق تستطيع أن تحول الآراء أنه يسهل إدراك العوامل التي سببت هذه التجارب، فوزير الأشغال العامة لم يكتشف العلل الخفية لتلك النكبات التي دلت على وجود فوضى بارزة في إدارة الخطوط الحديدية المذكورة، ولما اعترف بأن مصدر النكبات هو ما يقع بين القطارات من الاصطدام، وأن سبب الاصطدام هو خلل النظام، ظن أنه قادر على إصلاح الخلل بعزل المدير، ولم يتوسل المدير الجديد إلى تقليل النكبات بسوى نقص عدد القطارات، وتحديد سرعتها.

وماذا يستطيع المدير أن يصنع إزاء معلومات نشأت عن علل لا تأثير له فيها؟ إنه يعجز عن منح إدارة الدولة ما لا تملكه من قابلية صناعية، وعن إيجاد نظام وهمة واحترام للأوامر في موظفين يسوقهم زعماء حراص محرضون.

جاء في جريدة الطان ما يأتي: «كيف نجد مستخدمين صادقين في إدارة خطوط حديدية لم يقترع نواب المديريات لابتياعها إلا ليعينوا فيها من هم تحت رعايتهم؟ وكيف نأمل أن نرى في هؤلاء الموظفين خضوعًا تامًّا، والحكومة تنظر إلى جميع مساوئهم بعين الإغضاء، حاسبة حساب كثير من النواب المشاغبين؟ ثم قالت تلك الجريدة مستنتجة: ننتظر من الدولة التي تخبط في إدارة خطوطها الحديدية خبط عشواء أن تسلك محجة الصواب، فتترك الشركات حرة في إدارة خطوطها غير مُلزمة إياها أمورًا ممقوتة شاهدت هي بنفسها ماذا تجر هذه الأمور وراءها من النتائج المضرة.»

ولكن هذا الأمل لاغٍ، فالدولة — أي النواب المسيرون للدولة — ما فتئت تجور على الشركات وتحمِّلها ما لا تطيق، وتحث على عدم النظام، وعلى زيادة مطاليب موظفيها،

غير أن مقادير الأمور التي هي فوق الخطب أتت بدرس تجريبي جديد لا ريب في أنه سيصبح مفهومًا: فقد ذكرتُ منذ بضع سنين في مقالة نشرتها في إحدى المجلات أن من نتائج مداخلة الحكومة الجائرة في أمور الشركات هو هبوط قيم أسهم هذه الشركات؛ أي نزول أثمان عنصر ثابت من عناصر ثروة البلاد العامة، وما لبث هذا التنبؤ أن تحقق بسرعة؛ إذ إنه أصاب أكثر الأسهم سقوط عظيم حتى إنه بلغ ١٧ في المائة في شركة «ليون»، فبعد أن كان سعر سهم هذه الشركة في المَصْفَق ١٫٣٨٥ فرنك في شهر شباط سنة ١٩٠٩ صار ١٫١٥٠ فرنك في شهر شباط سنة ١٩١١، ولكي يكون هذا الدرس التجريبي ذا تأثير مفيد يجب أن يستمر الهبوط أكثر من ذي قبل.

وتؤدي العلل الواحدة إلى نتائج واحدة، ولذلك لا نعجب من مصادفتنا في أسطولنا الحربي فوضى كالتي في خطوط الدولة الحديدية، وإليك تقرير مقرر ميزانية البحرية الذي نتخذه دليلًا كافيًا على صحة قولنا:

> ولقد أنفقت ألمانيا منذ سنة ١٨٩١ حتى سنة ١٩٠٦ على بحريتها ٢٫٥٠٨ ملايين، وأنفقت فرنسا ٣٫٨٠٩ ملايين، ومع أن الفرق ١٫٣٠٠ مليون، فإن ألمانيا استطاعت أن تبني لها أسطولًا أقوى من أسطول فرنسا، فهذه الأرقام تكفي لانتقاد إدارتنا، ولا يزال الرأي العام غير مبالٍ بذلك، فيجب لتحريكه وإثارة مجلس النواب وقوع كوارث هائلة، وحدوث نكبات عظيمة، وسفك دماء كثيرة، لا إلقاء خطب وتلاوة بيانات. إن المدرعتين «فارفاده»، و«لوتان» تغرقان بعد غرق المدرعات «سوللي»، و«شانزي»، و«نيف»، و«فينا»، وها هي المدافع تنفجر في المدرعة «الكورون»، والجنود تُبقَر، ثم ها هي المدرعة «ينا» تفور كالبركان، فبعد هذه النازلة الأخيرة لا يجوز اتهام المصادفة والإنفاق، وإنما يتحتم علينا أن نبحث في الأمر بحثًا عميقًا.
>
> فقد علم الرأي العام وهو حائر مشدوه إلى الغاية أن بحريتنا تحتاج — على رغم مئات الملايين الكثيرة التي أنفقت في سبيلها — لا إلى مراكب حربية قوية فقط، بل إلى مدافع وعدد وميرة ومعامل للإصلاح أيضًا، ولم يكن النقد هو الذي يعوزنا، فعندنا منه ما يكفي لجعلنا أقوى من ألمانيا!

ثم قال المقرر: «إن هذه الحقائق ثقيلة مفجعة.»

حقًّا إنها ثقيلة مفجعة، ومن دواعي الأسف أنه ليس عندنا ما يجعلنا نأمل أن تزول أسباب تلك النتائج الكثيرة، ونعد من هذه الأسباب: اختلال النظام الزائد بين

عمال دور الصناعة الحادث بفعل كثير من المحرضات اليومية، وانحلال مصالح الدولة بتأثير ما بين الموظفين — الذين يحسدون بعضهم بعضًا — من مناظرة ومزاحمة، والاشتراكيين الذين يرغمون الحكومة أن تصنع بنفسها ما تصنعه ألمانيا في مصانع الأفراد الخصوصية.

ظهرت نتائج التجارب في المسائل المذكورة بسرعة، ولكن قد لا تظهر هذه النتائج إلا ببطء، فالقضاء على الأسطول الروسي بغتةً من قبل المدرعات اليابانية، وعجز نسافات الروس عن أن تحول دون ذلك، كانا ضروريين لندرك خطأنا العظيم في عدولنا منذ بضع سنين عن إنشاء مدرعات كي نصنع مكانها بارجات صغيرة ونسافات ثبت الآن أنها غير مفيدة، وهكذا أضعنا مئات من الملايين، وظلت بلادنا عاطلة من وسائل الدفاع حتى أثبتت التجربة خطأنا فعزمنا على بناء أسطول جديد.

وإذا كانت التجربة في الغالب ضرورية لتحقيق قيمة الآراء فذلك لأن أكثر الآراء تتكون من دون أن تبالي بغير ظواهر الأمور، ففي المسألة التي استشهدنا بها دل الرأي المستند إلى بعض الظواهر على أن النسافات الرخيصة تدمر المدرعات الغالية بسهولة، ولذلك رؤي أن من العقل والصواب ترك هذه وإنشاء تلك.

ولا تبدو النتائج البعيدة للتدابير القائمة على ظواهر المعقولات إلا لذوي البصائر الثاقبة الذين لا يكونون في الغالب من القابضين على زمام الأمور، فقد بيَّنت في كتابي المسمى «روح السياسة» ضرر كثير من القوانين التي كان يظهر أن العقل هو الذي أملاها، وسرعان ما أثبتت التجربة أن تأثير أكثر هذه القوانين الجائرة منافٍ حتى لمنافع الذين وُضعت لحمايتهم.

ونورد الحادث الآتي الذي وقع حديثًا في مدينة «ديجون» مثالًا على تلك النتائج: لما أوجبت إحدى المصادفات الضالة انتخاب بلدية اشتراكية لتدير أمور هذه المدينة تصوَّر أعضاء البلدية المذكورة أن يساعدوا العمال على أن يجعلوا مكان مكوس الدخولية ضرائب ترهق الأغنياء، وفعلًا أجروا ذلك، ولكن الأمر لم يلبث أن انقلب إلى ضده؛ لأن معيشة العمال بدلًا من أن تصبح رخيصة صارت أغلى منها في الماضي كثيرًا، وهكذا علَّمت التجربة الاشتراكيين أن سنن الاقتصاد التي يُستخفُّ بها عند عدم إدراكها لا تسمح بفرض أية ضريبة على طبقة واحدة دون غيرها، فإذا فُرضت هذه الضريبة فإنها توزع في الحال — ولكن على وجه غير مباشر — على الطبقات الباقية أيضًا لا على التي فرضت عليها وحدها.

دروس التجربة تكون في الغالب بارزة، فلماذا يعجز كثير من رجال السياسة الذين هم على شيء من الذكاء عن فهمها؟ أجيب عن ذلك قائلًا — كما بينت في الفصول السابقة: إن التجربة لا تؤثر في المعتقدات على وجه التقريب، ولمَّا كانت مبادئ زعماء الأحزاب المتطرفة من فصيلة المعتقدات لا من فصيلة الآراء، فإنها تستند إلى دعائم عاطفية دينية لا يقدرون على مقاومتها.

وليس للعقل الذي يستشهد به المشتغلون بالسياسة تأثير في هؤلاء، كما أنه لا تأثير له في أنصار أي إيمان، فالحقائق العاطفية أو الدينية هي التي تقودهم جميعًا، فهم وإن كانوا ذوي سلطان على خطبهم فإنهم لا سيطرة لهم على المحرضات الخفية التي تملي عليهم تلك الخطب.

وبعد أن اطلعنا على تكوين الآراء — التي ليس فيها من المعقول سوى الظواهر — تكوينًا خفيًّا، فإننا لا نحنق على عدم فطنة من أبدوها، فالحقائق التي لا يدركها غير مَن لا دليل لهم إلا المنطق العقلي تظل خافية على من لا دليل لهم غير المعتقد.

الباب السادس

آراء الجموع ومعتقداتها

الفصل الأول

تكوين الآراء بتأثير الجموع

(١) تأثير العرق في المعتقدات

الجموع لها شأن كبير في تكوين كثير من الآراء، وهي الناظمة لها، وليس عند أكثرية البشر الساحقة سوى آراء الجموع، حتى إن أغلب الناس استقلالًا لهم ما لزُمَرهم الاجتماعية من آراء. وقد بيَّنا ذلك سابقًا، وسيظهر الآن على شكل أوضح عندما نبحث عن المؤثرات الاجتماعية في تكوين آرائنا ومعتقداتنا، وهذه المؤثرات هي: العرق، والبيئة، والعادة، والزمرة.

فلنباشر في البحث في تأثير العرق: دلت التجربة والاختبار على أن للأمم ذات الماضي الطويل آراء ومعتقدات واحدة في بعض المواضيع الأساسية، وتظهر هذه الوحدة بعد تكوين روحها القومية، ولاختلاف هذه الروح باختلاف الأمم فإن الحوادث الواحدة توجب في الأمم المختلفة انعكاسات متباينة.

ليس اليوم ما يسمونه العروق الخالصة موجودًا بالمعنى العلمي الصحيح، وإنما لمَّا خضعت أمم تنتسب إلى جنس واحد، أو إلى أجناس كثيرة متقاربة قرونًا طويلة لمعتقدات واحدة، وأنظمة واحدة، وقوانين واحدة، ولغة واحدة تكوَّن منها عِرق تاريخي — كما فصلت ذلك في كتاب آخر — حينئذ صار لهذا العرق في كثير من المواضيع — سياسية كانت أم أخلاقية أم دينية — أفكار ومشاعر مشتركة أصبحت راسخة في النفوس بحيث يسلِّم بها جميع أبنائه غير مجادلين.

إذن ليست روح الشعب عبارة عن تصور نظري، بل هي حقيقة ذات حياة تكونت من تقاليد، وأفكار، وأساطير، وخيالات متكاثفة في النفس تكاثفًا إرثيًّا، وحسب متانة هذه الروح تكون قوة الشعب.

وإذا كان اتحاد الناس ناشئًا عن فتوحات قسرية فإنه يتكون منهم مجموع مؤقت سريع الانحلال ما داموا عاطلين من روح قومية، وإذ لم ينالوها يظلون برابرة؛ لأن القضاء على مقومات الماضي النفسية يؤدي حتمًا إلى وقوع الشعب في طور الهمجية.

ويكون اختلاف الآراء عند الأمة ذات الروح القومية المتينة في المواضيع التي لا أهمية لها، وأما في الأمور الكبيرة فإنه يحدث عندها إجماع في الرأي، وقد أتى الإنكليز بمثال بارز على ذلك في حرب الترنسفال، فإنه عندما توالى انكسار الجيوش البريطانية أمام فلاحي البوير سنحت لجرائد الحزب المعارض فرصة مهاجمة الوزارة، ولكن ذلك لم يخطر على قلب كاتب، ولو خطر على باله لردعته روحه القومية عنه.

ولا تتجلى الروح القومية إلا فيما يتعلق بالمنافع العامة العظيمة، وهذه الروح لا تمنع الأفراد من أن يكونوا ذوي آراء شخصية ذات ثبات، كما أن صفات النوع في التاريخ الطبيعي لا تمنع ذلك النوع من اتصافه بصفات الجنس الذي يشتق منه.

قد لاحظنا آنفًا أن تكوين الروح المشتركة لا يتم إلا في الأمم التي لا يختلف بعضها عن بعض إلا قليلًا، فإذا كانت على اختلاف كبير فإنها لا تلتحم؛ لأن أفرادها لما كانوا مختلفين روحًا فإن تأثير الأشياء الخارجية فيهم يكون متباينًا، وهذا ما يمنعهم من أن يكونوا ذوي آراء مشتركة في أي موضوع، فحال التشيك والمجر في النمسا، والإيرلنديين في إنكلترا يؤيد صحة هذا الناموس.

توالد الشعوب الكثيرة الاختلاف يغير المؤثرات الإرثية، ولكن الأفراد يفقدون بهذا التوالد كل ثبات نفسي، ولذلك يتعذر حكم الأمة المولدة، يثبت هذا ما هو واقع في جمهوريات أميركا اللاتينية من الفوضى.

ويرسخ ميراث الماضي كلما شاخت الأمة، وما كان سر قوة الأمة يصبح بفعل الزمان سبب ضعفها، وكلما صعب التئامها مع أي مبتكر حديث أصبحت أفكارها وآراؤها أكثر تقيدًا منها في السابق.

ويقع كل يوم تصادم بين الشعور الذي يهيمن عليه العقل وبين المحرضات الإرثية التي لا تأثير للعقل فيها، وما تأتي به الأمم من ثورات عنيفة لنتخلص بها من نير الماضي الثقيل فذو تأثير غير دائم؛ لأن الثورات وإن أمكنها أن تهدم الأشياء وتخربها فإنها لا تبدل النفوس إلا قليلًا، وعلى هذا نرى أن آراء فرنسا القديمة ومعتقداتها ذات تأثير عظيم في فرنسا الحديثة، وما وقع فيها من تغيير ففي الظواهر فقط.

(٢) تأثير البيئة في الزمر الاجتماعية

تؤثر البيئة الاجتماعية في آرائنا وسيرنا تأثيرًا شديدًا، فهي تولد فينا أدلة غير شعورية تقودنا من حيث لا ندري، ويتألف من كتب أحد الأدوار وجرائده ومناقشاته وحوادثه وسطٌ هو مع خفائه يعيِّن وجهة سيرنا، وفي هذا الوسط بذور لمبادئ فنية، أو أدبية، أو علمية، أو فلسفية، يكسوها أولو العبقرية أحيانًا شكلًا ساطعًا زاهرًا.

وما في البيئة من آراء متين، حتى إن الرجل الذي يغير بيئته يضطر إلى الإذعان لآراء بيئته الجديدة، ولهذا السبب يسهل على اشتراكي فوضوي أن يصبح محافظًا عندما يقبض على ناصية الحكم، فكلٌّ يعلم كيف استطاع (نابليون) أن يحول بسهولة غيلان العهد الذين لم يتسع لهم المجال ليتمادوا في فصل الرقاب إلى دوكات وحُجَّاب وبارونات.

تأثير البيئة الاجتماعية عام، وأما الزمرة التي ننتسب إليها فهي التي تؤثر تأثيرًا خاصًّا، وما في المرء من معتقدات أو آراء شخصية مصدرها اختباراته وتأملاته فقليل إلى الغاية، فأكثر الناس لهم رأي زمرتهم؛ أي طائفتهم، أو طبقتهم وأهل مذهبهم، أو حزبهم، أو أرباب مهنتهم.

إذن فلكل طبقة من طبقات الشعب — عمالًا كانوا، أم قضاة، أم ساسة — آراء خاصة، وهذه الآراء هي مقياس لما يأتي به أفراد تلك الطبقة من الأحكام، فالأمور في نظر هؤلاء الأفراد تكون صوابًا أو خطأً حسبما تكون ملائمة أو غير ملائمة لآراء الزمرة التي ينتمون إليها، وإذا قبل أحد رأي زمرته فبلا جدال، وإن لم يقبله لا يستطيع أن يعيش فيها.

ويؤدي التطور الحديث نحو الاشتراكية والنقابية إلى زيادة عدد الزمر ولا سيما التي تدير بها الدولة احتكاراتها، وما بين هذه الزمر من تحاسد فذو جفوة، ولتلك الجفوة لا يبدو من الزمر المذكورة سوى العداوة والإهانة، ولما لم تكن ذات تضامن يربط بعضها ببعض فإن انحلال مصالح الحكومة يزيد يومًا فيومًا، وهذا هو أحد الأسباب العميقة العويصة في تقهقر احتكارات الحكومة، وقد ذكرت ذلك في كتاب سابق فأثبت أن في احتكار الدولة لأي مشروع بلية على ماليتها.

وتباين الآراء بين زمر الموظفين التي هي بالحقيقة سيدة البلاد لخفائها يبدو للجمهور قليلًا، وأما آراء زمر العمال فهي بالعكس ذات ضجيج يجعلها ظاهرة منظورة، وقد أخذت أحقادها على الطبقات الأخرى تصبح عاملًا قويًّا في التطور السياسي الحديث.

وتتصور زمر العمال بتلقين زعمائها أنها وحدها هي التي أوجدت الثروة منكرة شأن رأس المال والذكاء، وقد أصبحت أممية قائلة بمبدأ نزع السلاح، فَعَدَّ العمال لذلك زمرَ الحرف وطنهم الحقيقي غير ناظرين إلى الأمم الموجودة فيها تلك الزمر.

(٣) تأثير العادة

تشتق قوة المجتمعات والأفراد من العادة، فالعادة تُغني في أي حال يبدو ليُنظر فيه، والبيئة والعدوى والتربية تُثبِّت العادة في الإنسان، والقوانين تؤيدها، ولا تكون القوانين قوة إلا إذا دعمت عادة موجودة قبل سنِّها.

وإذ قد بحثت عن العادة آنفًا فإنني أكتفي الآن بالعبارة السابقة، وسندرس في الفصل الآتي صفات آراء الجموع، وقيمتها، وتأثيرها.

الفصل الثاني

تأثير آراء الجموع ونتائجها

(١) صفات الآراء الشعبية

شأن الجموع الزائد في الحياة السياسية يجعل البحث عن الآراء الشعبية ذا أهمية، ولما فسرتها كتيبة من المحامين والأساتذة الذين حرَّفوها وأخفوا تقلباتها وعدم اتساقها وسذاجتها ظلت معروفة قليلًا، وقد بلغ تملقهم للشعب ذي السيادة مبلغ التذلل لأشد الملوك استبدادًا في الماضي، ولا يزالون معجبين بحرصه الدنيء وشهواته ذات الجلبة والضجيج، ورغائبه الخرقاء، ولا قيمة للحوادث والحقائق عندهم، فهم يرون أنه يجب على الطبيعة أن تخضع لأهواء العدد.

وتتصف الروح الشعبية التي بحثت عنها في مؤلفات أخرى بكونها تخضع للمبادئ العاطفية، والمبادئ الدينية خضوعًا تامًّا، وما فيها من اندفاعات مصدرها المشاعر والدين فلا يزجره أي دليل عقلي، ولذلك فإنها تسير حسب هذه الاندفاعات غير مترددة.

جهة الدين في روح الجماعات أشد نموًّا من جهة العاطفة، وهذا هو علة احتياجها الشديد إلى عبادة معبود ربًّا كان أم صنمًا أم وجيهًا أم مذهبًا، والاحتياج المذكور يتدفق اليوم نحو الاشتراكية التي هي دين جديد قادر على تجديد البشر! وقد شوهد التدين الشعبي في جميع الأجيال، وإذا لم يتجلَّ في المعتقدات اللاهوتية فإنه يستولي على المبادئ السياسية، فكل صفحة من صفحات تاريخ الثورة الفرنسية تدعم قولنا.

أعود فأقول: إن عجز العقل عن التأثير في الجموع هو أهم صفاتها، فالأفكار التي تؤثر فيها هي المشاعر التي صُبَّت في قالب أفكار لا الأفكار العقلية، ومع أنه وجب أن تكون هذه الحقائق معروفة عند الجميع، فإن ساسة العرق اللاتيني يثبتون بسيرهم أنهم لا يزالون غير مدركين لها، وسيظلون في الفوضى حتى يطلعوا عليها.

(٢) كيف يبقى شيء من الثبات في الشعب على رغم تقلب آرائه؟

نصادف في الآراء الشعبية صفتين متباينتين: التقلب والثبات، فالتقلب يظهر أنه هو القاعدة، إلا أنه ينطوي تحت هذا التقلب عناصر هي غاية في الثبات، كما أنه يوجد تحت أمواج البحر المحيط السطحية مياه البحر الساكنة، ويتجلى لنا جميع ذلك عند النظر إلى ما طرأ علينا من التقلب منذ عصر.

حقًّا يوجد خلف تقلب الجموع الدائم، وغيظها الشديد، وحماستها، وغضبها العظيم، وأحقادها التي أوجبت انقلابات عديدة غرائز محافظة متينة ثابتة، فقد ظلت أشد الجموع اللاتينية ثورة شديدة المحافظة كثيرة التمسك بالتقاليد، لم تلبث أن أعادت النُّظم التي حطمتها بأسماء جديدة.

ولم يفقه زعماء الجماعات أنها وإن كانت تأتي بالثورة فعلًا إلا أنها محافظة بمشاعرها، فقد يسهل تحريك روحها بآراء سياسية يومية، وأما مزاجها النفسي الأساسي فالزمان وحده هو الذي يؤثر فيه.

والعمل الآتي الذي قامت به الحكومة الإنكليزية حديثًا يثبت لنا جهل الساسة للروح الشعبية، وما ينطوي تحت تقلباتها من ثبات، وهو: لما تمَّ انتخاب مجلس نواب جديد في إنكلترا لم يمنح الحكومة أكثرية كافية لإصلاح مجلس اللوردات ظنت أنها بخوضها معركة انتخابية حامية الوطيس تقدر على جعل الجموع الإنكليزية تنتخب نوابًا موالين يكفون لتنفيذ برامجها، ولكن على رغم ما أتت به من ضغط عنيف لم ينتخب الشعب سوى أعضاء المجلس السابق؛ إذ إن الأكثرية التي كانت تستند إليها الحكومة قبل الحل بعد أن كانت ١٢٤ نائبًا أصبحت ١٢٦ نائبًا؛ أي إن ما أتت به الحكومة من مجهود كبير لم يؤدِّ إلا إلى زيادة عضوين موالين.

وما كان الوزراء بحاجة إلى وقوف كبير على علم النفس كي يعلموا تلك النتيجة قبل وقوعها، وكيف ظنوا أنهم — بعد أن استعملوا في المرة الأولى جميع ما بأيديهم من وسائل ليؤثروا في روح الشعب — يستطيعون في بضعة أشهر أن ينالوا غير النتيجة السابقة؟ أتاهم ذلك الظن من اطلاعهم على سرعة التقلب في الجموع، ناسين أن الثبات هو رائدها في عدد من المواضيع الجوهرية، ومن هذه المواضيع المبدأ الذي اتخذ أساسًا للمعركة الانتخابية الثانية والذي يلائم مناحي الإنكليز التقليدية التي يتعذر تحويلها.

وتصعب إدارة الروح الشعبية من غير أن يُنفَذ فيها، وقد أثبت مرات عديدة كيف يجهل أولو الأمر كنهها، فقد أتى قانون تقاعد العمال الجديد ليؤيد صحة أقوالنا دفعةً

أخرى، وجهل هؤلاء الساسة لروح الأمم الأخرى أشد وأنكى، يدل على ذلك سياسة الإدغام والتمثيل التي يسيرون عليها في حكم مستعمراتنا.

(٣) قوة الآراء الشعبية قبل الجيل الحديث

لم ينحصر تأثير الآراء الشعبية في الوقت الحاضر وحده، بل أجرى حكمه العظيم في أدوار التاريخ المختلفة، والسبب في كوننا لم نطلع على ذلك هو أن تاريخ الأمم لم يبحث إلا عن الملوك، فكأن ما حدث في أيام دولتهم من وقائع وأعمال قد تم بمشيئتهم، ومع أن الكتب أغفلت أمر البحث في تأثير الآراء الشعبية فإن شأن هذه الآراء كان عظيمًا في جميع الأزمنة، ومتى يأخذ التاريخ في درس هذه الشعوب بعد أن يفرغ من الاهتمام بأمر الملوك يظهر لنا أن الجموع هي التي أوجبت بالحقيقة وقوع الحوادث الخالدة كالحروب الصليبية، والحروب الدينية، وملحمة (سان بارتلمي)، وإلغاء مرسوم (نانت)، وإعادة الملكية، وتوطيد حكم (نابليون) … إلخ. فلولا الآراء الشعبية لما استطاع ملك أن يأمر بوقوع مذبحة (سان بارتلمي)، ولما قدر (لويس الرابع عشر) صاحب السلطان المطلق على إلغاء مرسوم (نانت).

ومن غير أن أخوض غمار التفصيل في الموضوع أكتفي بأن أشير إلى أن (لويس الرابع عشر) لم يفعل تلك الفعلة إلا بتأثير الرأي العام، قال (فاغيه): «لا شيء يدل على الشعبية مثل إلغاء مرسوم (نانت)، فهو تدبير أملته السيادة القومية، وهو عمل جارت به الأكثرية على الأقلية، وهو أسلوب ديموقراطي من كل وجه.»

إن أكثر الحوادث التي سعى الجموع في وقوعها هي أشد حوادث التاريخ شؤمًا، ومن حسن الحظ أن البلايا الصادرة عنها قليلة، والفضل في ذلك لصفوة الرجال الذين ضعف نفوذهم الآن، ولكنه كان قبلًا قادرًا في الغالب على تحديد تقلبات العدد وهيجانه.

(٤) زيادة تأثير الجموع الحاضرة في تكوين الآراء ونتائج ذلك

لما كان تأثير سلطان الجموع الزائد أحد العوامل التي لا مناص منها في الحياة الحديثة، فإنه يقتضي أن نعرف كيف نعانيه، وقد سلَّم (باسكال) بذلك حيث قال: «لماذا نتبع الأكثرية؟ ألأنها أكثر عقلًا؟ لا، بل لأنها أعظم قوة.»

وبناء على ما في العدد من قوة، أو على ما أعطي قادةُ العدد من سطوة تعتقد الجماعة التي هي العدد أنها قادرة على فعل كل شيء، وبذلك زاد عدد مصانعيها حتى

أصبح الوزراء والمشترعون عبيدًا لها، وما أضعف رجال السياسة أمام صخب الجموع وهزيزها! فأكثرهم اعتدالًا يذعنون لها وفرائصهم ترتعد فرقًا، ولا يتأخرون — كما لوحظ في بريست — عن التوقيع على بيان لترويج مرشح للبرلمان مجرد عن الوطنية إذ أمرتهم بذلك لجان الانتخاب الساقطة.

على أن تلك العبودية هي الناموس السائد لجميع الأجيال، فمتى طمع شعب في الحرية، أو تقهقر إلى الاستعباد فإنه يجد أساتذة ومحامين يبررون اندفاعاته تبريرًا عقليًّا مهما تكن هذه الاندفاعات خطرة ذات أهوال، واليوم آراء الجموع هي التي تملي على المشترعين أمر سن القوانين، وبما أن الأهواء المؤقتة لا الضرورة هي مصدر القوانين المذكورة فإن عاقبتها القضاء على الحياة الصناعية والاجتماعية والاقتصادية في البلاد، وأما أولو الأمر الإداريون فإنهم يقتصرون على اتباع تقلبات الرأي لشعورهم بالعجز عن تكييفه؛ فيزيدون ضغثًا على إبالة.

يشاهد وقوع ذلك كل يوم، ومن الأمثلة المحزنة في هذا الباب هو اعتصاب الملاحين الأخير الذي كاد يقضي على تجارة بلاد الجزائر، فمنذ إعلان الاعتصاب المذكور أصبحت الجزائر في حالة حصار بحري، وهكذا قُطعت المواصلات بين الجزائر والأقطار الأخرى ثلاثة أشهر سنة ١٩٠٤، وشهرًا واحدًا سنة ١٩٠٧، وشهرين سنة ١٩٠٩، وقد كان يكفي لمعالجة ذلك الحصار أن تعدل الدولة مؤقتًا عن نظام احتكار الملاحة الفرنسوية لبلاد الجزائر، وأن تسمح للمراكب الأجنبية بأن تكون صلة اتجار بين الجزائر وفرنسا لأجل معين، غير أن ميل النواب إلى مداراة النواتي ذوي الحق في الانتخابات النيابية أوجب عدم اكتراثهم لخسارة الجزائر التي تقدر بملايين كثيرة.

فإزاء تلك الطاعة العمياء لأوامر الجموع أصبحت هذه الجموع أكثر تجبرًا من ذي قبل، وبما أن الروادع التي كانت تزجرها قد تحطمت على هذا الشكل فإنها ترغم النواب على سن قوانين لا تلائم قاعدة العدل والإنصاف، ويقتضي الإتيان بشيء من التفصيل لإثبات الكيفية التي تتدرج بها الزواجر الاجتماعية إلى الانفصام بعدما كانت في الماضي تسكن أهواء الجماعات واندفاعاتها.

تشتق روح التمرد في الجموع من المبدأ القائل إن الوعيد والتخريب يكفيان لجعل أصحاب الأمر والنهي يخضعون لها، والحوادث التي تدل على انتحاء تكل الروح كثيرة إلى الغاية، فهذه الحوادث تثبت ما طرأ على المزاج النفسي من تبدل أدى إلى زعزعته مبادئ الحقوق التي كانت تعتبر حصينة منيعة الجانب، وإني أكتفي على سبيل المثال

بذكر قانون كان يظهر عند سَنِّه — أيام اعتصاب موظفي الخطوط الحديدية — أنه متين ذو مقصد إنساني إلا أنه أوجب في نهاية الأمر شللًا مؤقتًا في حياة الأمة.

كانت الشركات تؤدي إلى مستخدميها رواتب تقاعد أعظم مما يناله موظفو الدولة، فإذا اعتبرنا الأرقام التي ذكرت في مجلس النواب ترى أن راتب تقاعد مديري المحطات كان ٣٥٠٠ فرنك مع أن الحد الأعظم لرواتب تقاعد المعدنين ٣٦٠ فرنكًا، ولرواتب معلمي المدارس الابتدائية ١١٠٠ فرنك، ولرواتب أساتذة المدارس الثانوية ١٣٨٥ فرنكًا. ثم قال الخطيب الذي أورد هذه الأرقام: إن راتب تقاعد مستخدمي الخطوط الحديدية ليس مما تجب زيادته.

ولكن لما كان مستخدمو الخطوط الحديدية ذوي شأن في الانتخابات، وتذرعوا بأنواع التهديد على صفحات الجرائد، ظنَّ ممثلو الشعب في البرلمان أنه يسهل تنفيذ مطاليبهم، فاقترعوا لزيادة رواتب تقاعدهم من دخل مساهمي الشركة، وقلما يجرؤ مستبد على اتخاذ هذه الطريقة قائلًا للمساهمين: يحسن بي أن أخفض دخلكم القليل لأزيد رواتب طبقة من المستخدمين أنا في احتياج إليهم، فأطيعوني وأدوا ما أفرضه عليكم.

إن الخطوط الحديدية هي عبارة عن مشاريع خاصة قامت على عقود لا يقدر على نقضها غير العاقدين، ومع أنه كان يقتضي أن يتأمل في هذه الحقيقة مشترعون، لم تعمهم النظرية القائلة إن الدولة التي تمثل الجموع قادرة على فعل كل شيء، لم يظهر في مجلس الشيوخ سوى الموسيو (ريمون بوانكاره) لبيان ما ينتج عن مداخلة البرلمان التي ترمي إلى سلب طبقة من طبقات الأمة في سبيل طبقة أخرى من نتائج سيئة، وما كان هذا السياسي الفاضل واثقًا كثيرًا بصحة كلامه، فبعد أن بيَّن محاذير لائحة الحكومة الخطرة كان من أول المقترعين لها، وبذلك أعان على اختراق حرمة مبادئ الحقوق الجوهرية.

وقد رأى موظفو الخطوط الحديدية في نجاح وعيدهم ما شجعهم على المطالبة بزيادة رواتبهم زيادة عظيمة، فأزمعت الشركات على المقاومة، فنشأ عن ذلك أن أتى أولئك الموظفون باعتصاب أخلَّ بجميع خطوطنا الحديدية.

ولم يكن ذلك كله سوى فاتحة أمور أخرى؛ إذ إن العمال ذوي الرواتب المؤلفة من مائتي أو ثلاثمائة فرنك لم يرضوا طبعًا بهذه الرواتب بعد أن رأوا زملاءهم الموظفين في الخطوط الحديدية سينالون بالعنف رواتب تقاعد مقدارها ألفا أو ثلاثة آلاف فرنك،

وعلى ذلك أخذ معبِّدو الطرق، وعمال دور الصناعة، والمعدنون، ولفافو التبغ، يكثرون من رغباتهم التي طلبوا فيها زيادة رواتب تقاعدهم زيادة نسبية، ولكن ما العمل وقد أعمت المنافع الانتخابية النواب عن إدراك ما ستلده الأيام من أمور مخيفة.

وبالعصيان الجديد الذي وقع في مدن إحدى المديريات، وحدث به نهب وحرائق تجلت زيادة عنف الجموع عندما لا تطاع في الحال، والذي يجعل الجموع تتمادى في سيرها هو نذالة المشترعين الذين يؤيدونها في جميع ما تأمرهم به، وقد غفل المشترعون عن حدود الممكنات والحقائق، فظنوا أنهم يسيرون بنا إلى الرقي والحرية، ولو فكروا في الأمر قليلًا لرأوا أنهم يقودوننا إلى الاستعباد والانحطاط، وما ينشأ عنهما من الاستبداد.

(٥) تأثير الجموع في ثبات بعض العناصر الاجتماعية

إن ما تؤدي إليه الجموع من التخريف لم يكن سوى صفحة من صفحات تأثيرها؛ لأنه يوجد خلف تقلبها الظاهر روح تقليدية ثابتة يصعب تقويضها، وبفضل هذه الروح تعود الجموع إلى حالها الماضية، وما في الروح الشعبية من المحافظة يشاهد على الخصوص في الزمر الاجتماعية الآتية؛ وهي: الطبقات، والمؤتمرات، وطوائف العمال، والنقابات، والمجامع العلمية … إلخ.

وفي الغالب يكون عمل هذه الزمر المتجانسة خلاف عمل الجموع المتباينة التي بحثنا عنها آنفًا؛ إذ لما كانت الزمر المذكورة غير مبدعة ولا مخربة فإنها تعمل في توطيد آراء جديدة تأتي بها صفوة الناس؛ أي في إثبات بعض عناصر الحضارة المهمة، وهي: اللغات، والفنون، والأزياء، والمعتقدات، حتى النظريات العلمية.

إن عمل الفرد على جانب عظيم من الأهمية، ومع ذلك لا تزهر مبتكرات العبقرية التي هي أمر فردي إلا بعد أن تصبح جامعة، فإذا كانت مباحث الفرد هي أساس الحضارة والرقي فإن أمرهما لا يتم إلا بعد أن تستمرئها روح المجموع.

الفصل الثالث

فناء روح الفرد في روح الزمرة

(١) انحلال الجموع الكبيرة وتحولها إلى زمر صغيرة في الوقت الحاضر

بعد أن تخلصت روح الفرد بالتدريج من سلطان الجمع أخذت في الزمن الحاضر تميل إلى الرجوع إلى ما كانت عليه حسب شكل غير منتظر لا على الشكل الذي يتخيله بعض رجال السياسة النظريين القائل بمساواة الناس في المعايش والأموال تحت ظل الحكومة؛ إذ ينمو بجانب نظريات الاشتراكيين زمر صغيرة يختلف بعضها عن بعض رأيًا ومنفعةً، ويسمى انحلال المجتمع وتحوله إلى تلك الزمر التي لا رابطة بينها «الحركة النقابية».

فالنقابية بدلًا من أن تكون كالاشتراكية من أعمال النظريين البعيدين من حقائق الأمور فإنها بنت مقتضيات الاقتصاد المهيمنة، يدل على ذلك شيوعها بأشكال مختلفة بين كثير من الأمم المتباينة بمزاجها النفسي، والفرق بين تلك الأشكال هو أن النقابية تكون في بعض البلدان ثورية، وفي البعض الآخر سلمية.

وينشأ عن تطور الصناعة الذي أوجب تلك الحركة انقسام أوطان الوقت الحاضر الكبيرة على أوطان صغيرة لا تحترم سوى قوانينها الخاصة، مستخفة بقوانين المجتمع العام الذي يضمها، وما بين هذه الزمر الصغيرة المختلفة من اتحاد مؤقت فإنه يمنحها في الغالب قوة كافية لتنفيذ رغباتها.

وتسهل مشاهدة نتائج تلك القوة، ولكن ليس من الهين تحقيق ذلك؛ كون اتحاد الزمر المذكورة لا يبقى زمنًا طويلًا، فمتى ينحل المجتمع القديم انحلالًا تامًّا ويتحول إلى زمر صغيرة فإن ما بين منافع هذه الزمر من تباين يقودها حتمًا إلى تنازع مستمر؛ ذلك لأن كل زمرة متجانسة ذات منافع وآراء واحدة ترى حينئذٍ أنها مضطرة إلى الاصطدام مع زمر أخرى تباينها منفعةً ورأيًا.

ويمكننا أن نستدل منذ الآن على ما بين المنافع المتباينة من التصادم المزمع أن يقع من تاريخ الجمهوريات الإيطالية القديمة؛ ولا سيما جمهورية «سيان» وجمهورية «فلورنسا». كانت نقابات العمال تدير هذه الجمهوريات فنشأ عن اختلافها في المصالح وقوعات ضرجت المدن بالدماء عصورًا كثيرة، ولا تقل إن هذا أمر يخص الماضي البعيد؛ فنواميس الاجتماع العامة ليست عديدة، وهي تجري حكمها على الدوام.

وإذا كان العراك بين الزمر في الوقت الحاضر لا يزال في دور البداءة؛ فذلك لأن السلطة المركزية التي هي على شيء من القوة تردع مزاحمتها، غير أن هذه السلطة أخذت تفقد نفوذها شيئًا فشيئًا، ومتى يتم ضياعها لذلك النفوذ يقع العراك بينها وبين الزمر المذكورة كما حدث في «ناربون»، ثم يقع بين تلك الزمر نفسها كما في «شنبانيا»؛ حيث تقاتلت نقابات مديريتين ذات منافع متباينة قتالًا عنيفًا.

وفي المستقبل سيعيد التاريخ نفسه فتقع غارات وحرائق وملاحم وغيرها من الحوادث التي هي من مظاهر سخط الجموع عندما لا تجاب إلى طلباتها، ولا يكون أمامها رادع يزجرها.

لم نبتعد من مسألة تكوين الآراء والمعتقدات كما قد يتوهم البعض من مطالعة التفصيل السابق، وإلا فكيف ندرك ما في الزمرة من وحدة الآراء من غير أن نبحث عن المؤثرات التي أوجبت وجود تلك الزمرة؟ لقد لقينا صعوبة في تعيين العوامل ذات التأثير الكبير وقتما درسناها في الفصول التي خصصناها للآراء الشخصية، فلا أسهل من تعيينها فيما يتعلق بالزمر المحدودة الكثيرة التجانس كالتي ذكرنا تكوينها آنفًا، فهذه الزمر تتألف بالحقيقة من أفراد ليس لهم سوى آراء بيئتهم الصغيرة، أي زمرتهم المضطرة — كي تحافظ على قوتها — إلى عدم الإغضاء عن أية مخالفة في الرأي تبدو من أحد أفرادها.

وستصبح مسألة تكوين الآراء والمعتقدات أقل سهولة عندما لا تسمح الجماعة التي ينتسب إليها المرء بأن يكون عنده رأي غير رأيها، وعندئذ تضيق حرية الفكر حتى تصير أمرًا مستحيلًا، فلتقع مجتمعات المستقبل تحت حكم الاشتراكية أو النقابية أو في ربقة المستبدين الذين يؤدي هذان المذهبان إلى ظهورهم حتمًا؛ لترى كيف يستولي عليها استعباد نفسي عظيم.

(٢) كيف تخلصت روح الفرد من روح الزمرة وكيف تعود إليها؟

يؤدي التطور الحديث — كما بيَّنا — إلى تحويل المجتمعات إلى زمر صغيرة مختلفة لكل منها مشاعر وأفكار وآراء مشتركة، أي روح واحدة، ولا فائدة من البحث عن قيمة هذا التطور؛ لأن العقل لا يبدل سير الأمور، ولكن إذا لم ندرس قيمة الحوادث فإنه لا بأس في شرحها.

يسهل علينا أن نثبت أن اندغام روح الأفراد في روح الجمع هو كناية عن عودة إلى صفحات التاريخ الأولى التي لا نزال نشاهد مثلها عند الشعوب الفطرية المتأخرة، فهذه الشعوب تتألف من جماعات صغيرة تدعى قبائل تتقاتل في الغالب، وشأن الفرد في القبائل المذكورة ضعيف جدًّا؛ لأن روح الفرد لم تتحرر فيها من روح المجموع، وهذا هو السبب في كون أفراد القبيلة جميعهم مسؤولين عن عمل أحدهم.

إن معرفة هذا الأمر ضرورية لإدراك حقوق من هم على الفطرة، أو الشعوب المتأخرة كالشعب الأنامي مثلًا، فقد لاحظ الموسيو (بول جيران) حاكم الهند الصينية أن القضاة الأوروبيين لا يفقهون حقوق تلك البلاد — على ما يظهر — لاعتبارهم فاعل الجرم وحده هو المسؤول، وهم يعدون المبدأ القائل بعقاب رجل على فعل لم يقترفه أمرًا همجيًّا مخالفًا للآداب والذوق.

والواقع أن المبدأ المذكور لم يكن مضادًا للطبيعة عند الأناميين الذين كثيرًا ما يعدمون رجالًا ينتسبون إلى قبيلة القاتل، وإن لم يشترك هؤلاء الرجال في جريمة القتل، ولماذا يقع ذلك؟ يحدث ذلك للسبب النفسي المذكور آنفًا، والقائل إنه لما كان أفراد أحد الزمر الاجتماعية غير مختلفين فإنه ليس عندهم سوى روح زمرتهم الجامعة، وهذا مبدأ عام لتطبيقه على الشعوب كلها في أوائل أدوارها.

الحقوق الأولى لا تفرق بين شخصية الفرد وبين زمرته، ولذلك تعاقب الزمرة جميعها، أو أي قسم منها، وكيف تقرر القوانين خلاف ذلك وهي بنت العادة؟ إن المحكوم عليه لا يحتج على مثل تلك الحقوق التي وإن كانت ظالمة جائرة في نظر المتمدن إلا أنها عادلة منصفة عند رجل يشعر بارتباطه بإحدى الزمر ارتباطًا وثيقًا، لا يعتقد به إمكان فصله عنها، والأوروبيون أنفسهم يُرجعون أيام الحرب إلى تلك الحقوق الفطرية حينما يرمون الرجال المرهونين بالرصاص، مستندين إلى مبدأ المسؤولية المشتركة، ويلوح لنا أنهم لا بد من أن يعودوا إلى المبدأ المذكور على وجه أعم إذا استمرت المجتمعات الحاضرة على الانقسام إلى زمر كما بيَّنا سابقًا.

وما في أفراد القبيلة الواحدة من عدم اختلاف في الروح يشاهد مثله في الجسم، وقد أثبتُّ بمباحثي الكثيرة في ألوف من الجماجم أن تجانس الأمة من الوجهة التشريحية يكون عظيمًا بنسبة تقهقرنا إلى أصلها، وأن الأمة كلما تقدمت اختلفت جماجم أبنائها أكثر منها في الماضي. وهذا ما يقارب أخبار السياح الذين يبينون أن أفراد القبيلة المتوحشة يتشابهون تشابهًا موجبًا للحيرة، حتى إنه يصعب التفريق بين الجنسين فيهم.

وعند الأمم المتمدنة ما عند الفطريين من روح جامعة، غير أن الأرواح الفردية تجعل تأثيرها محدودًا، فالروح الأولى هي التي سميناها روح العرق، وتظهر هذه الروح على الخصوص في الأحوال العظيمة ذات العلاقة بمصير الشعب كله، وأما الروح الثانية فتتجلى بالعكس في أدق أحوال الحياة اليومية المعتادة، والتراصف المذكور للروح الفردية على الروح الجامعة هو — كما بيَّنت سابقًا — عبارة عن حادثة نشاهد مثلها في جميع ذوات الحياة التي يشتمل كل نوع منها على صفات خاصة غير الصفات العامة للجنس الذي تنتمي إليه.

ولا نبحث هنا عن المساعي العظيمة التي بُذلت على مر الأجيال لتحرير روح الفرد بالتدريج من روح المجموع التي لا مناص للمصلحة الاجتماعية من أن تحافظ عليها بفعل المعتقدات الدينية، والبيئة، والعادات، والتقاليد، والقوانين، فإيضاح سلسلة تلك الجهود هو تدوين صحائف التاريخ جميعها، ويعلمنا مثل ذلك البحث أن عدد الرجال الذين استطاعوا بتعاقب الأزمنة أن يتخلصوا من نير روح المجموع قليل إلى الغاية، وأن البشر مدين لهؤلاء الرجال بما في المجتمع من مبتكرات هي سر ارتقائه، وأن المجتمعات التي كانوا سر حياتها قامت ضدهم على الدوام، وأنه إذا نظر إليهم أحيانًا بعين التسامح فذلك لوقت معلوم، ويمكننا أن نعد مناحي الاشتراكية والنقابية في الزمن الحاضر عناوين جديدة لمجهودات المجتمعات في سبيل توحيد الرجال وجعلهم ذوي آراء ومعتقدات وحركات واحدة.

وأهم الحادثات التي أشرنا إليها في هذا الفصل هي شروع المجتمعات الحاضرة في التحول إلى زمر صغيرة مستقلة متشاكسة متشاحنة، تسعى كل منها في الانفراد حتى تخسر الأمم وحدتها، وأن روح الفرد التي عملت قرونًا كثيرةً لتنفلت قليلًا من روح المجموع تعود إليها في أيامنا.

إذن نشاهد الآن ميل الشعوب المتمدنة إلى التقهقر نحو مزاج نفسي منحط كالذي كان سائدًا للأجيال الأولى، وسوف تكون منازعات المستقبل الكبيرة بين زمر الأمة الواحدة

أكثر منها بين أمم مختلفة. نعم، إن فناء روح الفرد في روح الزمرة يمنح هذه الزمرة قوة لا ريب فيها، ولكن ذلك لا يؤدي إلى رقي في المجتمع أو الأفراد، فالرجل لا يكون قديرًا ذا نفوذ إلا إذا تحرر من ربقة روح المجموع.

الباب السابع

انتشار الآراء والمعتقدات

الفصل الأول

التوكيد والتكرار والمثال والنفوذ

(١) التوكيد والتكرار

بحثت عن شأن العوامل التي درجتها في هذا الفصل في كثير من مؤلفاتي؛ ولذا أكتفي الآن بتلخيص تأثيرها:

إن التوكيد والتكرار عاملان قويان في تكوين الآراء وانتشارها، وإليهما تستند التربية في كثير من المسائل، وبهما يستعين رجال السياسة والزعماء كل يوم في خطبهم، ولا يحتاج التوكيد إلى دليل عقلي يدعمه، وإنما يقتضي أن يكون وجيزًا حماسيًّا ذا وقع في النفس، ويمكننا أن نعد البيان الآتي الذي نشر في الصحف نموذجًا لهذه الصفات الثلاث:

> من ينتج القمح؛ أي الخبز الذي نحتاج إليه؟ هو الفلاح! ومن يزرع الجلبان والشعير والحبوب كلها؟ هو الفلاح! ومن يربي المواشي والأنعام ذات اللحوم الطرية؟ هو الفلاح! ومن يربي الضأن للحصول على أصوافها؟ هو الفلاح! ومن ينتج الخمر والنبيذ؟ هو الفلاح! ومن يطعم الطرائد؟ هو الفلاح!
>
> ولكن من يأكل أطيب الخبز وأطرى اللحوم؟ ومن يلبس أفخر الثياب؟ ومن يشرب خمر «بوردو» و«الشمبانيا»؟ ومن ينتفع بالطريدة؟ هو ابن الطبقة العليا الثرية!
>
> ومن يتسلى ويستريح كما يريد؟ ومن يتمتع بأطايب النعم؟ ومن يسيح للنزهة؟ ومن يتفيأ في الصيف ويتدفأ في الشتاء؟ هو ابن الطبقة العليا الثرية!
>
> ومن يأكل طعامًا غير شهيٍّ؟ ومن يندر شربه للخمر؟ ومن يشتغل بدون انقطاع؟ ومن يكابد حَمارَّة الصيف، وصَبارَّة الشتاء؟ ومن هو شديد البؤس كثير الشقاء؟ هو الفلاح!

والتوكيد لا يلبث بعد أن يُكرَّر تكرارًا كافيًا أن يحدث رأيًا ثم معتقدًا، والتكرار هو تتمة التوكيد الضرورية، ومن يكرر لفظًا أو فكرًا أو صيغةً تكريرًا متتابعًا يحوله إلى معتقد، وإذا نظرنا إلى سلسلة الرجال التي تبتدئ بمؤسس الديانة لتنتهي بتاجر السلع رأينا أنها تستعين بمبدأ التكرار على إقناع الناس.

والتكرار من القوة بحيث يجعل الرجل يؤمن بالكلمات التي يكررها، ويسلِّم بالأفكار التي يعرب عنها عادةً، فلما رجا مجلس الشيوخ أن يهيئ (بومبي) الكبيرُ الأسبابَ اللازمة للدفاع عن الجمهورية قال هذا الأخير مكررًا: «إن (يوليوس قيصر) لا يهاجم روما.» والاعتقاد الذي أوجبه هذا التكرار في نفسه منعه من الالتجاء إلى التدابير التي يمكنه أن يحمي بها روما وينقذ رأسه من القطع ولو لأجل معلوم.

والتاريخ السياسي حافل بالعقائد التي نشأت عن التكرار على الوجه المذكور؛ فقد كان قادتنا وأولو الأمر منا قبل سنة ١٨٧٠ يقولون مكررين: «إن الجيوش الألمانية هي دون جيوشنا قوة.» وبفعل هذا التكرار اعتقدوا صحة ذلك اعتقادًا جازمًا، وكلٌّ يعلم ماذا كانت عاقبة الاعتقاد المذكور. ولا يلبث الرجل السياسي بعد إقباله على آراء مفيدة له أن يعتنقها بتأثير نضاله عنها حتى يصبح غير قادر على تبديلها عندما تقتضي منفعته ذلك التبديل.

(٢) المثال

المثال هو أحد وجوه التلقين الفعالة، ولكن يجب أن يكون ذا وقع في النفوس ليكون مؤثرًا، ففي عالم التربية نرى أن مثالًا بارزًا خير من مئات من الأمثلة الضعيفة التي لا تنفذ القلوب، وقد أتيح لي أن أحقق هذا المبدأ عندما روَّضت خيلًا شوامس؛ إذ رأيت أن نكزها بالمهماز مرة واحدة أشد فعلًا من ضربها مرات عديدة ضربًا خفيفًا.

وقد تجلى تأثير الأمثلة البارزة التي تقرع المخيلة في تمرينات الجيش الكبيرة التي تمت سنة ١٩١٠، فقد كررت الطيارات حركاتها العادية دون أن تضيف إليها شيئًا آخر سوى حمل البرقيات، بيد أن هذه الفائدة المفترضة أيام الحرب جعلت الحكومة تعزم على تكوين فرقة للطيران، وأوجبت أن يعلن وزير الحربية أن الطيران هو سلاح جديد تقتضي إضافته إلى المشاة والمدفعية والخيالة.

وفي عالم السياسة نرى أن تأثير المثال في تكوين الآراء وانتشارها أمر قاطع، فقد أدى نجاح بعض مرشحي الاشتراكية لعضوية البرلمان إلى اعتناق كثير من الأساتذة الشبان لأشد مبادئ ذلك المذهب ضررًا، وقد بيَّن الموسيو (بوردو) ذلك في العبارة الآتية:

> بينما نرى في ألمانيا شبيبة الجامعة، وشبيبة الطبقة الوسطى الراقية تبتعد من الاشتراكية بعد أن دنت منها، وتعود إلى حظيرة المشاعر القومية المتطرفة نشاهد الاشتراكية في فرنسا تثابر بالعكس على جميع جنودها من أساتذة الفلسفة وخريجي دار المعلمين فنازلًا.

(٣) النفوذ

تبحث رسائل المنطق بحثًا دقيقًا عن العناصر التي يتكوَّن منها الحكم، ومع ذلك سهت عن العدوى والنفوذ، والعدوى والنفوذ هما الناظمان لأكثر آرائنا.

سأبحث عن العدوى النفسية في فصل آتٍ، وهنا أدرس النفوس درسًا موجزًا؛ لأني قتلته تمحيصًا في كتب أخرى.

في المدارس يتعلم الطلاب أن التجربة والاختبار حلَّا مكان النفوذ، ولكنه يسهل إثبات خطل هذا الزعم: فلو نظرنا إلى الآراء العلمية — دون أن نلتفت إلى الآراء الدينية والسياسية والخلقية، حيث لا شأن للدليل فيها — لراينا أنها في الغالب لا تمثل سوى نفوذ قائلها، وأنها تنتشر بالعدوى، ولا يكون الأمر خلاف ذلك؛ إذ لمَّا كان أكثر التجارب والاختبارات العلمية من التعقيد بحيث يصعب تكرارها، فإنه يُسَلَّم بكلام العالم الذي يشرحها، ولذلك يحق لنا أن نقول: إن نفوذ الأستاذ في الوقت الحاضر هو كما في زمن (أريسطوطاليس)، ويزداد هذا النفوذ كلما أصبح الاختصاص العلمي أعظم منه في الماضي.

ولكون النفوذ أساس أكثر الآراء التي تلقيها التربية في الذهن فإننا نتدرب على اعتقاد رأي يبديه عالم ذو نفوذ بسهولة. أجل إننا قد نأتي بأحكام هي على جانب من الإصابة في مواضيع مهنتنا، وأما المسائل الأخرى التي يأتي بها رجل نافذ فإننا نفضل أن نسلِّم بها تسليمًا أعمى على إعمال الفكر فيها مباشرةً.

ويتوقف مصير أقطاب السياسة، وأرباب الأعمال، والمتفننين، والكتَّاب، والعلماء، على ما فيهم من نفوذ خاص وقدرة على تلقين الناس تلقينًا غير شعوري، وقد ينجح

الأبله أحيانًا في نشر رأيه؛ لأنه لما كان غير شاعر ببلهه لا يتردد في توكيد رأيه، ويصبح بذلك ذا نفوذ.

وسنثبت بأمثلة بارزة — عندما نعود إلى هذا الموضوع في الباب الذي خصصناه للبحث عن المعتقدات بحثًا تجريبيًّا — أن النفوذ هو في الغالب أحد العوامل التي تجعل العالِم النِّحرير معتقدًا. وللنفوذ الذي هو موجد الآراء وسيد العزائم قوة أدبية تعلو القوى المادية، فلما عاد (نابليون) وحده من جزيرة «إلب» افتتح بنفوذه جميع فرنسا في بضعة أيام، وقد خرست أمام إكليل مجده مدافع الملك، وتشتت شمل جيوشه، وقد كان نفوذ (نابليون) عظيمًا حتى إنه أثَّر في أعدائه، فبدلًا من أن تمقت (ماري كارولين) — زوجة أمير من عائلة البوربون المالكة — ذلك العدو الرهيب عدَّته إلهًا، وإليك ما جاء في إحدى رسائلها:

> إن (بونابارت) هو أعظم رجل أظهرته العصور، فأعجب به من رجل قوي ذي نجدة ومروءة ونشاط وعبقرية لا تبارى! ويا سعادة الأمة التي يوجد على رأسها ملك مثله! ولذلك تراني على ما فيَّ من كره للنظام الجمهوري، وحب لتقويض دعائمه أرجو بقاء (بونابارت).

وقد كان شأن النفوذ في شوكة الملوك عظيمًا إلى الغاية، حتى إن (باسكال) قال: «يجب على المرء أن يكون ذا عقل نقي خالص لكي ينظر إلى ملكه — وهو في قصره الذي يحرسه أربعون ألف جندي — كما ينظر إلى بقية الناس.» وفي الجيل الحاضر الذي هو جيل المساواة نرى نفوذ الملوك لا يزال محافظًا على شأنه، فيجمل بالملوك أن يحافظوا عليه بحكمة.

كتب الموسيو (نوزيار) مراسل إحدى الصحف المهمة: «إن جميع من حضروا جنازة ملك إنكلترا قد عجبوا من تأثير إمبراطور ألمانيا في الجميع حينما كان يمشي في وسط الملوك، حقًّا إن (غليوم) يكتسب باعتقاده أنه ظِلُّ الله في الأرض عظمة غريبة تدهش الناس.»

والجماعات — نظرًا لاحتياجها إلى العبادة — لا تلبث أن تعبد أشخاصًا يؤثرون فيها بنفوذهم، والزعيم لا يحافظ على نفوذه بالتملق لها، فهي وإن كانت تبحث عن مداهنين لها إلا أنها سرعان ما تحتقر من يتملقها.

ومع أن النظام العسكري يقوم على نفوذ الضباط فإن جهل روح الجماعات أدى إلى ترك هذا المبدأ؛ إذ قد أمر الضباط بأن يعاملوا الجنود كإخوة، وأن يبذروا فيهم حب

الطاعة بقوة الحجة والبرهان. يرضى ابن الطبقة الدنيا مختارًا بمثل هذا المبدأ، ولكنه يحتقر ضباطه الذين يطبقونه كثيرًا. وماذا يكون مصير الجيش بعد أن يخسر هؤلاء نفوذهم؟

وينشأ بعض الفوضى الحاضرة عن كون رخاوة الطبقات القائدة قد جردتها من نفوذها، وما مصير الملوك، والشعوب، والأفراد، والنظم، وكل عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية سوى الاضمحلال عندما لا يبقى لهم نفوذ يؤثرون به.

يمكننا أن نلخص تأثير الأسباب في انتشار الآراء والمعتقدات التي ذكرناها في هذا الفصل بالكلمات الآتية؛ وهي: «لا رأي، أو لا معتقد يظهر بلا نفوذ»، و«لا رأي، أو لا معتقد يسيطر بلا توكيد»، و«لا رأي، أو لا معتقد يبقى بلا مثال ولا تكرار».

الفصل الثاني

العدوى النفسية

(١) أشكال العدوى النفسية

العدوى النفسية هي أمر روحي ينشأ عنه التسليم ببعض الآراء والمعتقدات تسليمًا غير إرادي، ومصدرها دائرة اللاشعور؛ ولذلك لا يؤثر فيها أي دليل أو تأمل، وتشاهد في البشر والحيوانات؛ ولا سيما عندما يكونون في حالة جماعة، وهي من التأثير بحيث تسيطر على التاريخ.

حقًّا إن العدوى النفسية هي العنصر الأساسي في انتشار الآراء والمعتقدات، وقد تبلغ بقوتها مبلغًا يجعل الإنسان يضحي بأكثر منافعه الشخصية وضوحًا، يؤيد ذلك أخبار الشهداء، والمنتحرين، والجُذْع … إلخ، الذين لم يأتوا بما أتوا به إلا بفعل العدوى النفسية.

وقد تكون مظاهر الحياة النفسية جميعها سارية، ولكن الانفعالات هي التي تنتشر بالعدوى على الخصوص، وتستطيع الإرادة في الأحوال العادية أن تحدد تأثيرها، غير أن ظهور إحدى العلل — كتحول البيئة أيام الثورة تحولًا عنيفًا، وتحريض الشعب … إلخ — المبطلة لعمل الإرادة تجعل حكم العدوى يجري بسهولة محوِّلًا ذوي الميول السلمية إلى رجال أشداء محاربين، وأبناء الطبقة الوسطى الودعاء إلى أشياع متعصبين، وبتأثير العدوى أيضًا يغيِّر هؤلاء أحزابهم؛ فيأتون لإخماد الثورة بنشاط كالذي أوقدوا به نيرانها.

ولا تسري العدوى بتماس الأفراد تماسًّا مباشرًا، بل قد تنتشر بالكتب، والجرائد، والحوادث البرقية، حتى بالشائعات البسيطة، وكلما زادت وسائل النشر والإذاعة تداخلت العزائم وأثَّر بعضها في بعض، على هذا الوجه نرتبط كل يوم بمن يحيطون بنا أكثر من ذي قبل، وتكتسب النفسية الفردية شكلًا جامعًا.

وإني أعد الزمرة الاجتماعية التي ننتسب إليها أقوى أشكال العدوى النفسية تأثيرًا؛ إذ لا تقدر أية إرادة على التخلص منها، فهي تملي في الغالب آراءنا وأحكامنا من حيث لا ندري.

(٢) أمثلة مختلفة على العدوى النفسية

المشاعر خيرًا كانت أم شرًّا تنتشر بالعدوى، فلذا نرى الوسط ذا تأثير عظيم في التربية، ولقد أصاب من قال:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه　　فكل قرين بالمقارن يقتدي

وبتأثير العدوى النفسية تأسست جماعة مجرمة كبيرة من الشبان الذين طُردوا من المصانع، فلما أعيت هؤلاء الحيل في بدء الأمر، ولم يكن لهم عمل سوى الجولان في الأسواق، اختلطوا بزملاء يسرقون من معارض السلع ما يسهل نشله فقلدوهم، وقد كثرت أهمية هذه الأسلاب بالتدريج، فتشكلت جمعيات تشبه العصابات في غايتها، وهكذا لا يلبث الجوَّال أن يتخذ اللصوصية مهنة فيعرِّض نفسه للسجن، وقد يبلغ رضاه بمصيره الذي هو ابن العدوى مبلغًا لا تنفع معه أشد الزواجر.

وتنشأ العدوى الجارمة أيضًا عما تنشره الصحف من حوادث القتل المحركة للمشاعر، فقد كان لـ (چاك) باقر البطون كثير من المقلدين في مدن إنكلترا.

والحوادث التي تدل على العدوى النفسية غير محتاجة إلى إيضاح، غير أن القرار المشهور الذي قرره مجلس الوزراء، والقائل بإدخال الرعاع في سلك الجندية، يدلنا على مقدار جهل الحكومات لأمر تلك العدوى.

والخوف هو أشد المشاعر سريانًا بالعدوى، وليس شأنه الكبير في حياة الأفراد والشعوب بالأمر المجهول، فهو وإن لم يكفِ لإيجاد الآلهة — كما قال (لوكريس) — فإن تأثيره بادٍ في تكوينها، وهو لمحافظته على نفوذه الذي كان له في بدء التاريخ يوجب الهزيمة في الحروب، وكثيرًا ما يدفع المرء إلى الانتحار، فالرعب الذي أحدثه النجم المذنَّب الأخير الذي قيل إنه سيصدم الأرض جعل بعض الناس ينتحرون، والخوف لا يُسيِّر الأفراد والجماعات فقط، بل يسيِّر رجال السياسة أيضًا، وقد أثبتُّ في كتابي المسمى «روح السياسة» أن الخوف هو علة كثير من القوانين التي سُنَّت منذ عشرين سنة،

والتي لا تزال تأتي بنتائج مشؤومة، ويمكننا أن نقول: إن شبح الخوف في أيام الفتن هو الذي يتسلط على المجالس السياسة، فيملي عليها آراءها وانتحاءها، وعنه صدرت أشد تدابير دور العهد قسوة، وبتأثيره كان (كاريه) يقتل ضحاياه شر قتل، وكان (فوكيه تنڤيل) يرسل المتهمين إلى المقصلة زرافات ووحدانًا.

وأكثر الانفعالات تنتشر كالخوف بالعدوى، ويعرف أعاظم الخطباء ذلك، فليس سبب اقتراع مجلس النواب لإسقاط وزارة (كليمانسو) سوى انفعال نفسي أحدثه أحد خطباء المعارضين في النواب بفعل العدوى، وكذلك حركات الرجل وبيانه وأوضاع وجهه ذات تأثير في المخاطب بالعدوى، فمن الحكمة أن يكون الرجل ذا وجه طليق عند الاستعطاف بدلًا من أن يقطب؛ إذ إنه بعدوى ذلك يستميل في الغالب مخاطبه ويكسب عطفه.

(٣) سلطان العدوى النفسية

العدوى النفسية أمر عام يشاهد في الحيوان كما في الإنسان، ولذلك لا تلبث الرعشة التي تستحوذ على حصان الإصطبل أن تسري إلى الأحصنة الأخرى، ولا تلبث الكلاب أن تنبح بعد أن ينبح أحدها، وعندما يهرب الضائن تتبعه بقية الضأن.

وقد تشتد قوة العدوى النفسية فتتغلب على غريزة المحافظة، وتدفع الإنسان إلى التضحية بنفسه، ومن هذا القبيل قصة الخمسة عشر كسيحًا الذين شنقوا أنفسهم بكلاب واحد، وقصة الجنود الذين انتحروا في كوخ واحد، وحوادث مثل هذه كثيرة جدًّا، فهاك ما قاله الدكتور (ناص): «وقتما تنشر الصحف خبر انتحار عاطفي مفصِّلة طريقة حدوثه ينتحر بعض مختلي الشعور حسب تلك الطريقة، ومن هذا النوع ما وقع في اليوم الثاني من حادثة (سيڤتون)؛ حيث خنق كثير من المختلين أنفسهم بالغاز. ونعد روسيا أكثر البلاد التي انتحر الناس فيها، فقد كان الرسل في روسيا أيام الاضطهادات الدينية يأمرون أشياعهم بحرق أنفسهم، وقد حدث أن ألقى ستمائة شخص أنفسهم في النار دفعة واحدة، وعند أحد مؤرخي الأديان الروسية أن عدد الذين حرقوا أنفسهم في روسيا منذ سنة ١٦٧٥ حتى سنة ١٦٩١ عشرون ألف شخص. ومما ذكره الموسيو (ستوكين) أن ٢٥٠٠ شخص روسي طرحوا أنفسهم في موقد واحد طامعين في الآخرة.»

وقد ينشأ عن العدوى النفسية وهمٌ خيالي لا يلبث أن يتحول إلى حقيقة، فقد جاء في تقرير حديث للدكتور (بيكيه) أحد علماء الجراحة أنه على أثر موت ضابط بالزائدة

الدودية لزم الفراش ١٥ ضابطًا من بين ضباط إحدى الكتائب البالغ عددهم خمسة وعشرين؛ لظهور علائم المرض المذكور فيهم، وما عوفي هؤلاء المصابون إلا بالتلقين فقط.

(٤) شأن العدوى في انتشار المعتقدات الدينية والسياسية

نستدل على شأن العدوى النفسية في انتشار الآراء والمعتقدات من الملاحظات السابقة، فالمعتقدات سياسية كانت أم دينية تسري بين الجماعات بالعدوى على الخصوص، وعلى نسبة أفراد الجماعة يكون تأثير العدوى شديدًا، ولا يلبث المعتقد الضعيف أن يصبح قويًّا بعد أن يكتسب الأفراد الذين يعتنقونه صفة الجماعة.

والمعتقد بعد أن ينتشر بالعدوى لا يلتفت إلى قيمته العقلية؛ إذ لَمَّا كانت العدوى تؤثر في دائرة اللاشعور فإنه لا شأن للعقل فيها، وفي الغالب تكون العدوى ذات تأثير فيمن هم أرفع من الجماعة؛ ولذلك يجب ألا نعجب من وجود علماء يدافعون عن أكثر المعتقدات شؤمًا ومخالفة للصواب، وما أكثر الرجال الذين هم كمدير العرائض الذي ناضل في مجلس شورى الدولة عن اعتصابات الموظفين أيام كان اعتصاب موظفي البريد يهدد كيان فرنسا!

وبالعدوى النفسية يعاني أرباب المال والقلم والعلم آراء الجموع، ومن أجل ذلك نرى العدوى قادرة على استعباد الذكاء، وكما في انتقال الأمراض الجثمانية لا يستطيع أن يقاوم العدوى النفسية سوى أولي القوة والبسطة، وقليلٌ ما هم.

وقد نشأت حوادث الدين التاريخية عن العدوى النفسية، ومع ذلك لم يكن تأثيرها في أحد الأزمنة الماضية كما هو في الوقت الحاضر، وسببه: أولًا: أن السلطة أخذت تنتقل بالتدريج إلى الجماعات بفعل المبادئ الديموقراطية، وثانيًا: أن تعميم وسائل النشر يؤدي إلى سرعة ذيوع الحركات الشعبية، وما من أحد يجهل كيفية انتشار اعتصابات موظفي البريد والثورات التي اشتعلت في روسيا وتركيا والبرتغال.

والحكومات الضعيفة تكون عاجزة أمام سلطان العدوى، ولم يقتصر الأمر على إذعان الحكومات لكل ما تأمرها به الجماعات، بل سرعان ما تُدعم هذه الأوامر من قبل كتائب من المتعلمين جعلتهم العدوى يعتبرون عدلًا ما فيها من ظلم وإجحاف، على هذا الوجه أصبحت أهواء الجموع الطائشة في نظر تلك الكتائب مبادئ جديرة بالاحترام، كما كانت رغائب الملوك في الماضي مقدسة عند بطائنهم.

والآراء التي انتشرت بتأثير العدوى لا تزول إلا بآراء مخالفة تنتشر بالعدوى أيضًا، إلى هذه القاعدة النفسية يلتجئ رجال السياسة فيفلُّون العدوى بالعدوى، ولكن بما أن البحث في هذه النقطة يبعدنا من الموضوع فإننا لا نطنب فيه الآن.

الفصل الثالث

الطراز

(١) تأثير الطراز في عناصر الحياة الاجتماعية

ينشأ عن تقلب الإحساس والشعور بتقلب البيئة والحاجات والتقاليد روحٌ عامة تتبدل بتبدل الأجيال، وكثيرًا ما تتغير الروح المذكورة في غضون الجيل الواحد، وهذه الروح التي تنتشر على عجل بفعل العدوى النفسية تسمى «طرازًا».

فالطراز هو أحد العوامل القوية في شيوع أكثر عناصر الحياة الاجتماعية، ومنها آراؤنا ومعتقداتنا، ولم يمتد سلطانه إلى اللباس وحده، بل تناول فن التمثيل، والآداب، والسياسة، والفنون الجميلة، حتى الأفكار العلمية، وهذا هو العلة في أن تشاهد بعض الآثار أصدق لسان يعبر عن حال أحد الأدوار.

ولما كان الطراز يؤثر تأثيرًا غير شعوري فإننا نعانيه من حيث لا ندري، ولا تقدر أكثر النفوس استقلالًا على التخلص من حكمه، فالمتفننون والكتَّاب الذين يأتون بأثر ليس عليه مسحة من أفكار الوقت هم أندر من الكبريت الأحمر.

وأحيانًا يجعلنا الطراز — بما له من النفوذ — نعجب من أشياء لا نلبث أن نستبشعها بعد بضع سنوات، وقلما يكون الأثر الفني ذاته ذا وقع في النفس، وإنما تشتق قيمته مما يحوم حوله من أفكار فيتحول بتحولها، وفي الغالب يفرض الطراز أمورًا يبعد تصديقها كإيجاد لغة أو إصلاح كتابة. خذ لغة «الفولابوك» التي ظهرت سنة ١٨٨٠ مثالًا تَرَ أن الطراز قد يسَّر لها نجاحًا باهرًا؛ لأنه تأسس في عشر سنوات ٢٨٠ ناديًا، و٢٥ جريدة لنشرها، ثم تبدل الطراز فصرنا اليوم لا نكاد نجد رجلًا يعرف «الفولابوك»، وقد قامت لغة «الإسبرانتو» مقام «الفولابوك» فلقيت مثلما لقيته هذه من النجاح، إلا أنها أخذت في هذه الأيام تفسح المجال للغة أخرى تسمى «الإيدو»،

ولا ريب في أننا سنستمر على إيجاد لغات مصنوعة حتى نعلم أن تكوين اللغات هو أمر إجماعي لا يتم إلا ببطء؛ أي يقع ابتداءً بصنع أحد الناس.

ولكون تقلبات الطراز تتناول جميع المواضيع، ولكون ما فينا من شعور وإحساس يتغير بفعل كثير من المؤثرات، يمكننا القول: إن الشكل الذي نفكر حسبه، ونعرب به عن مشاعرنا يتحول تحولًا سريعًا.

والعاطفة التي هي مصدر الطراز لم تتخلص من عناصر العقل، وهذا يتضح عند البحث في زي النساء الذي هو أكثر مظاهر الطراز تقلبًا في الظاهر؛ إذ نرى حينئذ أن دائرة التقلب المذكور محدودة إلى الغاية.

(٢) قواعد الطراز: الطراز مزيج من عناصر عاطفية وعناصر عقلية

إذا كان الطراز عنوان العاطفة فإن العقل هو الذي يعيِّن وجهته، ومن هذين المصدرين يشتق طراز الآداب، والفنون، والعمارة، والأثاث، واللباس، وغيره من الأشياء، ويتضح هذا الاشتقاق عند البحث في الأزياء النسائية ذات التقلب الكبير.

إن ما في زي النساء من عناصر عقلية ناشئ عن مقتضيات الاقتصاد، والمخترعات، والحاجات الحديثة، وحكم الوقت ... إلخ، وتلاحظ هذه المؤثرات في تبدل الأزياء الذي أوجبه استعمال السيارات، فقد اضطرت المرأة في دورنا القائم على مبدأ السرعة إلى مجاراة الرجل في غدوِّه ورواحه في الشوارع الكبيرة، فعمَّ لذلك الزي المشذب — الذي كان يخص بعض الألعاب الرياضية — مع قليل من التعديل، وأما الأثواب الأخرى فقد ضُيِّقت فيها أكمام الدرع لتنساب في الجزر بسهولة، غير أن ذلك جعل نصف المرأة الفوقاني الذي حُرج على هذا الوجه غير مستظرف، ومن أجله نُقص اتساع البذلة التحتاني، وأُلغيَ الجيبان كي تبدو مُكتَّفة، ثم إن المرأة طمعًا في إيقاظ شهوة الناظرين لم تألُ جهدًا في جعل بذلتها تلاصق جسمها ملاصقة تامة، مبدية من وجودها ما يمكن الرجل أن يستدل به على ما بقي.

ولا اعتراض على النساء اللواتي يقطن المدن إذا لبسن ألبسة حريرية خفيفة أيام الشتاء بعد أن عمَّ تدفئة البيوت بالبخار ذي الحرارة المرتفعة، والمرأة المتسربلة بالحرير تنال في ذلك الفصل ما تحتاج إليه من الحرارة من عباءة الفرو حينما لا تكون في بيتها.

تلك هي العناصر العقلية التي تؤثر في تكوين الزي، فلنتكلم الآن عن العناصر العاطفية ذات الشأن في ذلك التكوين: نقول قبل كل شيء: إن الزي هو كاللغات والأديان

من عمل المجموع لا من عمل الفرد؛ ولذلك يتعذر على أي رجل أن يوجبه على الآخرين، والناس يظنون أن الخياطين والممثلين وعارضي الألبسة هم الذين يوجدون الزي بوجه عام. نعم إنهم مخطئون في ظنهم؛ لأن الواقع يدل على أن هؤلاء لا يفعلون بالحقيقة سوى التعبير عن مناجي الناس وميولهم التي هي نتيجة بعض الحاجات والأفكار والأحوال.

والأزياء — وإن كانت تختلف من فصل إلى آخر — لا يتحقق الأمل في تبديلها إلا ضمن دائرة محدودة. أجل، إن الزي لا يروق النفس إلا إذا استوقف النظر، ولكن لا يتم نجاحه إلا إذا لم يبتعد من الزي الذي تقدمه، وهذا ما يوضح لنا السبب في كون الزي المبتكر من كل وجه لا يدوم طويلًا، ولا يستقيم أمر الزي إلا بالتدريج، فالجلاليب الواسعة التي كان النساء يستعملنها منذ ثلاثين سنة لم تتحول إلى حلل ضيقة ملاصقة للجسم إلا شيئًا فشيئًا.

والزي ذو سلطان كبير، فهو الذي يجعل المرأة تصطبر على أشد الكُلَف، كأن تمسك ثوبها بيدها؛ خوفًا من أن تجرر ذيله، وأن تحمل بيدها الثانية كيسًا يشتمل على محتويات جيبها في الماضي، وكأن تكابد ما ينشأ عن لبس الأثواب المسماة «الحلل المشكولة» من ألم في المشي، والمتمدنات من هذه الجهة يشبهن نساء الهمج اللواتي يحتملن أوجاع الخرصان التي يزينون بها أنوفهن إذعانًا لحكم الزي.

والخضوع للزي — كما وصفنا — يثبت لنا ما للعدوى النفسية من التأثير والقوة، فأكثر النساء استقلالًا وهمةً وسعيًا في نيل جميع الحقوق لا تجرؤ على لبس بذلة قصيرة في وقت يُلزِم الزي الناس لبس بذلات طويلة، ولا تجسر على صنع جيب في البذلة في زمن يحرم الزي استعمال الجيوب، ولا تُقدم على زَرِّ درعها من أمام في آنٍ تزر بقية النساء دروعهن من خلف، فليس من يقدر منهن على مخالفة الزي، ولم يُطِعْنَ في الماضي أوامر لآلهة إطاعتهن لأحكام الزي في جميع العصور والأجيال.

الفصل الرابع

الجرائد والكتب

(١) تأثير الجرائد والكتب

للجرائد والكتب تأثير كبير في تكوين الآراء وإن كان دون تأثير الخطب، ومع أن تأثير الكتب التي لا تقرأها الجماعات أقل من تأثير الجرائد، فإنه ظهر منها ما أدى إلى قتل ألوف من الناس ككتب (روصو) التي كانت توراة زعماء دور العهد، وكتاب «غرفة العم طوم» الذي أثَّر كثيرًا في نشوب حرب الانفصال الأميركية الدامية، ويوجد كتب أخرى كرواية (روبنصن كروسو)، وروايات (جول فيرن) أثَّرت في آراء الشباب؛ فكانت سببًا في تعيين كثير منهم مهنهم، وقد كان نفوذ الكتب واسعًا عندما كان لا يقرأها سوى الأقلين، فكلٌّ يعلم كيف أدت مطالعة التوراة في عهد (كروموبل) إلى ظهور كثير من المتعصبين في إنكلترا، وكلٌّ يعلم أن روايات الفروسية أيام تأليف رواية (دون كيشوت) بلغت في إفسادها النفوس مبلغًا جعل ملوك الإسبان يمنعون بيعها.

وتأثير الجرائد في الوقت الحاضر أعظم من تأثير الكتب، فالذين ليس عندهم من الآراء غير ما في الجرائد لا يُحصى عديدهم، وقد تجلى تلقين الصحف اليومية في جميع الأمور حتى في كثير من حوادث الزمن الحالي الجسيمة، فمن المسائل المعروفة هو أن الصحافيين هم الذين أوقدوا نار الحرب بين الولايات المتحدة وإسبانيا.

ولا تجهل الحكومات ما للصحافة من السلطان المطلق، فكل رجل سياسي يعلل نفسه بأن يكون صاحبًا لجريدة منتشرة، وبالجرائد استطاع رؤساء الوزارة الألمانية أن يجعلوا أكثر مشاريعهم مقبولة عند الجمهور.

والسرعة التي يصدِّق بها القراء ما يطالعونه في جرائدهم تقضي بالعجب العجاب، فكل إعلان في الصحف كثير الوعد قليل الوفاء يجد له جمهورًا يؤمن به، والحيل نفسها

قد تتكرر بنجاح ما دام لأغلب الناس إيمان بما لا يُرجى، ومن ذلك حكاية السارق المحتال الذي أعلن منذ وقت غير بعيد أنه يقرض كل إنسان دراهم بلا ضمان، فقد استطاع هذا المحتال في بضعة أشهر أن يربح — قبل أن يقرض سنتيمًا واحدًا — خمسين ألف فرنك من رسوم الكشف والاستخبار التي فرض على الطالبين دفعها قبل إقراضهم، وأمرٌ مثل هذا لم يشمل النظر لو لم يكتشف قاضي التحقيق بين الذين صدَّقوا السارق المذكور أناسًا متعلمين أكثرهم من ملتزمي الدولة، وكبار الضباط، ورؤساء الشرطة، والمحامين، وكتَّاب العدل، وقضاة الصلح، وأعضاء مجالس الإدارة، وقضاة التحقيق، وهذا المثال أوضح دليل على تأثير الصحف في الناس.

(٢) الإقناع بطريقة الإعلان

إن البحث عن استعمال الإعلانات يفيدنا في بيان تأثير الصحف في تكوين الآراء، فالإعلان هو إحدى الوسائل التي يتم بها إقناع الجموع في الوقت الحاضر، وله في البيوع التجارية شأن يوضح لنا الطريقة التي يؤثر بها في المشتري.

وقد استنبط الأميركيون بضع قواعد نفسية ضرورية للإعلان فأصبحوا أساتذة العالم في هذا المضمار، ويقد العارفون المبالغ التي تُدفع للصحف أجورًا للإعلانات في الولايات المتحدة بخمسمائة مليون فرنك في السنة الواحدة. ومما ذكره الموسيو (أران) في كتاب خصصه للبحث عن هذا الموضوع أن أحد تجار الأقلام الكاتبة (ستيلوغراف) يبذل نصف مليون فرنك سنويًّا أجرة إعلانات، وأن رب أحد مصانع الصابون أنفق على الإعلانات ستين مليون فرنك في أربعين سنة.

والغاية من بذلك تلك النفقات هي إنشاء قناعة في نفس المرء يصير بتأثيرها مشتريًا في أحد الأيام، والعامل الأساسي في تكوين القناعة المذكورة هو التوكيد والتكرار معًا لا التوكيد وحده، ولذا لا تكون العلامة التجارية مقبولة عند الناس إلا بعد أن يمضي عليها وقت كافٍ تُعلن فيه إعلانًا مؤكدًا مكررًا.

ومن الضروري أن يُغيَّر شكل الإعلان من وقت إلى آخر، وإلا فإن تأثيره يضعف بفعل العادة، ولا يكون الإعلان مفيدًا إلا إذا دل على منتج معلوم في السابق، وأما إذا ظهر المنتج حديثًا فيجب ذكر جميع صفاته ومزاياه في الإعلان، وإذا كان استعمال الشيء المخترع يتطلب تغيير المشتري لعاداته، فإن المقصود لا يتم بتكرير الإعلان وحده، بل يحسن بالبائع أن يوزع نماذج من المنتج مجانًا.

ومما يتعلل به المعلنون هو أن يجعلوا المشترين يحفظون أسماءهم وعناوينهم، ولكي يتصلوا إلى ذلك تراهم يطبعونها على الأشياء التي يكثر استعمالها، كالورق النشاف، وعلب الكبريت، والجرائد، والمجلات، ودفات الكتب … إلخ، ويرى الأميركيون أن خير أسلوب لبلوغ تلك النتيجة هو أن يرسلوا إلى المشترين قوائم مصورة تصويرًا فنيًّا، ومشتملة أحيانًا على قصة موقع عليها من قبل كاتب معروف، وقد أخذت هذه الطريقة الشافية الغالية تشيع في فرنسا منذ وقت قريب.

ومن قواعد النشر الثابتة هو أن الإقبال على المنتجات المعروفة لا يلبث أن يخف عندما ينقطع إعلانها، ولا ريب في أن ضعف ذاكرة المشاعر التي بحثنا عنها آنفًا هو علة ذلك.

وشأن التصاوير كبير في الإعلان، وقد بيَّنا ذلك وقتما بحثنا عن تأثير الإعلانات المصورة في الانتخابات النيابية الأخيرة التي وقعت في إنكلترا، وفي اكتتاب المتطوعين في سلك الفرسان عندنا، ويكون ذلك الشأن أعظم إذا كانت الصور ترمي إلى المقايسة بين شيئين أو أكثر، فإذا أريد ترويج مائع يشفي الصلح مثلًا، فإن مما يؤثر في المشتري أن يحتوي إعلان ذلك المائع على صورتين لرجل واحد، إحداهما تدل على حاله وهو أصلع، والثانية عليه بعد أن عوفي من الصلع، واكتسى رأسه بالشعر بتأثير المائع المذكور.

ويستعين الماليون على ترويج أشغالهم بمثل الوسائل التي يتذرع بها أرباب الصناعات، ولكن على مقياس واسع، فأحيانًا يشترون أكثر الصحف لتمتدح أعمالهم، وأما التي لا يقدرون على جعلها موالية لهم فإنهم على الأقل يشترون سكوتها.

الفصل الخامس

جريان الآراء وثورانها

(١) جريان الآراء

يوجد عدا الآراء التي تخص كل زمرة على حدة مناحٍ عامة تستولي على أكثر الزمر حينًا من الزمن، وهذه المناحي الناشئة عن تأثير الكتب، والجرائد، والخطب، والتعليم … إلخ تسمى: «جريان الآراء».

فالجريان المذكور الذي قلما تدعمه عناصر العقل يحدث بفعل العاطفة وخلق التدين، وينتشر بالتلقين والعدوى النفسية، وكلما تداعت أركان الماضي إلى دعائم الثبات النفسي الموروث يعظم شأن جريان الآراء، فقد عانينا منذ قرن سلطان هذا الجريان كثيرًا فتشيعنا لعائلة (بونابرت)، ثم لـ (بولانجيه)، ثم لـ (دريفوس)، ثم للمذهب القومي … إلخ.

وفي الغالب يجب أن تقع حوادث هائلة ليصدر عنها جريان الآراء، فقد كانت معركة (ينا) عند الألمان، وحرب سنة ١٨٧٠ عند الإفرنسيس، ضروريتين لإحداث جريان آراء قادر على إلزام الناس الخدمة العسكرية العامة، ولولا النصر البحري العظيم الذي ناله اليابانيون في حروبهم مع الروس لما حدث في بلاد اليابان جريان آراء تستطيع بفضله حكومة تلك البلاد أن تنفق كل سنة أكثر من مليار فرنك على أسطولها.

والقادة أولو العزم والفضل يقدرون على توليد جريان آراء ضرورية، أو تعيين وجهة هذا الجريان على الأقل، وأما القادة المتوسطون فإنهم يكتفون باقتفائه، وما استطاع أقسى الجبابرة أن يباطشوا جريان الأراء زمنًا طويلًا، فقد ذكر (جوفينال) أن الإمبراطور (دوميسيان) تمكَّن من قتل كثير من مشاهير الرجال، ولكنه «هلك عندما أخذ السكافون يخافونه»، وكان (نابليون) نفسه يهاب جريان الآراء، فقد قال وهو في جزيرة القديسة (هيلانة): «إن للراي العام قوة لا تُقهر، ولا يقدر أحد على مقاومتها،

وليس ما هو أكثر منه تقلبًا وغموضًا وسلطانًا، وهو على رغم سيره مع الأهواء ذو سداد أكثر مما يُظَن.»

ويبذل أقطاب السياسة كثيرًا من العناية في إيجاد جريان للآراء، أو تحويل هذا الجريان، فقد سعى (بسمارك) سنين طويلة لتكوين حركة فكرية في الشعب يستطيع بها أن يجعل البلاد مستعدة لاستقبال حرب تؤدي إلى ما لا تقدر على فعله اللغة وحدها من اتحاد بين دول ألمانيا، وبفضل ما نشره ساسة ألمانيا في الصحف من رسائل ومقالات وخطب مؤثرة في الرأي العام جعلوا الأمة الألمانية ترضى بإنفاق أموال وافرة على تقوية أسطولها الحربي، وما تم أمر الإصلاحات التي وقعت في إنكلترا منذ قرن إلا بتحريك جريان الرأي العام فيها.

ومن العوامل المولدة لجريان الآراء نذكر الجرائد اليومية، والنشرات، والخطب، والمحاضرات، والمؤتمرات، فبمثل هذه الوسائل انتشرت الاشتراكية في فرنسا وألمانيا، وتؤثر تلك الوسائل على الخصوص إذا استندت إلى احتياجات ومشاعر وآمال جديدة.

وليس جريان الآراء السياسية — الذي هو أهم جريان نظرًا لتأثيره في وقوع كثير من الحوادث — هو الذي يجب أن يلتفت إليه وحده، بل يقتضي أن يلتفت إلى حركات الرأي الأخرى؛ لأنها تدل أيضًا على الحالة الفكرية في أحد الأدوار، فهذه الحركات تطبع طابعها على الفنون والآداب حتى على العلوم، وتشتق الحركات المذكورة مما لبعض النظريات أو لبعض الرجال من نفوذ، ويعم أمرها بفعل العدوى النفسية التي هي العنصر الأساسي في انتشار المعتقدات.

وكل من الكتَّاب، والمفكرين، والفلاسفة، والساسة يعمل ضمن دائرته في إيجاد مجارٍ للآراء تسير بها حضارة أحد الأزمنة، وعلى أقطاب السياسة وحدهم يعود أمر تكوين رأي عام في المسائل التي تمس حياة البلاد الخارجية، وعملٌ مثل هذا هو غاية في الصعوبة؛ إذ يجب على أولئك الأقطاب أن يكونوا ذوي نفسية نامية، يقدرون بها على السير حسب المنطق العقلي، وعلى التأثير في مشاعر الرجال المستقلة عن كل عقل.

والمؤثرات غير العقلية التي هي سبب حركات الآراء تتبدل بحسب الأحوال تبدلًا متصلًا، فعلى من يود أن يقبض على زمام هذه المؤثرات أن يعرف كيف يتفرس فيها، وألا ينسى أن الرأي بعد أن تؤمن به الجماعة يصبح في نظرها حقيقة ناصعة.

(٢) ثوران الآراء

ثوران الآراء كناية عن اتجاه انفعالات الناس الفجائية نحو غرض واحد، وقلما ينشأ عن حوادث وقعت في غضون أحد الأدوار الطويلة مثل هذا الثوران، وهو يظهر بتأثير حوادث عاطفية تقع بغتةً، أو بفعل بضعة ألفاظ ينطق بها رجال نافذون قادرون على تحريك المشاعر.

ولم يكن أعاظم الأبطال في التاريخ ك (بطرس الراهب)، و(جان دارك)، و(محمد ﷺ)، و(لوثر)، و(نابليون) هم الذين سبَّبوا وحدهم ثورانًا في الآراء، بل نشاهد كل يوم حدوث ثوران فيها، وإن كان على مقياس ضيق. مثال ذلك ما نشأ عن إعدام الفوضوي (فيرير) من ثوران أقام باريس وأقعدها، وما أوجبه اجتياز طيارٍ بحرَ المانش أول مرة من الوقع العظيم في أرجاء أوروبا.

وتكون المجالس السياسية عرضة لثوران الآراء بوجه عام، قال (إميل أوليڤيه): «لا يدرك من لم يكن له كرسي في المجالس أمر تلك الحركات الفجائية التي تزحزح الأكثرية في أيام الأزمة عن طريقها، فتجعلها تنبذ الرأي الذي استحسنه قبلًا لتقترع لرأي آخر يناقض الأول مناقضة تامة.»

لقد بيَّنت آنفًا كيف استطاع (بسمارك) بحذفه بضع كلمات من برقية (إمس) أن يحدث في فرنسا انفجارًا فكريًّا أدى إلى نشوب حرب السبعين، كما أنني ذكرت أن فورانًا فجائيًّا في الرأي أوجب سقوط وزارة (كليمانسو)، والآن أقول: إن ثوران الآراء قد لا يتعدى حد إحدى الزمر الاجتماعية، ولكنه لا يكون حينئذ مؤثرًا إلا إذا كانت هذه الزمرة على شيء من القوة والسلطان، فكلٌّ يعلم أن الفتنة الحديثة التي أوقدها أحد أحزاب مقاطعة الشنبانيا أوجبت حرق كثير من معاصر الخمر الكبيرة التي آخذ الكرَّامون أصحابها على اشترائهم المنتجات من مناطق أخرى، وما كان أمر تلك الفتنة ليتم لو لم يشعر العصاة بقوة عددهم، وبضعف الحكومة إزاءها.

وأكثر الثورات الحديثة اشتعلت على أثر انفجار في الرأي، وإذا لم نبحث عن ثورة ٤ أيلول التي حدثت عندما علم الناس خبر انكسارنا، فإننا نرى أن حادثات كسقوط الملكية في البرتغال، وفتن برلين، وعصيان برشلونة، والانقلاب التركي ... إلخ، لم تقع إلا بغتةً بفعل مؤثرات خفيفة، وفي وقوع الثورات الشعبية فجأة ما يوجب العجب ويستوقف النظر؛ إذ يرى أن أكثر الجموع تشترك فيها بتأثير العدوى النفسية من غير أن تعلم السبب الذي من أجله نشبت، ولما بيَّن تاريخ أغلب الثورات من شبه فإننا نعد

هذا التاريخ يتجلى في عبارات الموسيو (چورچ كين) الموجزة التي لخص فيها ثورة سنة ١٨٣٠، وإليكها:

> لقد وقع الانفجار الذي هيَّج باريس فجأة، فلم تمضِ بضع ساعات حتى سُدَّت الأزقة بالمتاريس، وتنظمت كتائب مسلحة، وضربت الطبول إشارةً لجمع الحرس الوطني، وتجمهر العمال والطلبة في الأسواق، وتسلَّم طلاب مدرسة «البوليتنيك» قيادة العصاة، وأصبح كل باريسي شاكيًا سلاحًا، ونادى الجميع: فليسقط «شارل» العاشر! فليسقط «بولينياك»! فلتسقط مراسيم الملك! فليحيَ الدستور! مع أن العصاة كلهم كانوا يجهلون معنى الدستور وما في المراسي من أحكام، فتأمل!

ومما يلاحظ أن الحركات الثورية تنتشر سريعًا بتأثير العدوى النفسية بين الناس، حتى بين الذين لا يهمهم أمر حدوثها، فجنود البارجات الروسية الذين تمردوا أيام الثورة لم يرفعوا راية العصيان إلا بفعل العدوى، وإلا فماذا يهمهم كون روسيا نالت مجلسًا نيابيًّا أم لم تنَلْ، وكون الفلاحين أصحبوا ذوي حق في اشتراء أراضٍ أم لم يصبحوا؟

فمن أوصاف الثورة البارزة أنها تذيع بين أناس لا ينفعهم أمر نشوبها، بل قد يخسرون كل شيء عند وقوعها، فسوف يلحق أبناء الطبقة الوسطى هلاك كبير حينما يتم نصر لم يؤيدوه من المبادئ الاشتراكية الثورية.

ومن حسن الحظ كون ثوران الآراء الشعبية — الخطر — لعدم تأثير العقل فيه لا يدوم طويلًا، ولا تفعل مقاومته مباشرةً غير تحريكه، فقد كان إصرار أركان الحرب أيام قضية (دريفوس) على نقض بضع وثائق سببًا في تهييج الرأي العام وفورانه.

وبجانب الحوادث المشهورة التي أشرت إليها آنفًا نشاهد ضروبًا صغيرة لثوران الرأي، فيكفي لإيقاظها استعمال بضعة ألفاظ تؤثر في المشاعر، وقد جربت ذلك في أمر بارز بسيط، إليك بيانه:

كانت إدارة الأملاك الأميرية قررت لأسباب اقتصادية بيع قطعة من حديقة «سان كلو» مقيدة في سجلات الإدارة المذكورة باسم غابة «ڤيلنوڤ ليتان»، وبما أن إمضاء هذا البيع نكبة على سكان تلك الضاحية الذين تعودوا النزهة في الحديقة المذكورة، فكيف يحال دون انعقاده؟

لقد عُلقت إعلانات البيع الرسمية على الجدران، وحيث إن الجمهور لا يعرف مدلول ذلك الاسم الإداري لم يحرك ساكنًا، غير أنني وجهت نظر مقرري لجنة الميزانية إلى هذا الأمر ذي العلاقة بالمنفعة العامة فوعدوني خيرًا، ثم مرت الأيام تلو الأيام ولم يبقَ ليوم عقد البيع الباتِّ القاطع سوى أسبوع واحد، وفي تلك الأثناء علمت أن البيع سوف ينعقد مع أحد يهود ألمانيا، فنشرت في إحدى الصحف الكبيرة مقالة موجزة عنوانها: «بيع حديقة «سان كلو» إلى الألمان»، وما كان الخبر يعم حتى حدث ثوران في الرأي العام؛ فتهافت فوج من مراسلي الصحف على بلدية «سان كلو» لاستقصاء حقيقة الأمر، وملأت الجرائد أعمدتها بمقالات طنانة عن هذا الموضوع، ثم استُجوب الوزير في مجلس النواب فصرح بالعدول عن البيع في الحال والمستقبل.

وهكذا كفى لنيل النتيجة المذكورة نشر ثلاث كلمات، فكلمات مثل هذه هي من الصيغ المؤثرة القادرة على تحويل المشاعر الفردية إلى عزم جامع شامل.

الباب الثامن

حياة المعتقدات

الفصل الأول

صفات المعتقد الأساسية

(١) المعتقد احتياج نفسي مهيمن

لقد عرَّفنا المعتقد في الفصل الأول من هذا الكتاب بأنه الإيمان، وذكرنا الفرق بينه وبين المعرفة، وتكلَّمنا بإيجاز عن شأنه، وأما الآن فسنبحث عن حياة المعتقدات.

إن العناصر التي يتألف منها كياننا تتصل بثلاث أنواع من الحياة ... أعني: الحياة العضوية والحياة العاطفية والحياة العقلية، والاحتياج إلى الاعتقاد هو من مظاهر الحياة العاطفية، وهو في تجبُّره وسيطرته كالجوع والحب، وبما أن المعتقد هو احتياج مهيمن على طبيعتنا العاطفية، فإنه لا يكون إراديًّا عقليًّا، ولا يقدر العقل على تكوينه وتسييره.

ومهما يكن عرق الناس، ووقت ظهورهم، ودرجة جهلهم وعلمهم، فإنهم سواء في عطشهم إلى المعتقد، فكأن المعتقد غذاء نفسي ضروري لحياة الروح كضرورة الغذاء المادي لحفظ الجسم، وما مبدأ الشك العام الذي قاله (ديكارت) غير خيال وهمي، فإذا دخل المرء في طور اللاأدرية فذلك لأجل قصير، والحكيم وإن كان لا يعتقد الأمور كالجاهل، إلا أن الأشياء التي يؤمن بها قلما تكون قائمة على الدليل والبرهان.

وقد أوضحنا الفرق بين المعتقد والمعرفة في أوائل هذا السفر إيضاحًا كافيًا؛ فرأينا أن المعتقد إيمان أينع في عالم اللاشعور، ولا يحتاج لإثبات أمره إلى أية حجة تدعمه، مع أن المعرفة هي بنت الحياة الشاعرة وتقوم على التجربة والاختبار، فبالمعرفة نعلم، وبالمعتقد نسير، ولو ألزم الإنسان اكتساب المعرفة قبل أن يسير لاعترته البطالة والجمود زمنًا طويلًا، وقد ظلت المعتقدات وحدها أدلاء البشر قرونًا عديدة، فهي التي أنارت لهم السبل في جميع المسائل، ولم تكن الأديان منشأ احتياج الناس إلى الإيمان، بل إن هذا

الاحتياج هو بالعكس علة الأديان، فمتى ترك المرء دينه لم يلبث أن يعتنق بغريزته معتقدًا آخر؛ صنمًا كان أم سحرًا أم خرافة سياسية ... إلخ.

(٢) عدم التسامح في أمر المعتقدات

عدم التسامح هو إحدى صفات المعتقدات العامة الثابتة، وكلما كان المعتقد قويًّا قلَّ تساهله، فالناس بعد أن يدخل إيمانٌ في قلوبهم لا يصطبرون على من ليس عليه، هذه هي سُنَّة أجرت حكمها في جميع الأجيال، ولا تزال تجريه، وكلٌّ يعلم درجة ما يصل إليه المعتقدون من صولة دينية؛ كفارًا كانوا أم قانتين؛ فالحروب الدينية، ومحكمة التفتيش، وملحمة الـ (سان بارتلمي)، وإلغاء مرسوم (نانت)، والهول الأكبر، واضطهاد الأكليروس في الوقت الحاضر ... إلخ، أمثلة على تلك الصولة.

وإذا كانت لتلك السنة شواذ نادرة سهل إيضاحها، فالرومان لم يعترفوا بآلهة مختلف الشعوب التي دخلت في ذمتهم إلا لأن هذه الآلهة في نظرهم عبارة عن سلسلة من الموجودات العلوية يجب اجتذابها بالعبادة، وكذلك البوذية فإنها لم تؤدِّ إلى اضطهاد؛ إذ هي متساهلة بما تأمر الناس به من التجرد عن الرغائب والشهوات، وباعتبارها الآلهة والموجودات أوهامًا لا أهمية لها، وليس من سبب يجعلها عديمة التسامح.

إذن مثل هذه الشواذ توضح نفسها بنفسها، وليس فيها ما يناقض الناموس العام القائل إن المعتقد عديم التساهل بحكم الضرورة.

والمعتقدات السياسية هي كالمعتقدات الدينية في عدم تسامحها، فليس من يجهل الشدة التي أباد بها رجال العهد الذين اعتقدوا أنهم على الحق المطلق خصوم إيمانهم السياسي، وأنصار إلاهة العقل في الوقت الحاضر هم كهؤلاء شدة وتعصبًا وتعطشًا إلى القرابين البشرية، وستظل كلمة القديس (طوماس) الآتية مبدأ لكل مؤمن حقيقي وهي: «إن الإلحاد إثم يستحق صاحبه القتل.» ولذلك أصاب الموسيو (چورچ صوريل) حيث أنبأ بأن أول عمل تأتي به الاشتراكية هو قتل أعدائها بلا رحمة، وإلا فكيف يستقيم أمرها حينًا من الزمن إذا لم تفعل ذلك؟

وعدم التسامح في أمر المعتقد وما ينشأ عنه من الاضطهاد ليسا عند العوام أقل منهما عند المتعلمين، بل قد يكونان عند هؤلاء أنمى وأكثر استمرارًا، قال (ميشليه): «أعجب أحيانًا من قسوة المتعلمين الشديدة التي قد لا يأتي بمثلها من هم أقل علمًا وأدنى معرفةً!»

(٣) استقلال الرأي: شأن عدم التسامح الاجتماعي

إذا دُرس عدم التسامح في أمر المعتقد من الوجهة العقلية وحدها بدا شيئًا ثقيلًا لا يطاق، وأما إذا نُظر إليه من الوجهة العملية فإنه لا يكون كذلك؛ لأن الرغبة في الاستقلال الذي يتخلص به المرء من سلطان المعتقد العام أمر شاذ، وكلٌّ يتحمل استعباد البيئة الاجتماعية المحددة للاستقلال الشخصي من غير أن يتظلم، وفي الغالب لا يشعر الإنسان بذلك الاستعباد، ولا بد له في البداءة من التحرر من ربقة البيئة — كأن يعيش منزويًا — لكي يصبح حرًّا حقيقيًّا.

وكل ما يمكن المرء أن يناله من الاستقلال هو أن يقدر أحيانًا على مقاومة ما يشيع بين الناس من تلقين شامل، وبذلك يمتاز من أفراد زمرته الذين يتبعون ما يطرأ على هذه الزمرة من معتقدات وآراء وأوهام كالهشيم الذي تذروه الرياح.

وصفوة الناس القليلة هي وحدها ذات آراء شخصية في بعض الأحيان، وإلى هذه الصفوة العالية يعود فضل الإتيان بمبتكرات الحضارة، ولا نتمنى زيادة عددها كثيرًا؛ لأنه لَمَّا كان المجتمع لا يقدر على ملاءمة مبتكرات متتابعة صادرة عن صفوة كثيرة العدد، فإنه يقع في الفوضى بعد ظهور صفوة كبيرة، فالثبات الضروري لبقاء المجتمع قد تم أمره بفعل جماهير الناس ذوي النفوس البطيئة القليلة الذكاء التي تقودها البيئة والتقاليد.

فمن المفيد أن تكون أكثرية المجتمع مؤلفة من متوسطي العقل الذين لا رائد لهم سوى ما في البيئة من آراء ومعتقدات عامة، ومن المفيد أيضًا أن تكون الآراء العامة قليلة التسامح؛ إذ الخوف من انتقاد الآخرين هو أحد الأسس الأخلاقية المتينة، ويكون التوسط في العقل أكثر فائدة للأمة؛ إذا اجتمع مع بعض المزايا الخلقية، وقد اطلعت إنكلترا على ذلك بغريزتها، فبقيت على رغم كونها من أكثر بلاد العالم حريةً تمقت كلَّ فكر متطرف.

(٤) اشتداد المعتقد: الشهداء

بين الرأي المؤقت وبين المعتقد التام الذي يستولي على العقل وقوة التمييز مراحل قلما قُطعت، وحينما تُجاز في بعض الأدوار النادرة تشتد اندفاعات المرء الدينية وما توجبه من المشاعر حتى لا تقدر على ردعها جميع الزواجر الاجتماعية وعقوبات القوانين،

ووقتئذ يظهر أمثال (بوليوكت) الذي حطم الأصنام، والشهيد الذي لم يبالِ بسيف الجلاد، والعدمي الذي رمى قنبلة بين جم غفير ليقتل أميرًا.

ومتى بلغ معتقد المرء هذه الشدة لم يقم في وجهه حاجز فيستولي على أوضح منافعه، وأعز مشاعره، ويجعله يرى الخطأ صوابًا، والصواب خطأً، ويدفعه إلى التضحية بنفسه في سبيل نشر إيمانه، والذود عنه.

والشهداء جميعهم ذوو نفسية واحدة؛ أي لا فرق بين نفسية من ذهب منهم ضحية السياسة، ونفسية من ذهب ضحية الدين أو المبادئ الاجتماعية، ولمَّا سحرتهم حلاوة المبدأ ضحَّوا بأنفسهم بوجوه مبتسمة انتصارًا له غير طامعين بثواب في الدنيا ولا في الآخرة أحيانًا، يؤيد ذلك تاريخ العدميين والإرهابيين في روسيا الذين يلقون بأنفسهم إلى التهلكة غير راجين دخول ملكوت السماوات.

ومن حسن الحظ أن عدد هؤلاء المتهوسين قليل في كل دور، ولو زادوا لقلبوا العالم، والبحث عن الشهداء هو من خصائص علم الأمراض النفسية، ولما بين المتهوسين من شبه كبير على رغم التباين بين معتقداتهم فإن درس اثنين أو ثلاثة منهم يؤدي إلى الوقوف على حقيقة الباقين.

ولا ينشأ عن الإيمان تحول في الآراء فقط، بل تتبدد أمام سلطانه مشاعر قوية إلى الغاية؛ كالخوف والحشمة وحب الأبوين، ويشهد بصحة هذا القول تاريخ الشهداء الذين نعد القديسة (بيربيتوا) التي ظهرت في عهد الإمبراطور (سبتيم سيڤير) الروماني مثالًا لهم، فهذه القديسة الجميلة الثرية التي هي بنت رئيس مجلس شيوخ «قرطاجنة»، والتي اعتنقت الديانة المسيحية سرًّا فضَّلت عرضها عارية أمام الجمهور لتلتقمها الحيوانات المفترسة على أن تحرق اللبان في الهيكل الإمبراطوري.

ومما يعتقده المؤمنون هو أن هذه الأحوال دليل على قدرة آلهتهم، فلا ريب في أن هذا الاعتقاد وهمٌ باطل؛ ذلك لأن جميع الأديان والمذاهب السياسية لها شهداء كالذين أشرنا إليهم.

ومن بين ألوف الأمثلة نورد الديانة البابية التي انتشرت منذ ستين سنة في بلاد فارس مثلًا على ما ذكرنا.

ولقد ظن الشاه آنئذٍ أنه يقدر على إطفاء هذا الإيمان الجديد بسوم أنصاره سوء العذاب، ولكن انظر ماذا حدث حسب تقرير (غوبينو): «تقدم الأطفال والنساء نحو السيَّافة وهم ينشدون بصوت عال: «الله خلقنا، وإليه مردنا.» ومما شوهد على

الخصوص أن جلادًا قال لوالد إنه سيضرب على كتفيه عنقي ولديه إذا لم يرجع عن مذهبه، فأجاب الوالد ملقيًا نفسه على الأرض أنه لا يبالي بذلك، ثم تقدم ولده الكبير — وكان في الرابعة عشرة — طالبًا بصفته أكبر الابنين أن يُذبح قبل أخيه، وكان أحد أشياع الباب وهو معلق على سور تبريز لا ينطق إلا بهذه الكلمة وهي: إلهي، هل أنت راضٍ عنّي؟»

ومثل ذلك الاضطهاد الذي عاناه في هذه الأيام أنصار مذهب (السكوبسي) في روسيا، وأتباع مذهب (المورمون) في الولايات المتحدة، وقد فضَّل جميع هؤلاء العذاب على الرجوع عن إيمانهم.

تثبت هذه الحوادث وما شاكلها ما في الروح الدينية من قوة قادرة على تبديد الألم، وعلى قبر المشاعر التي يقوم عليها كيان الإنسان، فماذا يستطيع العقل أن يفعل أمامها؟

لا تُحرَّك الجموع بالبراهين العقلية، وأما بالمعتقد فيمكن التغلب عليها على الدوام، والعقل، على ما فيه من سلطان يقدر أن يقاتل به الطبيعة، يعجز عن تكوين المعتقدات.

وبفضل المعتقدات التي تخرب أحيانًا وتبدع غالبًا وتنتصر دائمًا تتأسس دول التاريخ الرهيبة ودعائم الحضارات الصادقة، ولولا المعتقدات لما عاشت الأمم.

الفصل الثاني

ما ينشأ عن المعتقدات من اليقين وما يقنع به المؤمنون من الأدلة

(١) ما ينشأ عن المعتقدات من اليقين

ينشأ عن المعتقد القوي يقين لا يزعزعه شيء، ومن مثل هذا اليقين تُشتق أكثر حوادث التاريخ أهمية، فقد أيقن (محمد ﷺ) أن الله أمره بالدعوة إلى دين جديد أوحى به لتجديد العالم، فاستطاع بفضل يقينه أن يقلب الدنيا، وأيقن (بطرس) الراهب أن الرب يريد استرداد قبر المسيح من يد الكفار، فاستطاع بقوة إيمانه أن يسوق ملايين من الرجال إلى الهلاك، وأيقن (لوثر) أن البابا عدو المسيح، وأن لا أساس للمَطْهَر في النصرانية، فاستطاع بذلك اليقين أن يشعل في أوروبا حروبًا امتدت قرونًا طويلة، وأيقن قساوسة محكمة التفتيش أن الرب يريد حرق الخوارج، فاستطاعوا بفعل هذا اليقين أن يستأصلوا أهل إسبانيا، وأيقن (شارل التاسع)، و(لويس الرابع عشر) أن خالق السماوات والأرض لا يسمح ببقاء البروتستان، فأوجب الأول حدوث ملحمة الـ (سان برتلمي) وطاردهم الثاني شر مطاردة، وأيقن رجال العهد بوجوب ضرب كثير من الرقاب في سبيل سعادة البشر، فأدى ذلك إلى وقوع حروب كثيرة، ثم إلى إعلان الحكم المطلق، وهلك من أجل ذلك ثلاثة ملايين من الرجال في أوروبا، ويوقن اليوم مئات من أبناء الطبقات الوسطى بأن الاشتراكية ستصلح الكون؛ فهم بهذا اليقين يقوِّضون غاضبين دعائم المجتمع الذي يعيشون فيه.

ومن نتائج اليقين الناشئ عن المعتقد ظهور بضعة مبادئ خلقية قوية هي السبب في حدوث شعور جديد يكون دليلًا على السير، ومما يدل على ذلك: أن الثورة الفرنسوية لم تكد تقع حتى اقترف الذين كانوا في العهد السابق مسالمين أعمالًا دامية، خاضعين

لحكم اندفاعات أورثهم إياها إيمانهم الجديد، ومن هؤلاء المندفعين سفاكو شهر أيلول الذين طلبوا أجرًا قوميًّا على ما اجترحوه، ومنهم زعماء العصابات الذين خرَّبوا مقاطعة «ڤاندة».[1]

ويتضمن اليقين الديني واليقين العاطفي في الإنسان احتياجًا يدفعه إلى حمل الناس عليهما، فالمرء عندما يؤانس من نفسه قوة لا يتحمل أن يرى يقينًا غير يقينه عند الباقين، ولا يتأخر ثانيةً عن اقتراف أشد المظالم والإتيان بأفظع المذابح في هذا السبيل، حقًّا خرب أولو اليقين العالم في كل زمان، ومما يُخشى على الأمة أن يقودها هؤلاء، وإن كانوا — كما قال (ريبو) — يقبضون على زمام تلك الأمة في بعض أدوارها.

فليوقن رجال ذو قوة كإمبراطور ألمانيا أنه يقتبس قوته من الله، ثم ليتوهم أن الله أمره بشهر الحرب على الملاحدة؛ لنرى كيف يقلب أوروبا كما قلبت في الماضي بفعل مثل ذلك اليقين.

(٢) الأدلة التي يقنع بها المؤمنون

المعتقد هو إيمان لا تطلب لثبات أمره أدلة، وكثيرًا ما لا يتحقق بالأدلة، ولو قام الإيمان على الدليل العقلي وحده لكان عدد المعتقدات التي ظهرت على مر الأجيال قليلة، وبراهين المؤمنين في الغالب صبيانية بالنسبة إلى العقل، ومع ذلك فليس من خصائص العقل أن يقضي فيها لاشتقاقها من عناصر دينية أو عاطفية لا صلة بينه وبينها.

ولما كان العقل غير مشترك في تكوين المعتقدات فإنه لا حدَّ لسرعة التصديق في المؤمن، ولا يتخيل المؤمن أنه يعتقد الأشياء من غير برهان بدليل أنه يستشهد بالبراهين على الدوام، غير أن هذه البراهين التي يقنع بها تدل على ما فيه من سذاجة متناهية، وسرعة تصديق متأصلة.

ويتجلى لنا هذا الأمر من مطالعة الكتب التي بحثت عن الوسائل التي استعان بها القضاة المنعوتون في الماضي بالجهابذة لكشف السحرة، فإنها تدل مع رسائل علم اللاهوت على الهوة العميقة بين الدليل الذي يتطلبه العلماء، والدليل الذي يقنع به المؤمنون المقذوف بهم في دائرة المعتقد، ولا فائدة من إيراد كثير من الأمثلة على ذلك، فإنها كلها تشابه ما حدث في الدعوى التي أقيمت على الكاتب (ألبانو) الإيطالي، فقد استُشهد على أنه تعلم «سبع المهن الحرة» من سبعة عفاريت من الجن باكتشاف زجاجة علاج مركب من سبعة أدوية مختلفة في بيته، ومع كونه في الرابعة عشرة من

عمره، فقد أوشك القضاء أن يحكم عليه بالحرق حيًّا لو لم يمت فجأة بفضل حماته من العفاريت! حينئذ اكتفى القضاء بنبش قبره وحرقه ميتًا في أحد الميادين العامة.

وقد ندر حرق السحرة في عهد (لويس الرابع عشر)، ولكن ما من أحد كان ينكر قدرتهم، وقد كشفت قضية الساحرة (ڤوارين) أن أكابر ذلك الوقت — ومنهم المارشال (دولكسنبرج)، وأسقف (لانغر) الذي كان واعظ الملكة الأول — كانوا يعوذون بقدرة السحر، وإلى هذه القدرة طلب المطران (سيميان دو چورچ) أن تعطيه حبل روح القدس الأزرق!

وما يقصه العرَّافون والرمَّالون في الزمن الحاضر من اتصالهم بعالم الشياطين يثبت لنا أنه لم يذهب شيء من بساطة الإنسان وسرعة تصديقه، ومن أغرب ما علمناه أن أحد الوزراء المعروفين بعداوتهم للإكليروس لا يخرج من بيته إلا حاملًا حبل مشنوق، وأن أحد سفرائنا لا يأكل على خوان عليه ثلاثة عشر مدعوًّا! فهل وثنية أمثال هذين القطبين أرقى من المعتقدات الدينية التي يحاربونها بما أوتوا من قوة؟ لا شك لا.

ويشعر المؤمنون في كل وقت بضرورة إيجاد براهين يدعمون بها إيمانهم كي يهدوا الكفرة على الأقل، وما بذلوه ويبذلونه من المساعي العظيمة في وضع مؤلفات لعلم اللاهوت يثبت لنا درجة سيطرة هذه الضرورة.

إنهم — عدا ما يذكرونه في كتبهم من المعجزات البيِّنات — يعدون الإجماع العام برهانًا ساطعًا على صحة دينهم، ولم يتردد بعض الأفذاذ ك (بوسويه) في انتهاج تلك الطريق، فلما اعتبر هذا الحَبْر الشهير الآراء الفردية خطرةً جديرةً بالازدراء قال: إن الشعور العام هو على الحق، وإن المذهب يكون صحيحًا بعد أن يتفق الجمهور على صحته، وإن الفرد لا يكون مصيبًا وبقية الناس مخطئون، وما كان خطل هذه البرهنة ليبدو لو لم تثبت مبتكرات العلوم أنها لم تظهر إلا لأن المرء وهو منفرد على حق أكثر من الجموع الحافلة والجماهير الحاشدة.

(٣) التصادم بين العلم والمعتقد

لقد بيَّنا أن دوائر أنواع المنطق هي من الاختلاف بحيث لا تجاوز إحداها حدود الأخرى فلا تتصادمان، ومع ذلك فإن هنالك نقطة يظهر أن العلم والمعتقد يتقاتلان من أجلها؛ نظرًا لكونها تتعلق بمبدأ أساسي.

لعلَّ أهم ثورة ظهرت في عالم الفكر هي الثورة التي أدى إليها العلم بإثباته أن الحوادث تصدر عن نواميس مهيمنة لا عن أهواء الآلهة؛ إذ بهذه الثورة تبدَّلت الكيفية

التي ننظر بها إلى الكون دفعة واحدة، وهذا الاكتشاف العظيم الشأن الذي أخرج البشر أول مرة من دائرة المعتقد إلى دائرة المعرفة لم يعمَّ بعد؛ إذ إن كثيرًا من الناس يعتقدون أن قوى ما بعد الطبيعة تسيِّر الحادثات، وتقدر على تغيير مجراها عندما يُستغاث بها.

فيما أن هذا التصور هو وليد الآمال التي لا تموت أبدًا، فإن التباين بين العلم والمعتقد سيبقى على هذه النقطة، ويظهر أن التباين المذكور أبدي؛ لأن العلم مع أنه لم يترك أثرًا للآلهة في البقاع التي ارتادها لا يستطيع أن يثبت للمؤمنين أنه لا شيء في البقاع التي لم يَرِدها بعد، فمن خلال هذه البقاع غير المطروقة تتراءى أشباح يتخيلها ذوو الإيمان.

والإنسان بتركه مبدأ الوجوب في تسلسل الحوادث يعود إلى المبدأ الذي قضى عليه بعد عناء كبير، والقائل إن مصدر الحوادث هو الآلهة ذات الأهواء، فلو أن الحادثات التي يخبر بها أولو الكرامات في الوقت الحاضر ممكنة لتقهقر العلم طائعًا إلى قرون الأساطير؛ حيث كان مصير الحروب بيد الآلهة، وكانت كتائب الأرواح والجن والغيلان والعفاريت تتدخل في أمور البشر اليومية، ولرأينا قراءة العزائم والصلوات والقرابين والتعاويذ تصبح اليوم كما كانت في الماضي وسائل فريدة لاستعطاف هذه القوى الهوائية.

وليس ما ينافي هذه القهقرة؛ لأن نفسية الإنسان الدينية تهيمن عليه في كل وقت فترغمه على الالتجاء إلى ما بعد الطبيعة، وإن كان البحث الدقيق في خوارق ما بعد الطبيعة يدلنا على أن هذه الخوارق عبارة عن أوهام تكونت في نفوسنا، وسوف نبين ذلك عندما نوضح في باب آخر كيفية تكوين بعض المعتقدات إيضاحًا قائمًا على التجربة.

هوامش

(١) تتجلى نفسية هؤلاء بمطالعة الكتاب الذي أرسله وقتئذ الجندي (جوليكار)، ونشرته حديثًا جريدة «الطان» في عددها الصادر في ٢٦ تشرين الأول سنة ١٩١٠، وإليك بعض ما جاء فيه: «سنغزو ونخرِّب مقاطعتي «دوسيفر» و«ڤانده»، وسنُعمل فيهما الحديد والنار، وسنحمل البنادق في يد والمشاعل في الأخرى، وسوف نقتل النساء والرجال بالسيف، هذا وقد حرقنا حتى الآن سبعة فراسخ، فاغتنى بذلك كثير من الجنود.»

الفصل الثالث

الشأن المنسوب إلى العقل والإرادة في تكوين المعتقد

(١) استقلال العقل واستقلال المعتقد

تعلن المباحث التي دَرست أمر تكوين المعتقدات أن هذه المعتقدات إرادية عقلية، ومصدر هذا الخطأ هو الشأن الكبير الذي نسب إلى العقل في كتب علم النفس، وأما نحن فقد فرَّقنا في هذا الكتاب بين الذات العاطفة والذات العاقلة، وأثبتنا أنه يسيطر على هاتين الذاتين أنواع منطق مختلفة، وأن العقل الذي هو عنوان الذكاء مستقل عن المعتقد الذي هو عنوان المشاعر وخلق التدين، وقد زدنا هذا الاستقلال وضوحًا عندما قررنا أن المعتقد والمعرفة يستندان في تكوينهما إلى طرق وأساليب متباينة كل التباين.

ولو نظرنا إلى أكثر منازعاتنا السياسية والدينية لرأينا ناشئة عن زعمنا الوهمي الذي نريد أن نجعل به الأمور المتباينة يؤثر بعضها في بعض؛ كالمعتقد والمعرفة مثلًا، ولا نقدر على استكناه قوة المعتقدات إلا إذا اعترفنا بأنها بعيدة من أي مؤثر عقلي، وقد يلوح للقارئ أنه ليس من المفيد أن نعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى، ولكن ليعلم أن الأدلة مهما تكن عديدة فإنها لا تكفي لمقاتلة أوهام مستعصية كهذه.

ولو كان العقل قادرًا على التأثير في المعتقدات لأصبح كل ما هو مخالف للصواب منها في خبر كان، فنرى — والحالة هذه — أن تلك المستحيلات العقلية لا تزال ثابتة في النفوس، ولذا ترانا مكرهين على التسليم بأنه لا مستحيل عند المؤمن، وبأن المرء ليس حرًّا في الاعتقاد وعدمه.

إن المؤثرات العاطفية والدينية التي هي أساس المعتقد — هي كما قلت غير مرة — تختلف عن سلسلة المعقولات التي تستند إليها المعرفة، فلا فحص ولا تحقيق في أمر المعتقد، وأما في أمر المعرفة فالتدقيق هو القاعدة، وعلى حكمه ينزل كل معترض.

ومما تتصف به المعتقدات هو كونها تولد أوهامًا في النفوس، وترغم هذه النفوس على الخضوع لسلطانها، ثم إن الإنسان قد يتخلص من ربقة الظلمة المستبدين، ولكنه يعجز عن التحرر من سيطرة المعتقدات على الدوام، ويعد الذين هم مستعدون للتضحية بأنفسهم في سبيل المعتقدات بالألوف مع أنه لا يعرِّض واحد من هؤلاء نفسه للخطر انتصارًا لإحدى الحقائق العقلية.

ولم يقدر دور العقل الذي دخل البشر فيه حديثًا بفضل مبتكرات العلوم على زعزعة قوة المعتقدات، بل ربما لم تظهر معتقدات سياسية أو دينية أو اجتماعية عديدة في زمن مثل ظهورها فيه، ولا سيما في أميركا وروسيا؛ حيث يتكون كل يوم معتقد جديد.

(٢) عجز العقل عن التأثير في المعتقد

قد يسيطر العقل على المعتقد عندما يلحق المعتقد قبل أفوله وهنٌ ودروس بفعل تطور الأشياء الطبيعي، وأما المعتقد في دور انتصاره فإنه لا يحاول أن يقاتل العقل؛ نظرًا لأن هذا الأخير لا يعارضه في ذلك الحين.

حقًّا ليس ما هو أندر من ظهور أناس في دور الإيمان هم من الاستقلال بحيث يجادلون في أمر المعتقد مجادلة عقلية، فيثبت لنا مثال (باسكال) ماذا تكون نتائج التنازع بين المنطق العاطفي والديني من جهة، والمنطق العقلي من جهة أخرى: كان هذا المفكر الشهير يكتب في زمن يخضع الناس فيه للحقائق الدينية غير مناقشين؛ أي في زمن لا يجرؤ فيه غير أولي العبقرية مثله على فحص هذه الحقائق فحصًا عقليًّا، ولكن ما أصابه من الفشل في مسعاه يؤيد مرة أخرى لنا عجز العقل عن التأثير في المعتقد.

ساق ذكاء (باسكال) الواسع إلى إطلاعه على بطلان القصة القائلة إن الله انتقم لنفسه من ابنه على الخطيئة التي ارتكبها أحد خلقه في بدء العالم، ولكن سرعان ما خرَّ منطقه العقلي ساجدًا أمام اندفاعات منطقه الديني؛ إذ لما استحوذ عليه ما ألقاه المنطق الديني في قلبه من خوف الجحيم، وكان مع ذلك يود أن يدافع عن معتقده ببراهين

مقبولة، اعتبر حياة الآخرة كناية عن مراهنة مخيفة؛ لأن العذاب الأبدي واقع إن كان وجود جهنم متحققًا، قال هذا الفيلسوف مؤكدًا: «إزاء هذا الارتياب تجب المراهنة على وجود حياة في الآخرة، ويجب على الإنسان أن يسير كأن هذه الحياة موجودة.»

وبعد أن اقتنع (باسكال) بذلك على هون حاول — ولكن عبثًا — أن يدعم عقيدته بمنطقه العقلي، فالمعجزات والإخبار بالغيب من جملة البراهين التي تذرَّع بها هذا المفكر العظيم ليثبت صحة إيمانه عقليًّا، ولكن بما أن هذه الأدلة قد التجأت إليها جميع الأديان، فإنه لم يسعه سوى إنكار ما حكت عنه هذه الأديان؛ إذ قال: «يستطيع كل إنسان أن يأتي بمثل ما عمله (محمد) الذي لم يجئ بمعجزة، ولم ينبئ بغيب، وأما ما أتى به يسوع المسيح فلن يقدر أحد على فعل ما يدانيه.» غير أن منطق (باسكال) الديني لم يسمح له بالبحث عن السبب في كون الإسلام والبوذية لهما ما للنصرانية من الأنصار والتابعين.

ومع ما في برهنة هذا الحكيم من الدقة كان يشعر بضرورة دعم إيمانه بأدلة قد لا يرضى بمثلها العقل السديد، ثم كان يقول إن الإيمان واجب للنجاة من نار جهنم على فرض وجودها، ولكن كيف يدخل الإيمان في قلب الإنسان؟ اسمع ما يقول: «إن كنتم تريدون أن تكونوا مؤمنين فباشروا الأمر كأنكم مؤمنين؛ أي اشربوا ماء المعمودية، وأقيموا القداس ... إلخ، وبذلك تصبحون من المؤمنين.»

يثبت لنا مبحث (باسكال) عجز العقل عن مقاتلة المعتقد، وبهذا العجز نفسر بضع حوادث تاريخية غامضة في ظاهرها كحادثة (بور رويال) التي كدَّرت صفاء جانب من عهد (لويس الرابع عشر)، كان في ذلك الدير بضعة رهبان أتقياء لهم رأي خاص في نظرية المشيئة الأزلية، ولو نظرنا إلى مباحثهم في الغفران، وتناول القربان، وقضايا (جانسينيوس) الخمس من الوجهة العقلية لتبيَّن أنها لا تستحق الاهتمام، ومع ذلك أوجبت في القلوب غضبًا شديدًا أدى إلى نسف الدير المذكور وتشتيت شمل رهبانه، مع كونهم عنوان الفضيلة والصلاح، فلو كان العقل ذا تأثير في وقوع مثل ذلك الحادث لتعذَّر إيضاح أمره.

وتلك المعتقدات تنضج في عالم اللاشعور؛ فلا سلطان للعقل، ولا للإرادة عليها، وهي نتيجة تلقين كالتلقين الذي يأتي به جميع المنومين في الوقت الحاضر. نعم، قد يلقي العقل في النفس شوقًا إلى الاعتقاد، ولكنه يعجز عن حمل الإنسان عليه، ولن يكون المرء ذا اعتقاد باتباع نصيحة (باسكال) القائلة إن الرجل يصير معتقِدًا بعد أن

يُرغم نفسه على الظهور بمظهر المؤمن، فالإرادة مهما تكن قوية لا تقدر على إدخال الإيمان إلى القلب.

ولأن المعتقَد مستقل عن العقل، فإننا لا نعجب — كما لاحظ (ريبو) — «من مشاهدة ذوي العقول السامية الذين انقطعوا إلى مناهج العلم وأصوله، يؤمنون في أمور الدين والسياسة والأخلاق بآراء صبيانية، يترفعون عن المجادلة فيها ثانيةً واحدة لو كان المؤمنون بها غيرهم.»

وفي الغالب نعاني المعتقدات غير مناقشين فيها، وحسنًا ما نفعل، فسوف يشيخ العالم كثيرًا قبل أن يوازن العقل خلق التدين.

الفصل الرابع

كيف تثبت المعتقدات وكيف تتطور؟

(١) كيفت تثبت المعتقدات؟

الحقيقة تكون عقلية إذا كانت شخصية، وما استندت إليه من دعائم يبقى مؤبدًا، وأما المعتقدات فلأنها شخصية ولاستنادها إلى مبادئ عاطفية أو دينية تخضع لجميع العوامل التي تؤثر في الإحساس، وعليه وجب أن تكون متقلبة تقلبًا متتابعًا.

ومع أن الأمر يقتضي أن يكون كذلك فإن أجزاء المعتقد الجوهرية تثبت إذا دوفع عنها دفاعًا مستمرًّا، وإلَّا فإنها لا تلبث أن تنحلَّ عُراها، والتاريخ أكبر شاهد على صحة قولنا؛ إذ هو مفعم بأنقاض معتقدات لم تَثبُت بسبب ذلك إلا قليلًا.

ولا يكفي لثبات المعتقد إثباته كتابةً؛ لأن الكتابة لا تفعل غير تبطئة زواله بفعل الزمن، فالمعتقد الديني أو السياسي أو الأخلاقي يثبت على الخصوص بتأثير العدوى النفسية والتلقين المكرر، ومن مقومات هذين الركنين نعد الصور، والتماثيل، والحج، والطقوس، والترتيل، والموسيقى، والوعظ، والإرشاد ... إلخ.

ولو نُفي المؤمن المتعصب إلى بادية ليس فيها ما يذكِّره بدينه لضعف إيمانه بسرعة، فالذي يجعل الزهاد والمبشرين حافظين لإيمانهم هو كونهم يتلون كتب الدين كل يوم، ويقضون أوقاتهم بالصلاة والتسبيح، والذين أوجبوا القساوسة أن يتلوا كل نهار كتاب الفرض الكنسي هم من الواقفين على أحوال النفس وتأثير التلقين والتكرار فيها.

وما من معتقَد يَثبُت إذا حُرم مقومات ثابتة يستند إليها، فلولا معابد الإله وصوره وتماثيله لفقد عباده، ولذلك سار هادمو الهياكل بغريزة صادقة عندما حطموا التماثيل ودكوا المعابد التي هي رمز إلى الآلهة التي أرادوا أن يمحقوها، وقد كان رجال الثورة الفرنسوية أيضًا على حق — بحسب ذهنيتهم — عندما حاولوا أن يقضوا على تأثير

الماضي بتخريب الكنائس والتماثيل والقصور، غير أن هذا التخريب لم يطُلْ عهده حتى يقدر على التأثير في المشاعر التي ثبتت بفعل الوراثة، والتي هي أمتن من رموزها الحجرية.

(٢) كيف تتطور المعتقدات؟

لا يعني ثبات المعتقدات على الوجه الذي ذكرناه أنها لا تتحول أبدًا، فهي بالعكس تتطور وإن كان أتباعها يزعمون خلاف ذلك، وسبب هذا الزعم تصريح الكتب المقدسة باستحالة تحريف الديانة التي تدعو الناس إليها.

حقًّا إن الواقع يثبت أن المعتقد سياسيًّا كان أم دينيًّا أم فنيًّا أم اجتماعيًّا لا يثبت منه سوى اسمه، وقد بيَّنت في كتابي المسمى «سر تطور الأمم» كيف تتحول الأناظيم واللغات والمعتقدات والفنون، ثم أثبتُّ أن هذه العناصر لا تنتقل من أمة إلى أخرى من غير أن يعتورها تبدُّل عظيم.

وعلى هذا فإن المعتقدات — مع ثباتها الظاهر الناشئ عن نصوصها القاطعة — تضطر إلى التحول لتلتئم بالتقلب الذي يطرأ على نفسية أتباعها والبيئات التي تتسرب فيها، والتحول المذكور يقع ببطء، ولكن متى تراكم هذا التحول بتعاقب الأزمنة بدا للعين أنه لا صلة بين نصوص الكتب أيام وضعها وبين تطبيقها على العمل عند تمام ذلك التراكم. خذ ديانة البراهمة مثلًا تَرَ أنها ابتعدت من كتب الهندوس المسماة «ڤيدا»، وكذا أمر الديانة البوذية.

ومع أنه يصعب تعيين النواميس التي يسير عليها تطور المعتقدات فإننا نذكر ما يأتي:

أولًا: قد يُجمع بين المعتقدات المتماثلة عند المصاقبة، وذلك كما يقع في آلهة الوثنيين ومعتقداتهم.

ثانيًا: إذا كانت المعتقدات متباينة فالقوي منها يقضي على البقية، لهذا السبب استطاع الإسلام أن يهدي — عدا قبائل أفريقيا المتوحشة — أمم الهند العريقة في التمدن.

ثالثًا: بعد أن يتم النصر للمعتقد ينقسم إلى فرق ومذاهب لا يحافظ كل منها على غير مبادئ المعتقد الأساسية.

ويجدر بنا أن نطنب في بيان الناموس الثالث؛ فهو يكفي لإيضاح الكيفية التي تتطور بها المعتقدات.

لقد لوحظ افتراق المعتقدات إلى فرق عقب انتصارها في جميع الديانات الكبيرة؛ كالنصرانية والإسلام مثلًا، والنصرانية — نظرًا لكونها أكثر الأديان تعقيدًا — ولدت كثيرًا من الفروق والمذاهب «كالمانوية، والأريوسية، والنسطورية ... إلخ» التي تطاحنت قرونًا عديدة، وقد زادت ثورة الإصلاح الديني هذا التطاحن شدةً، وما لبثت فرقة البروتستان أن انقسمت إلى مذاهب نذكر منها مذهب الإنغليكان، ومذهب (لوثر)، ومذهب (كالڤين) ... إلخ.

وبما أن المذهب الذي هو وليد الدين يطمع بحكم الطبيعة في التغلب على بقية المذاهب فإنه لا يلبث أن يصبح عديم التسامح كالدين الذي صدر عنه، ولذلك نعد من الخطأ والجهل بطبيعة المعتقد اعتبار ثورة الإصلاح الديني رمزًا لانتصار حرية الفكر، فقد كان البروتستان في أول الأمر أشد من الكاثوليك تعصبًا، وما أتى (لوثر) وخلفاؤه إلا بمبادئ جامدة مجردة من الحكمة، مشبعة من روح التعصب الذميم، ثم إن (كالڤين) قسم الناس إلى أخيار وضالين، فقال: يجب على أولئك أن يضطهدوا هؤلاء. وعندما أصبح سيد مدينة (جنيڤ) سامها سوء العذاب، فأسس فيها محكمة ضارعت محكمة التفتيش في ميلها إلى سفك الدماء، وقد أعدم مخالفه (ميشيل سيرڤيت) حرقًا بالنار.

وفي ملحمة الـ (سان بارتلمي) التي تجلى فيها الخصام الديني في فرنسا قُتل البروتستان، وأما في الأمكنة التي لهم الأكثرية فيها فأصبحوا من أشد السفاكين، وما كان أحد الطرفين أقل تسامحًا من الآخر في الدور المذكور.

وسبب الانقسام في المعتقدات هو أن كل امرئ يميل فيها إلى مبادئ تؤثر فيه أكثر من البعض الآخر، وبفعل هذا التأثير يحاول المؤمنون الذين لهم مزاج الرسول أن يقيموا كنيسة صغيرة، فإذا نجحوا في مسعاهم يكونون قد أسسوا فرقة جديدة لا تلبث أن تنتشر بالعدوى النفسية. ومما يعين على انقسام الأديان إلى فرق هو ما في الكتب المقدسة من غموض والتباس، فلهذا الغموض والالتباس يقدر كل عالم لاهوتي على تفسيرها وتأويلها حسبما يرى، ويفيدنا للوقوف على ذلك أن نتصفح الكتب التي بُحث فيها عن مذهب اليسوعيين، وأتباع (توما)، وأنصار (جانسينيوس) ... إلخ في العفو والغفران، حينئذ نرى كيف تتيه النفوس التي ران الإيمان على قلوبها.

ويظهر أن أولي العبقرية أيضًا يضلون عندما يدخلون في ميدان المعتقد، مثال ذلك: كتاب (ملبرانش) الشهير الذي سماه «التأملات»، ونال رواجًا سنة ١٦٨٤ حتى إنه بيع منه أربعة آلاف نسخة في أسبوع واحد؛ فقد جاء فيه: «إن الله هو الذي يشعر ويفكر ويسيِّر فينا، وهو الذي يحرك ذراعنا حتى في الأشياء التي نفعلها على رغم أوامره، وليس المرء هو الذي يرفع ساعده نفسه، وإنما الله هو الذي يرفعه وقتما يريد المرء ذلك، فالإنسان لا يقدر على الانفصال من الله الذي منحه إرادة جزئية، ومتى نفعل الخير فالله هو الذي يفعله بنا، ثم إن المرء مسؤول عن عمل الشر لا عن عمل الخير، فالشر يقع في العالم عندما يغفل الله عن صنعه، وهذا أمر لا ريب فيه؛ لأن الشر من عمل المجرمين.»

فهذه النصوص المتناقضة نعدها اليوم صبيانية، ولكن لا يغيبنَّ عن بالنا أن العالم قد تزعزع بمثلها مرات عديدة، وأضاليل كلامية مثل هذه لا تخص الماضي وحده، ففي الحال ما يعادلها، ولربما ظهر نظيرها في المستقبل؛ إذ إن معتقدات الوقت الحاضر السياسية التي تقضُّنا هي كتلك من حيث البطلان، وسوف تصفها الأجيال القادمة بجانب تلك.

وقد زعم المعتقدون في كل جيل أن إيمانهم قام على العقل غير عالمين أن ما فيه من القوة ناشئ عن كون العقل غير مؤثر فيه، وكل ما للعقل من التأثير في المعتقد الديني هو كونه يجعل المؤمن يعتبر أقاصيص الكتب المقدسة التي تناقض العلم الحديث رموزًا.

ولا يقع انقسام المعتقد إلى مذاهب متشاكسة في الأديان ذات الأرباب المتعددة، فهذه الأديان وإن كانت تتطور إلا أن تطورها يقع بانضمام آلهة جديدة إليها اعتبرت قادرة جديرة بالتحية والتعظيم، وذلك هو السبب في كون الحروب الدينية التي خربت أوروبا وضرجتها بالدماء لم تقع في القرون القديمة الوثنية.

إذن فإنه كان أوْلى بالشعوب أن تبتدئ حياتها بالإشراك، وإني خلافًا للرأي السائد أقول: إنها تنال خيرًا عميمًا لو بقيت مشركة، فالتوحيد بدلًا من أن يكون سببًا للرقي قد أوجب وقوع حروب كثيرة خضبت الأرض بالدماء، وعاقت الفنون والفلسفة والآداب التي أينعت في العصر اليوناني الوثني عن التقدم.

ولا يُعترض علينا بالقول إن التوحيد — مع ما يوجبه من حروب وإحراق بالنار، والإخراج من الديار، والنفي من الأرض — يؤدي إلى وحدة المشاعر أكثر من غيره،

فعبادة الوطن قد كفت لمنح الرومان المشركين أيام عظمتهم وحدةً في المشاعر لا يعلو عليها شيء.

ولو جارينا كثيرًا من المؤرخين والفلاسفة مثل (رينان) فاعتبرنا التوحيد أفضل من أية عبادة أخرى؛ لكان الإسلام، وهو دين التوحيد الوحيد على وجه التقريب، أفضل الأديان، أقول على وجه التقريب؛ لأن الأديان التي تدعو إلى التوحيد لم تكن في غير الكتب، فلو نظرنا إلى النصرانية مثلًا لرأينا أنها لم تلبث أن أضيف إليها طوائف من الملائكة والقديسين والجن هي بالحقيقة مثل الآلهة الثانوية القديمة في تقديسها وخشيتها، ثم إن تلك الأرباب المتعددة التي تسربت في أديان التوحيد، وانقسام هذه الأديان إلى فروق ومذاهب، تثبت لنا أن التوحيد مبدأ نظري لا يناسب احتياجاتنا العاطفية والدينية.

ولتطور المعتقدات الذي أشرنا إليه في هذا الفصل شأن كبير في التاريخ، وأما في الفلسفة فلا فائدة من التحديث به، فالمعتقد غذاء لما يتطلبه احتياجنا إلى الإيمان، وقد تبدل هذا الغذاء وسيتبدل، وأما الاحتياج فسيبقى بقاء طبيعة البشر.

الفصل الخامس

كيف تموت المعتقدات؟

(١) دور المعتقدات الخطر وانحلالها

عنوان هذا الفصل صحيح من الوجهة التاريخية أكثر منه من الوجهة الفلسفية؛ لأن المعتقدات — وهي تشبه الحركة التي بحثت عنها كتب الحكمة الطبيعية — تتحول أحيانًا، ولكن من غير أن تموت؛ أي إن المعتقدات تغير اسمها، وهذا التغيير هو الذي نسميه موتًا.

فبعد أن تشيخ المعتقدات ترد مورد السُنَّة العامة؛ أي سنة الخمود والانطفاء، وقبيل هذا الانطفاء، وبتعبير أصح: قبيل هذا التحول يظهر دورها الخطر؛ أي دور الانقلابات.

يثبت علماء الطبيعة أن الجرم عندما يدنو من دوره الخطر تؤثر فيه تقلبات الجو الحقيقية، فتحوله من غاز إلى مائع، ومن مائع إلى غاز، ويُشاهَد مثل هذا الدور الخطر في كثير من الحوادث الاجتماعية، مثال ذلك: كون القُطْر الذي يستورد ذهبًا وبضعة أنواع من السلع لا يلبث أن يصبح بفعل بعض المؤثرات الطفيفة ذا صادرات، وما يقع في عالم الطبيعة والاقتصاد السياسي يحدث مثله في عالم المعتقدات؛ أعني أنها متى تتقلقل، ويعمل فيها البلى والدروس تدخل في الغالب في طور الخطر؛ فتصبح مستعدة للتحول فجأة.

ويحدث هذا الطور الذي يتجاور فيه الشك واليقين عندما تتزعزع المعتقدات بفعل الزمان أو غيره، وذلك قبل أن يتم تكوين المعتقدات التي ستحل مكانها، وفي تلك الأثناء يرتبط أنصار المعتقدات بها ارتباط اليأس والقنوط، خائفين — كما قال (بوسويه) — «من الغم الذي يصيب الناس وقتما يضيعون حب الله».

والواقع أن هذا الحب لا يزول من قلوبهم؛ إذ ما من إله يموت إلا ويقوم مقامه إله جديد، غير أن الانتقال من عبادة إله إلى عبادة إله آخر لا يقع بسهولة، يؤيد ذلك ما حدث في الأزمنة التي انقرضت فيها الوثنية من الحادثات ذات الشأن العظيم.

واليوم نمر من جيل تتجاذب الشعوبَ فيه آلهتُها القديمة والآلهةُ التي لم يتم تكوينها بعد؛ ولذا كان زماننا من أدوار المعتقدات الخطرة، والروح الشعبية بينما تعتنق دينًا كبيرًا ثابتًا تتراوح الآن بين معتقدات هي على شيء من القوة مع كونها مؤقتة؛ إذ تدافع عنها جموع ولجان وأحزاب كثيرة، والدليل على تلك القوة ما لأندية الثورة الفرنسوية والجمعيات الماسونية من التأثير في أبناء الطبقات الوسطى، وما للنقابات من الشأن في صنوف العمال، وما للجان الانتخابات من النفوذ في المدن.

(٢) تحول المعتقدات الدينية إلى معتقدات سياسية

يظهر أن الجيل الحاضر قد غيَّر مقاييس القيمة، والحقيقة هي أنه بدل أسماءها على الخصوص، ويشكو أنصار العبادات الشائخة ضعف إيمان الأجيال الحديثة، مع أن الجموع لم تُظهر احتياجها إلى الاعتقاد كما تظهره اليوم، فالأيمان الديني بتحوله إلى إيمان سياسي لم يتبدل منه سوى شيء قليل، وما القدرة التي نعزوها الآن إلى الحكومة إلا من نوع القدرة التي كنا نعزوها إلى الآلهة.

إن المعتقد هو من عمل الإيمان، وتطبيق هذا العمل على موجود عالٍ أو ألوهية يعبر عن احتياج الإنسان إلى الخضوع والعبادة، فالمؤمن يميل بطبيعته إلى تأليه الشيء بالعبادة، ومن ذلك أن (مارا) الذي كان يجب أن تُقذف جيفته في بالوعة المرحاض لم يلبث أن أُلِّه بعد قتله، ووُضعت أوراد لتقديسه، وقد كان (نابليون) إلهًا قاهرًا لا يغلبه أحد في نظر جنوده.

ولا يكون المعتقد شعبيًّا إلا إذا دلَّ على موجودات أو أشياء تجب عبادتها، تجلى هذا الأمر أيام الثورة الفرنسوية حين فكَّر رجالها عندما نشبت في إيجاد آلهة تحل مكان الآلهة السابقة، فأقاموا في كنيسة «نوتردام» عبادة لآلهة العقل تماثل العبادة التي سار عليها الناس منذ قرون عديدة.

ولا ندرك حقيقة تلك الثورة إلا إذا اطلعنا على ما لتدين الشعب وزعمائه من الشأن الكبير في سيرها، فقد كان (روبسبير) الذي هو عنوان نفسية زمانه الدينية الضيقة يعتقد أنه رسول أُوحِيَ إليه أن يثبت دعائم الفضيلة، وأن يذبح أعداءها غير

راحم، وكان يذكر في خطبه اسم رب السماوات، وقد ماثلت محاكم الثورة المذكورة محكمة التفتيش بحقدها على من ليسوا على دين أعضائها، وإبادتها لهم شر إبادة.

أطنبت في بعض كتبي السابقة في بيان تطور الاشتراكية على شكل ديني، ولذلك لا أطيل البحث عن هذا التطور هنا، فالاشتراكية لو كان لها إله معين يعبده الناس لتم لها النصر بسرعة، وقد اطلع رسلها على تلك الضرورة بغريزتهم، ولكن لَمَّا لم يجرؤوا على مطالبة الشعب بعبادة (كارل ماركس) اليهودي الذي هو حَبْرها النظري ولَّوا وجوههم نحو إلاهة العقل، وقد نقلت في كتابي المسمى «روح السياسة» فقرة من جريدة «الأوانيته» الاشتراكية دلتنا على أن الأستاذ الشاب في (الصوربون) قرأ في حفلة افتتاح إحدى المدارس الاشتراكية موعظة دينية مخاطبًا فيها إلاهة العقل.

لم تستهوِ الآلهة المجردة قلب الجموع قط، ولذلك تفتقر الاشتراكية ذات المبادئ والتعاليم إلى رب تدعو الناس إلى عبادته، وليس عليها أن تنتظر كثيرًا ليتمثل لها هذا الرب؛ إذ الآلهة هي بنت الحاجة.

وما في الاشتراكية من قوة يشتق على الخصوص من كونها وارثة لتعاليم المسيحية، فقد استعارت مبادئ الاشتراكية من السلف النصراني المتعطش إلى المساواة وحب الغير والحقد على الأغنياء، ولذا أصبحت الكثلكة في بلچيكا حليفة الاشتراكية، فهي تستحسن فيها اعتصابات العمال علنًا، وتشجع على تنازع الطبقات.

وفي رسل الاشتراكية ما في أنصار النصرانية السابقين من توقد الروح، لا أشير بذلك إلى الرسائل والمقالات التي ينشرها عوام الاشتراكيين فقط؛ بل أشير أيضًا إلى ما نالوا من العلم قسطًا وافرًا، وقد أتيح لي أن أنقل في كتابي الأخير نبذًا من هذا النوع دبَّجها يراع أستاذ في مدرسة فرنسا «كوليچ دو فرانس» اعتنق الاشتراكية راغبًا في القضاء على الآلهة الباطلة، وبمطالعة تلك النبذ نستدل على أن العالم لا يدخل في دائرة المعتقد من غير أن يفقد اعتداله وصوابه، ولا فائدة من لومه على ذلك، فللمعتقد على المرء، أيًّا كان، سلطانٌ قاهر تتعذَّر مقاومته، والمعتقدات دائمة كانت أم مؤقتة هي أكثر العوامل تأثيرًا في حياة الشعوب، والشعب لا يتم حكمه بمبادئ حقيقية، بل بمعتقدات يؤمن بأنها حقيقية. ولو ظهر (بيلاطس) في هذه الأيام لما طرح السؤال الذي لم يُجِب عنه فيلسوف، ولقال إن الحقيقة هي ما يعتقده المرء. فكل اعتقاد حقيقة. أجل، إن الحقيقة المذكورة مؤقتة، ولكن العالم قد سار حتى الآن بحقائق من نوعها.

الباب التاسع

مباحث تجريبية في تكوين المعتقدات وما ينشأ عنه من حوادث غير شعورية

الفصل الأول

تدخُّل المعتقدات في أمر المعرفة

تكوين الأوهام العلمية

(١) لماذا تظل المعرفة مشوبة بالمعتقدات؟

لا يقدر عالم على الافتخار بأنه خرج من دائرة المعتقد خروجًا أبديًّا، فهو مكره في الحوادث التي لم تعرف تمامًا على إيجاد نظريات وفرضيات؛ أي معتقدات لا يسلم الناس بها إلا لما له نفوذ وتأثير.

وقد نضطر أيضًا إلى التسليم بالحوادث التي دُرست كثيرًا، كما نسلم بالمعتقدات عندما لا نستطيع أن نحققها جميعها، ولو نظرنا إلى تربيتنا المدرسية لرأينا أنها عبارة عن الإيمان بمبادئ لم تدخل في نفوسنا إلا بنفوذ الأستاذ، وإذا دعمها الأستاذ أحيانًا بالتجربة فذلك ليبين للطالب إمكان تحقيقها بالتجربة، وليعلمه أن الاختبار والتجربة هما أساس الحقائق.

إن تحقيق معارفنا جميعها بالتجربة متعذر تعذرًا يجعل نصيحة ديكارت في كتابه «قواعد الأصول» خيالية وهمية؛ فقد قال: «لا تسلم بصحة شيء ما لم تعرف أنه كذلك، وارفض كل شيء ترتاب فيه.» ولو طبق (ديكارت) قواعده على العمل لما صرَّح بأقوال نسخر منها الآن، فالمعتقد هو الذي ران على قلبه كما ران على قلوب كثير من معاصريه وخلفائه، حقًّا إن اللاأدرية المتطرفة هي في الواقع لا تشك إلا قليلًا، قال (لوك): «من يشك في أمور حياته العادية التي لم تؤيدها الأدلة والبراهين لا بد من هلاكه في وقت قصير؛ لأنه بذلك لا يجرؤ على الاغتذاء بطعام ولا بشراب.»

وأضيف إلى هذا قائلًا: «إن المجتمع لا يعيش بتحليل آرائه ومعتقداته تحليلًا انتقاديًّا، وليس شأن المعتقد سوى كفاية المجتمع مؤونة مثل ذلك التحليل.»

وبما أن العلماء يضطرون إلى التسليم بكثير من القضايا العلمية كما يسلمون بالمعتقدات فإننا لا نعجب مما يبدو عليهم أحيانًا من السذاجة كما يبدو على الجهلة الأميين، فالعالِم قلما يكون أسنى من الجاهل في الأمور التي ليست من دائرة اختصاصه، وبهذه الملاحظات ندرك السبب في كون أفاضل العلماء يؤمنون بأشد الأوهام خطلًا.

(٢) تكوين الأوهام العلمية

يتعذر تكرير جميع التجارب، ولذلك يبقى مبدأ نفوذ العالم وتأثيره مرشدنا الأساسي كما ذكرت آنفًا؛ فالناس يؤمنون بالعالِم الذي اكتسب من مقامه العلمي نفوذًا كبيرًا، فيظنون أنه لا يأتي بمزاعم مختلَّة يتعرض فيها للتكذيب.

حقًّا إن العالم لا يخبر بشيء يراه غير صحيح، غير أن الوهم قد يتطرق إليه بتأثير التلقين — حتى في الأمور المضبوطة — فيظن الأضاليل التي أملتها عليه مخيلته حقائق، وأكبر دليل على ذلك حكاية أشعة (N) التي كان أشهر علماء الطبيعة يقيسون انحرافها، مع أنه ثبت بعد ذلك أنه لا أساس لتلك الأشعة.

وقد أسهبت في بيان هذا الموضوع؛ لأنني بإظهاري الخطأ في مباحث علم الطبيعة — التي يتوخى العلماء الضبط والدقة في درسها — أوضِّح السهولة التي تستحوذ بها الأوهام على النفوس إزاء حوادث لا تنالها يد التحقيق إلا قليلًا، وإني أختار أمثلة تشاهَد في العلماء وحدهم؛ لأثبت أنه بتأثير النفوذ والتلقين والعدوى يحدث في جميع الناس، ومنهم أولو المدارك السامية، معتقدات وآراء مختلة.

ومن تلك الأمثلة المؤثرة الضلالُ الذي وقع فيه أعضاء المجمع العلمي منذ أربعين سنة، وحمل (ألفونس دوده) على هجو ذلك المجمع في رواية سماها «الخالد»، فقد نشر هذا المجمع مئات من الرسائل التي نسبها أحد المزورين قصيري الباع في الأدب إلى (باسكال)، و(غليله)، و(كاسيني)، وغيرهم، وحازت القبول مع ما فيها من الأغلاط الكثيرة والسقطات الكبيرة؛ نظرًا لنفوذ المؤلفين المنسوبة إليهم، ونفوذ المهندس العالم الذي عرضت بواسطته، ولم يشك أعضاء المجمع حتى سكرتيره في صحتها، وظلوا على ذلك حتى اعترف لهم المزوِّر بأنه هو الذي لفَّقها، وحينئذ زال النفوذ، وأعلنوا أن أسلوب الرسائل ركيك جدًّا بعد أن عدوه من أفصح الأساليب، وقالوا: إنه خليق بأولئك المؤلفين.

قد يقال إنه يصعب على أولئك الأعضاء أن يحققوا أمرًا ليسوا متخصصين به، فحكموا حسبما لزميلهم من التأثير والنفوذ! نجيب على ذلك بأن نبين أن أعضاء المجمع العلمي المتخصصين قد انخدعوا فيه أيضًا، ثم إن الاعتراض المذكور يزول عند البحث في حوادث جديدة أخرى ضل فيها رجال متخصصون دون غيرهم.

ومن أوهام النفوذ والعدوى ما فصَّله منذ خمس عشرة سنة الموسيو (بيكريل) — أحد مشاهير علماء الطبيعة، وأستاذ الحكمة الطبيعية في مدرسة «البوليتكنيك» — في مجمع العلوم؛ قال: «لقد ثبت من تكرار التجارب الدقيقة أنه يصدر عن معدن الأورانيوم أشعة تستطيع أن تزيغ وتنحرف وتنعكس كأشعة الأجسام الفوسفورية.» وعلى رغم ما أبداه أحد علماء الطبيعة في فرنسا — المعروف عند قرَّاء هذا الكتاب — من الأدلة المخالفة أصر ذلك العالم المشهور على رأيه مدة ثلاث سنوات، وشاطره خطأه في أثناء ذلك جميع علماء أوروبا، وما اعترف العلماء بخطئهم إلا بعد أن أثبت أحد علماء أميركا — الذين لم يؤثر فيهم باطل العالم المذكور لبعد الشقة بين البلدين — أن تلك الأشعة لا تنحرف، ولا تنعكس، وأنها شيء غير الضياء، فلو بحثنا عن أسباب ذلك الخطأ الذي ران على العلماء ثلاث سنين لرأينا أنها نفسية بحتة.

وتاريخ أشعة (N) التي ألمعنا إليها آنفًا بارزٌ، يتجلى فيه شأن النفوذ والتلقين والعدوى النفسية، وليست حكاية هذه الأشعة كحكاية الأمثلة السابقة التي سلَّم بها الناس من دون تحقيق، بل صرَّح كثير من علماء الطبيعة بأنهم حققوا أمرها بالتجربة.

ظن أحد أساتذة الحكمة الطبيعية المشهورين الموسيو (بلوندلو) أنه شاهد كثيرًا من الأجسام تنشر أشعة خاصة نعتها بأشعة (N)، يمكن قياس تموجها بضبط ودقة، وبما أن العالم المذكور ذو نفوذ كبير سلَّم أكثر علماء فرنسا بصحة زعمه غير مجادلين، وقد كرروا التجربة ذاتها بأنفسهم فرأوا صحة ما تلقنوه، ثم إن مجمع العلوم رأى أن يكافئ صاحب ذلك الاكتشاف الخطير فأوفد كثيرًا من أعضائه — ومنهم العالم الطبيعي (ماسكار) — إلى المكتشف كي يحققوا عنده صحة مباحثه، فعادوا مشدوهين بما شاهدوه منه، ومنحه المجمع جائزة قدرها خمسون ألف فرنك.

وفي أثناء ذلك أتى العلماء الأجانب الذين لا تأثير لعلماء فرنسا فيهم بتجارب مكررة في الموضوع فلم يظفروا بشيء، وعندئذ عزم عدد غير يسير منهم على شد الرحال إلى المكتشف ليختبروا الأمر أمامه، وسرعان ما علموا أن هذا الأخير ذهب ضحية أوهام تطرقت إليه من قياسه انحراف أشعة (N) بمنشور من زجاج، وعلى أثر ذلك

قامت «المجلة العلمية» ببحث ضافٍ في المسألة، فظهر أن أشعة (N) هي نتيجة للتلقين والعدوى، وأنه لا وجود لها.

تدلنا هذه القصة العجيبة على ما للنفوذ والتلقين والعدوى من السلطان الكبير، وبها تتضح لنا كيفية تكوين المعتقدات، وكثير من الحوادث التاريخية، وجميع حادثات السحر؛ فالناس يُسحرون بالتلقين، وإذا كان تأثير التلقين في المسائل العلمية هو كما وصفنا فما أحرى به أن يكون عظيمًا في إحداث أمور خارقة للعادة.

لم أبحث هنا إلا عن أوهام علمية شهيرة، ولو ذكرت ما تسرب في مختلف المسائل العلمية من الأوهام التي مصدرها النفوذ لاستوعب ذلك سِفرًا كبيرًا، ولذا فإني أقتصر على إيراد المثال الآتي:

اعتقد أحد طلاب الموسيو (ليمان) أنه اكتشف أن الجسم المكهرب وهو في دور الحركة لا يجتذب الإبرة المغناطيسية، وقد كان أمر هذا الطالب مجهولًا، ولكنه لما أتى بتجاربه في حضرة الموسيو (ليمان)، واستعان بنفوذه العلمي العظيم، اتَّبعه جميع علماء الطبيعة إلى أن أثبت أحد علماء الأجانب أن الطالب وأستاذه كانا على ضلال.

وأكثر ما تكون الأوهام في العلوم التي هي في طور التكوين — كعلم الطب مثلًا — حيث يصعب تحقيقها، فتعدادها عبارة عن تدوين لتاريخ الطب، وإثبات لكون النظريات والأدوية تتغير في كل خمس وعشرين سنة، وإني أختار المثال الآتي كدليل على ذلك:

كان الأطباء منذ خمسين سنة يعتبرون معالجة ذات الرئة بالفصد من أهم ما اكتشفه فن الطب، وقد استندوا في ذلك إلى الإحصاءات التي دلت على أن عدد الوفيات من المصابين بالداء المذكور — بعد معالجتهم بالفصد — هو ثلاثون في المائة، وقد استمر استعمال طريقة الفصد إلى أن زار طبيب ماهر أحد مستشفيات لندن؛ فحقق فيه أن عدد الوفيات من المصابين بذات الرئة هو خمسة في المائة بدلًا من أن يكون ثلاثين في المائة، وأن علة هذا النقص في الوفيات هي أن الأطباء يعالجون المرضى هنالك بعدم التعرض لهم بدواء.

وإني لأرجو أن يكون القارئ قد اقتنع من الأمثلة السابقة بأنه يجب نعت أكثر آرائنا العلمية بالمعتقدات لا بالمعارف؛ فالآراء المذكورة التي هي من فصيلة المعتقدات تتكون بفعل بعض المؤثرات؛ كالنفوذ، والتوكيد، والتلقين، والعدوى، وغيرها من العوامل البعيدة من العقل، والتي هي ذات سلطان أكبر من سلطانه.

الفصل الثاني

تكوين المعتقد في الوقت الحاضر

السحر

(١) فائدة البحث التجريبي في تكوين المعتقد

بينَّا منذ بدأنا بهذا الكتاب صعوبة إيضاح الكيفية التي تتكون وتنتشر بها المعتقدات الكبيرة التي سيَّرت البشر قرونًا طويلة، ولا تزال تسيره، وقد حاولنا أن نحل هذه المسألة نظريًّا مستعينين بطرق مختلفة، وسوف لا نألو جهدًا في تطبيق المبادئ التي شرحناها على معتقدات ظهرت أخيرًا، متخذين المذهب الروحاني الحديث — ذا المعجزات التي ضاهى بها الأديان السابقة — مثالًا لها، وبعدما نرى أمورًا باطلة غير محتملة سلَّم بصحتها عند حدوثها كثير من أفاضل العلماء يتضح لنا تجريبيًّا أنه لا شأن للعقل والذكاء في تكوين المعتقدات، وأن عناصر العاطفة والتدين التي شرحناها عندما بحثنا عن أنواع المنطق المختلفة هي التي تؤثر في ذلك التكوين.

وسيكون استدلالي مستقلًّا عن قيمة معتقدات الروحانيين، صارفًا همي على الخصوص إلى المسائل التي قال بصحتها علماء كثيرون، مع اعتراف أنصارها مؤخرًا بأنها وهمية باطلة، ومنه يتضح أن المختبر يؤمن — بعد أن يدخل في دائرة المعتقد — بالمستحيلات، ويكون أحيانًا مثل الهمج في سذاجته، وسرعة تصديقه.

وسنستنبط من هذه البرهنة، ومن المبادئ التي فصلناها في هذا الكتاب، أدلة حقيقة تتضح بها كيفية ظهور المعتقدات وانتشارها اتضاحًا تجريبيًّا، ولكي نصل إلى ذلك نبدأ في البحث عن المعتقدات السابقة التي اشتق منها المذهب الروحاني الحديث.

(٢) السحر في القرون القديمة وفي القرون الوسطى

تعطَّش الإنسان في كل وقت إلى كشف مصيره، وإلى نيل معونة من قوى علوية يعتقد أنها محيطة به، ومن هذا التعطش بدت أنواع السحر المختلفة، ولقد تعاطت الشعوب جميعها فن السحر في جميع أجيال التاريخ، فزاول الناس في القرون القديمة استدعاء الموتى والتنجيم والكهانة التي هي من فروع السحر مزاولة مستمرة.

والكهانة أي العرافة — التي استندت إلى وسائل متعددة، ولا سيما إلى أجوبة من الآلهة يفسرها أناس هم كالوسطاء في الوقت الحاضر — هي أكثر أنواع السحر القديم شيوعًا، والسحر في روما كان دينًا للدولة ذا كهنة عُهد إليهم بتفسير الحوادث، وقد تمتع هؤلاء الكهنة بنفوذ عظيم، حتى إن قادة الجيوش كانوا لا يباشرون القتال قبل أن يستشيروهم، وكثيرًا ما نقضت قوانين ونُظم بعد أن أبدوا رأيهم فيها، وما ألغيت جمعية العرافين في روما إلا في القرن الرابع بأمر من الإمبراطور (تيودوز)؛ أي أيام استفحل شأن الديانة المسيحية.

كان إيمان القدماء بالنبوءات المعزية إلى الآلهة عامًّا، وقد كان لإله مدينة «دلف» شأن كبير من هذه الجهة، فكان الناس يفدون إلى تلك المدينة من جميع أقطار العالم ليستشيروا الإله المذكور، ثم صمت هتاف تلك الآلهة، وغاب سحر العالم الوثني عن الوجود وقتما تم النصر للدين النصراني، ثم عاد السحر في القرون الوسطى، وما شأن السحر في تلك القرون بالأمر المجهول، فعلى رغم حرق السحرة بالألوف لم يستأصل الحرق شأفتهم، والزمان لا العقاب هو الذي قطع دابرهم.

إن أعمال السحر التي أعمت القرون الوسطى هي أدعى الحوادث للعجب، وهي أقل الأمور إيضاحًا من قبل علم النفس في الماضي، ومع ذلك نرى أن للتلقين والعدوى النفسية شأنًا كبيرًا في حدوثها؛ وذلك لأن الشهادات في مختلف القضايا التي أقيمت في كثير من البلدان متطابقة، وأوجه الوصف للشيطان متماثلة، وكيفية اجتماع السحرة به متشابهة.

ويظهر أن المنفعة الشخصية لم تؤثر في أولئك المتهوسين؛ إذ الشيطان لم يمنَّ عليهم بغير ما هو زهيد تلقاء ما يعرِّضون له أنفسهم من أنواع العذاب، وقلما كان القضاء يلجأ إلى استنطاقهم بالدهق والعذراء كي يعترفوا له بجناياتهم، فالمتهمون كانوا يصفون بوجه باشٍّ كيفية اجتماعهم بالشيطان، ومن هذا الوصف أن الشيطان كان يظهر لهم على شكل ضفدع، أو هِر، أو كلب أسود، أو تيس ... إلخ، وكان يطعم

أنصاره طعامًا من الجيف، وأنهم فضلًا عن رقصهم مع الشياطين ومجامعتهم لهم كانوا يجلدون الضفادع الضخمة ليرغموها على إراقة سائل لزج ضارب إلى الخضرة ليصنعوا منه مراهم ومساحيق.

واستمر فن السحر قرونًا كثيرة، ولم يشك القضاة في أثناء ذلك في صحة ما يُقص عليهم من وجود طقوس سحرية، غير مدققين في السبب الذي يدفع كثيرًا من الناس إلى بيع روحهم إلى الشيطان تلقاء لذَّات دنيئة، كأكل الجيف ليلًا في أرض بور، وكيف يرتابون من ذلك والمتهمون كانوا يقرون بجناياتهم؟ ولهذا الإقرار كانوا يحرقون السحرة من دون أن يبكِّتهم ضميرهم، وقد حرقوا في دوكية (لورين) وحدها أربعمائة ساحر في عشرين سنة.

وليس من الإنصاف أن نعزو إلى من ذهبوا ضحية السحر، أو ما شابهه من المعتقدات مزاجًا نفسيًّا بعيدًا كل البعد من مزاج رجال الوقت الحاضر؛ لأن سذاجة هؤلاء عظيمة كسذاجة أولئك، وإن بدلت شكلها، فالسحرة في القرون الوسطى وسحرة السياسة ذوو الوعود الخلابة الوهمية في هذه الأيام، ومستخدمو الأرواح، وزاجرو الطير، وضاربو الرمل، والمنوِّمون تنويمًا مغناطيسيًّا جميعهم من فصيلة واحدة، فليس ما هو مستحيل في هذا العالم الخادع، ولا فرق بين ما فيه من التهوس وبين الأحلام التي نراها أحيانًا في المنام.

نعم، أخذ البشر يتحرر قليلًا من ربقة تلك المنطقة المخيفة، ولكن بما أن هذا الخلاص حديث غير تام فإن قوة تأثير الوراثة ترغم البشر على العودة إلى تلك المنطقة على الدوام، وإذا تلفت المرء بعد مجهود كبير من ميدان المعتقد فإنه لا يلبث أن ينجذب إليه، وقد جرب ذلك كثير من العلماء بأنفسهم، فلما تذرعوا بوسائلهم ومناهجهم الخاصة ظنوا أنهم قادرون على التخلص من المؤثرات التي يتهوس بها ذوو النفوس الضيقة، غير أنهم سرعان ما خُدعوا مثل أبسط المعتقدين، ولم تنفعهم وسائلهم العلمية إلا بإلباس بعض الأوهام شكلًا غير حقيقي.

(٣) السحر في الأزمنة الحاضرة وحوادث تجسيم الأرواح

يظهر أن الإيمان بالسحر قد تلاشى أمام تقدم الأفكار العلمية، فلما جُرد السحرة من نفوذهم خسروا اعتبارهم إلا في بعض القرى، غير أن حب الاطلاع على الأسرار، والاحتياج إلى التدين، وأمل الحياة بعد الموت، هي مشاعر قوية لا تموت أبدًا، ولذا رجع

السحر القديم باسم جديد من دون أن يطرأ على الأساس تغيير كبير، فهو يُدعى اليوم تجسيم الأرواح واستدعاؤها، ويسمَّى العرافون وسطاء، وتُدعى الآلهة أرواحًا.

احتقر العلماء هذا المعتقد الجديد زمنًا غير قصير، ولكننا نرى أنفسنا منذ عشرين سنة إزاء حادث مفاجئ؛ وهو أن أساتذة عبقريين أصبحوا يدافعون بحماسة عن جميع أنواع السحر، على هذا الوجه نسمع أن بعض علماء تاريخ الإنسان الطبيعي المشهورين مثل (لومبروزو) يقولون مؤكدين إنهم استدعوا الأرواح وحادثوها، ونرى بعض علماء الكيمياء مثل (كروكس) يقولون إنهم عاشوا شهورًا طويلة مع أحد الأرواح، ونسمع بعض أساتذة علم وظائف الأعضاء مثل (ريشه) يزعمون أنهم شاهدوا محاربًا على رأسه خوذة يخرج من جسم فتاة، ونرى بعض علماء الطبيعة مثل (دارسونڤال) يدعون أن وسيطة قد تصرفت بثقل أحد الأشياء حسبما أراد.

لا ريب في أن هنالك علماء ليسوا أقل شهرة من أولئك ينكرون تلك المشاهدات التي يقولون إن التهوس مصدرها، ويسخطون على رجوع الناس إلى دور السحر والخرافات، إلا أن الجمهور المتعلم يبقى حائرًا أمام هذه المتناقضات وهو يسأل: أَمِن المحتمل أن يتيه أولئك العلماء في دياجير الضلال؟ ولماذا يقول بعض العلماء بصحة أمور يزعمون أنهم شاهدوها مع أنه لم يشاهدها البعض الآخر على رغم تذرع هؤلاء بمثل ما تذرع به أولئك من الوسائل والأحوال؟

لا يمكننا إدراك ذلك إلا إذا تعمقنا في البحث عن كيفية تكوين المعتقدات، وعن شأن التلقين والعدوى في الجماعات، ومما يجدر ذكره أن الوهم قد يشتد في بعض الأحوال حتى يختلط بالحقيقة.

ولكي أثبت سذاجة بعض العلماء المتناهية بعد أن يدخلوا في ميدان المعتقد أذكر حادثة تجسيم الأرواح التي أمعنوا في درسها، فما هو تجسيم الأرواح؟ قال الدكتور (ماكسويل): «إن التجسيم هو عبارة عن قدرة الروح — سواء أكانت روح ميت أم روح حي — على إفراز سائل من أعضاء الوسيط لا يمكن وزنه، قابل للتكاثف، فهذا الجوهر الذي يتحول إلى مادة كثيفة يكتسي أشكالًا مختلفة حسبما تريده الروح، وفي الغالب تكون هذه الأشكال مماثلة لجسم تلك الروح.»

ويروي الروحانيون أنه يحيط بجميع الأعضاء غشاء من جوهر لطيف؛ أي إن للإنسان — عدا جسمه المادي — جسمًا سماويًّا يفترق أحيانًا عنه بعد الموت، فهذا الجسم السماوي يتجسم تجسمًا ماديًّا عندما يستعير من أحد الأجسام الحية — كجسم

الوسيط مثلًا — عناصر مادية، ومن الطبيعي أن يكون إيضاح الروحانيين مبهمًا، مختلفًا باختلاف مخيلة كل واحد منهم، وإنما الذي نستنبطه من أقوالهم في مجموعها هو أنه قد يظهر بغتةً من الجسم الحي جسم آخر كالجسم الأول في أعضائه وهيئته، فإن (كاتي كينغ) الذي أخرجه الكيماوي (ويليام كروكس) كان له قلب ذو نبض معتدل، وكانت رئتا الإنسان ذي المغفر الذي أخرجه (ريشه) تفرزان حامض الفحم كبقية الناس، ولو أن هذين العالمين الشهيرين وغيرهما من العلماء الذين سنتكلم عنهم لم يذهبوا ضحية الغش والتدليس لحق لهم أن يفتخروا بأنهم شاهدوا معجزات كالتي أخرج بها رب سفر التكوين حواء من جسم آدم.

ومن دواعي الأسف أن تلك الأشباح كلما بُحث فيها بحثًا دقيقًا تبين أنها صادرة عن تدليس، ولو لم تغرَّ كثيرًا من أولي النفوس السامية لالتزمنا الصمت عنها.

إن منشأ أوهام العالمَيْن المذكورَيْن، وغيرهما من العلماء الذين قالوا مثل (لومبروزو) إنهم استدعوا الأموات وحادثوهم هو التلقين والتدليس، ويمكننا أن نطلع على تأثير التدليس بما وقع حديثًا لـ (ميلر) الشهير الذي أظهر أشباحًا كثيرة تكلمت مع الحضور ولامستهم، غير أن (ميلر) الذي اعتمد على سذاجة الحضور المتناهية تراخى في اتخاذ بعض التدابير الاحتياطية، فافتضح أمر تدليسه في الحال، واضطرت صحف استدعاء الأرواح التي نشطته في البداءة إلى الاعتراف بخطئها وضلالها.

وليس ما عرض لـ (لأناروث) بأقل من ذلك، فقد اشتهر أمر (أناروث) في برلين حتى اكتشف بعض الشُرَط الماهرين حيلها، فرافعوها إلى القضاء؛ فحُكِم عليها بالسجن ثمانية عشر شهرًا، وقد أطنب الدكتور (ماكسويل) في بيان حكايتها، وإني أقتطف منه العبارات الآتية وهي:

> كانت هذه الوسيطة تكوِّن في المجتمعات العامة الحافلة حسب طريقة تجسيم الأرواح أزهارًا، فكانت هذه الأزهار تتساقط على أطرافها وبين يديها، وتظهر فجأة على أكتاف الحاضرين، وقد استمرت على هذا الأمر سنوات طويلة؛ فأوجبت زيادة عدد القائلين باستدعاء الأرواح وتجسيمها كثيرًا، فخشي البلاط عاقبة الأمر، وقد اتفق في إحدى الليالي أن ألقى بعض الشُرَط أنفسهم في تلك الوسيطة في أحد المجتمعات فرأوا أن الأزهار التي زُعم أنها تتكون على الوجه المذكور ليست بالحقيقة سوى أزهار طبيعية مخبأة تحت ثوبها.

والوسيطة (أوزابيا) التي دعاها «معهد العلوم النفسية» في باريس كي يطبق طريقة تجسيم الأرواح في اجتماعات كثيرة لم تجرؤ على فعل ذلك إلا قليلًا؛ نظرًا لشعورها بمراقبة الناس لها مراقبة شديدة، غير أنه اتفق في إحدى المرات أن قدرت على تخليص يديها من أيدي المراقبين فحوطت رأس أحد الحضور بذراع قالت إنها ذراع أحد الأشباح، مع أن مصدر تلك الذراع الحقيقي لم يلبث أن عُلم.

وعندما أقامت الوسيطة المذكورة في مدينة «نابولي» وأحست أن يد المراقبة والاحتراز غير شديدة فيها، ورأت أنها تشتغل بين أناس ذوي اتكال وتسليم أتت بالغرائب:

قامت هنالك بإتمام الحوادث العجيبة التي سأقصها في حضرة الأستاذ (بوتازي) الذي هو من أفضل علماء إيطاليا، وفي حضرة كثير من علية القوم، وقد اقتنع الأستاذ المشار إليه ومعاونوه بأنه من الممكن أن يخرج من جسم الوسيطة (أوزابيا) ذراع ويد غير منظورتين، تستطيع بهما أن ترفع خوانًا وزنه اثنان وعشرون كيلو، وأن تنقل أشياء كثيرة من محلها، وهكذا سلَّم (بوتازي) المتخصص بعلم وظائف الأعضاء بأن أعضاء لا تدركها الأبصار قد تتكون بغتةً، وتقوم بأفعال كالتي تقوم بها أعضاء الإنسان العادية.

ثم قال (بوتازي) إنه رأى مع معاونيه — عدا الذراع واليد غير المنظورتين — رأسًا منظورًا يخرج من جسم الوسيطة، وأيديًا وأصابع منظورات، وأن هذه الأيدي — منظورة كانت أم غير منظورة — لمست الحاضرين لمسًا خفيفًا، وأنها وضعت على الخوان على آلة الطرب البعيدة منها ستين سنتيمترًا، ودورت بها زر مصباح كهربائي، وقد ختم (بوتازي) كلامه بقوله إنه شاهد في الاجتماع نفسه خروج وجهين بشريين شاحبي اللون من الوسيطة.

وروى الدكتور (فينزانو) والأستاذ (مورسيلي) — وهما من علماء إيطاليا المعروفين — أن تلك الوسيطة أتت بأمور مماثلة لما ذكرنا، ومنها «خروج امرأة تضم بين ذراعيها طفلًا ذا شعر قصير»، وعندما سئلت الوسيطة المذكورة عن تلك المرأة أجابت: «إنها أم مدام إفيلينو، وأن الطفل حفيدها.» ومما ذكره ذانك العالمان أن بهو الاجتماع كان آنئذ مُنَوَّرًا بغاز كثيف، وقد قصدا بذلك أن يبينا أن النور لا يمنع الأشباح من الظهور كما يزعم مستخدمو الأرواح. وعندي أن الأشباح تظهر في كل حال إذا كان الحضور مشبعين من إيمان شديد، أقول ذلك وأنا أعتقد مع الوسطاء أن الظلام البهيم أنفع من النور في نمو المعتقد وانتشاره.

لقد اختلفت نتائج التجارب التي قامت بها الوسيطة (أوزابيا) باختلاف البلدان والمشاهدين، فكانت هذه النتائج في إيطاليا خارقة للعادة، ولم يأتِ السحرة الذين جاء ذكرهم في الأساطير بمعجزات أعظم منها، وقد تجلى نجاحها في فرنسا بحسب البيئات ومزاج الحاضرين النفسي، فكان باهرًا في مجالس العوام، وضعيفًا في محافل العلماء، وأما في إنكلترا فلم تؤدِّ تلك التجارب إلى نتيجة؛ ذلك لأن اللجنة التي عينت لفحص الحوادث المذكورة حكمت بأنها قائمة على التدليس.

صرح الموسيو (دارسونڤال) في حديث تناقلته الصحف أنه يعتبر حوادث تجسيم الأرواح جميعها تدليسًا وشعوذةً، وبيَّن معهد العلوم النفسية أن حوادث تجسيم الأرواح التي فحصها لم تكن خالية من شائبة الغش والحيلة، وقد توصل الموسيو (داستر) العضو في المجمع العلمي وأستاذ علم وظائف الأعضاء في كلية (الصوربون) إلى مثل هذه النتيجة؛ إذ اختبرتُ معه في بيتي الوسيطة التي جربها معهد العلوم النفسية، فرأينا في وسط النهار يدًا تخرج من رأسها مرات عديدة، ولكن لما راقبنا كتفيها بجهازي الذي أعددته لتتبع جميع الحركات ثبت لدينا أن تلك اليد هي بالحقيقة يد الوسيطة الطبيعية، وحينما تنبأت (أوزابيا) بأنها صارت محلًّا للشبهة والارتياب انقطع ظهور اليد المذكورة انقطاعًا تامًّا.

إن نتائج هذا الفصل هي من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى تفصيل، فالموقن يبقى موقنًا، والمرتاب يظل مرتابًا، ولا شأن للعقل في ميدان الإيمان.

(٤) ما هو السبب في تكوين المعتقدات السحرية؟

تبيَّن مما تقدم شأن التلقين والعدوى النفسية في الحوادث الخارقة للعادة القائمة على السحر، وتأثيرهما في أرباب النفوس العالية.

غير أن ذلك الشرح لا يكفي، فلإدراك سر المناهج الدينية التي سارت عليها الشعوب في غضون القرون يجب أن لا نفسر بالعقل أمورًا لم يملِها العقل أبدًا، كما أنه يجب أن نعد أنواع السحر كلها مظهرًا لروحنا الدينية التي لا تفارقنا، والتي بيَّنا قوتها وسلطانها.

وما مؤسسو الأديان، والرقاة، والسحرة، والعرافون، وجميع ناشري الأوهام التي جذبت قلوب البشر أو هالتها في كل زمن إلا قساوسة إله مهيمن يلوح لنا أن عبادته ستظل أبدية، فإذا نظرنا إلى ما أقيم من المباني المقدسة منذ ثمانية آلاف سنة في

مختلف الأقطار والأمصار، وسعينا في اكتناه القوى الخفية التي دفعت الناس إلى تشييد المعابد والهياكل والكنائس والمساجد نرى أن سببها الأمل الذي هو إله الأمم الواحد وإن اختلفت الأسماء.

الفصل الثالث

طرق البحث التجريبي في بعض المعتقدات وفي أنواع الحوادث التي زعموا أنها خارقة للعادة

(١) نقص طرق الاختبار العادية

إن الأوهام التي ذهب ضحيتها العلماء الذين درسوا حوادث استخدام الأرواح تثبت لنا أن طرق الاختبار المفيدة في ميدان المعرفة لا تنفع في ميدان المعتقد، نقول إنها لا تنفع لأن العالم يرى نفسه حينئذ في أحوال استثنائية يجب عليه فيها أن يبطل عمل التدليس المتوالي الذي لا صلة بينه وبين تجارب العلم العادية، وأن يقاوم الأوهام التي لُقِّنها.

فلكي نصل إلى بعض النتائج يقتضي تجديد طريقة البحث في الحوادث التي يجدر اتخاذها أصلًا لبعض المعتقدات، وبما أن هذا الموضوع يخرج قليلًا من دائرة هذا الكتاب، فإنني أكتفي بإيجاز السبب في كون الطرق المزاولة حتى الآن لا قيمة لها، مبينًا المواضيع التي تفيد فيها طريقة الاختبار العادي.

ونلاحظ قبل كل شيء أن المؤمنين بحوادث السحر يقولون إنها لا تقع متى أردنا؛ إذ ليس على الآلهة الموجبة لها أن تسير حسب أهوائنا، فالمشتري يرسل الصواعق متى شاء، وإله البحر يثير الموج ويسكِنه غير ملتفت إلى دعاء الربابنة والملاحين.

غير أن استحالة التنبؤ بإحدى الحادثات لا يمنع الإنسان من فحصها فحصًا علميًّا عند ظهورها؛ ولذا نرى أن الصعوبة التي لاحظناها ليست على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة إلى الصعوبات التي سوف نُلمع إليها.

(٢) قيمة الشهادة والاختبار في البحث في المعتقدات

الشهادة هي أصل البحث في التاريخ، والاختبار هو المرشد الهادي في مسائل العلم، وأما في أمور السحر فلا قيمة للشهادة، ولا ينتفع بالتجربة والاختبار إلا في أحوال مستثناة، فما هو السبب في رفض الشهادة حتى عند تواتر الروايات وتوافقها؟

أجيب عند ذلك بأن تاريخ أغلب حوادث السحر يثبت لنا أن ألوفًا من الشهود ذكروا أنهم شاهدوا وقوع أمور ظهر بعدئذ أن مصدرها تهوُّس الأفراد أو الجموع، ومن تلك الحوادث اتفاق الشهادات — في دعاوي قضائية عديدة أقيمت في القرون السابقة — بأن كتائب السحرة اجتمعت بالجن بين الرياح، فمع أن حوادث التاريخ قلما تجد دعائم مثل تلك تستند إليها لإثبات صحتها، فإنه لا يجرؤ اليوم أحد على المناضلة عن حوادث السحر، وليس الآن حظ المعجزات التي شاهدها مئات من الناس في القرون الغابرة بأحسن من حظ تلك من حيث صحتها وثبوت وقوعها.

وعليه يجدر بنا ألا نعتمد على الشهادات، ولا على الاختبار الفردي في درس الحوادث الخارقة، فالتلقين هو المصدر الدائم لهذه الأمور، ويؤثر التلقين في الشاهد على الخصوص بأن يجعله يتوهم أنه يحقق وقوع إحدى الحادثات، حينئذ يستحوذ الهوس عليه من كل جانب فيعتقد أنه يشاهد حقائق لا ريب في صحتها، فلْنُصْغِ إلى ما يقصه علينا المؤمنون خوفًا من أن يستولي الغم والحزن عليهم، ولكن لنجحد في أنفسنا ما يحدثوننا به من قصص الخوارق للعادة.

تتجلى لنا صعوبة البحث في الحوادث الخارقة عندما نعلم أنه ليس من السهل أن نختبر أبسط الأمور اختبارًا دقيقًا، قال الأستاذ (بونيس): «إن تحقيق الحادثة الواحدة غير هين؛ فنحن نميل بطبيعتنا إلى تشويه ما نشاهده من الأمور على رغم أنوفنا، وجَعْله ملائمًا لأفكارنا الشخصية وعاداتنا النفسية والطَّرْز الذي ننظر به إلى العالم.»

(٣) قيمة تجربة الفرد وتجربة الجماعة

بعد أن نقضنا أمر الشهادة والاختبار لم يبقَ لدينا شيء آخر سوى التجربة؛ فالتجربة سهلة في المواضيع العادية، وأما المواضيع التي يُنظر إليها من خلال المعتقد فإن التجربة في الغالب تؤيد ما فيها من خطأ وضلال بدلًا من كشف حقيقتها. نعم قد يستعين المرء بالتجربة، ولكن ما الفائدة في تطبيقها على أمور خفية غير منظورة؟ فتذرُّع الرجل بآلة يحقق بها تنقُّل الشيء في وقت يقلبه الوسيط من وراء حجاب لا يؤدي إلى تدقيق نافع.

ولصعوبة التجربة في مسائل السحر يجتمع العلماء بعضهم على بعض كي يتوصلوا إلى نتيجة حاسمة فيها، فهذا الاجتماع لا يجدي نفعًا؛ لأن العلماء وهم مجتمعون يلقن أحدهم الآخر فينقص ما فيهم من ملكة الانتقاد، وبعد أن ينخفض مستواهم النفسي على هذا الوجه ينتهون إلى نتائج غير صحيحة، ولا أظن أن اكتشافًا كبيرًا تم على يد جماعة حتى الآن، فإذا اكتُشف شيء ينير السبيل في أمر السحر فإن ذلك لا يكون إلا من قبل عالم على انفراد.

ولم يؤدِّ تحقيق أمور السحر في إنكلترا وفرنسا وإيطاليا إلى شيء جديد سوى تأييد ما ذكرناه من الملاحظات؛ أي إن الوسيط الواحد في هذه البلدان عُدَّ بحسب نفسية الحضور وقابليتهم للتأثر من التلقين إما مدلسًا، وإما بالعكس ذا قدرة كالتي عزاها الناس في الماضي إلى الشيطان، وأكثر تلك التحقيقات أهمية — سواء من جهة ما أنفق في سبيلها من مال وزمان، أو من جهة شخصية المجربين البارزة — هو التحقيق الذي قام به معهد العلوم النفسية في باريس، فعلى رغم الخمسة والعشرين ألف فرنك التي بذلها، والثلاثة والأربعين اجتماعًا التي عقدها في هذا السبيل، لم يتوصل المعهد المذكور إلا إلى نتائج ضئيلة، ولم يتفق الحاضرون على حادثات ظهرت في الاجتماعات المذكورة فينوِّروا المسألة ولو قليلًا.

(٤) ضرورة تحليل الحوادث والتدقيق في كل عنصر من عناصرها على حدته: تطبيق ذلك على حادثة الرفع

إن الفشل الذي أصاب تحقيق معهد العلوم النفسية يثبت لنا ضعف قيمة طرق البحث الحاضرة، وعندي أنه يجمل بالباحث أن يحصر نظره في تدقيق حادث واحد؛ حتى يظفر بنتيجة بدلًا من أن يشعِّب ذهنه إلى كثير من الحوادث دفعة واحدة، فلما لم يدرك أحد فائدة هذا النهج رأيت أن أطبقه بنفسي على إحدى الحادثات وهي منفردة؛ أعني حادثة رفع أحد الأجسام من غير أن يلمسه شيء، وبعد أن عاينت الوسيطة (أوزابيا) مستعينًا بالأستاذ (داستر) بقي فينا بعض الشك في أمرها، مع أنه ليس في حادثة الرفع ما يأباه العقل؛ إذ قد يتصف الوسيط بقوة خاصة يقدر بها على جذب الأشياء كما يجذب المغناطيس الحديد، غير أننا رأينا قبل أن نتباحث في شأن تلك القوة أنه يقتضي إثبات وجودها قبل كل شيء.

ولكي أدعم شكوكي في إمكان وقوع حوادث الرفع عزمت على مراجعة جميع الوسطاء الذين يزعمون أنهم قادرون على رفع الأشياء من غير لمس، فخصَّصت مع

البرنس (رولان بونابارت) أحد أعضاء مجمع العلوم، والدكتور (داريه) مدير مجلة العلوم النفسية جائزة قدرها ألفا فرنك تُعطى للوسيط الذي يستطيع أن يرفع شيئًا دون أن يمسه، وقد نشرت خبر هذه الجائزة مع مقالة في جريدة (الماتن) التي هي من أهم الصحف ليطلع عليها الوسطاء، فتناقلت أكبر جرائد العالم تلك المقالة.

إن التجربة التي اقترحتها ستكون دليلًا قاطعًا لا جدال فيه عند تحققها؛ لأنني اشترطت أن تقع نهارًا في مختبر الأستاذ (داستر) في كلية الصوربون، وفي حضرة اثنين من المشعوذين وفوطوغرافي لأخذ تفاصيل التجربة بالصور المتحركة، وأربعة من أعضاء المجمع العلمي؛ ليكونوا شاهدين على الكيفية التي تقع بها التجربة فقط.

ولم يكن الاعتراض على تلك الشروط بأن حوادث الرفع لا تقع إلا في الظلام بعد أن صرَّح أكثر السحرة في الوقت الحاضر بأنهم لا يرون فرقًا في ذلك بين الليل والنهار، وبعد أن نَصَّ الموسيو (ماكسويل) في كتابه على إمكان وقوع حوادث الرفع في وسط النهار، وبعد أن قال الموسيو (بواراك) مدير المجمع العلمي في (ديجون) إنه جذب خوانًا مرات عديدة في النهار دون أن يمسه، ولماذا لم يسعَ الموسيو (بواراك) في نيل جائزة ألفي الفرنك وفيه تلك القدرة؟

إعلاني للجائزة المذكورة أدى إلى أخذي بضع مئات الرسائل، إلا أنه لم يحضر لكسبها سوى خمسة وسطاء، وقد أخبرتهم بالشروط المذكورة آنفًا، وعاهدتهم على إقامة الاجتماعات التي يطلبونها، فوعدوني جميعهم بالحضور في اليوم المعين، ولكن لم يأتِ أحد منهم في الأجل المضروب.

ومع أن الوسيطة (أوزابيا) عجزت عن إمالة كفة ميزان الرسائل بعد أن روقبت مراقبة جدية، فإن مستخدمي الأرواح لا يزالون يدَّعون مؤكدين بأن الوسطاء يقدرون على رفع ما وزنه مائتا كيلو من غير لمس، قال الأستاذ (مورسيلي): «لا شك في صحة حادثة رفع الأخونة، فالخوان قد يرتفع دون أن يمس، ويبقى معلقًا مدة ثمان وسبعين ثانية، على هذا الوجه استطاع وسيط شاب شاعر أن يحرك خزانة وزنها ١٨٠ كيلو.»

وإنا لنأسف على كون الشاعر الشاب — الذي استطاع أن يزحزح ١٨٠ كيلو من غير أن يمسها — لم يسعَ في نيل جائزة ألفي الفرنك برفعه بضعة غرامات فقط.

وأظنني أتيت بخدمة جليلة بإثباتي ندرة حوادث الرفع على فرض تسليمنا بإمكان وقوعها، وهو أمر لم نعثر قط على ما يؤيده.

وقد أراد معهد العلوم النفسية أيضًا أن يحقق حوادث الرفع فعانى كثيرًا من المتاعب في ذلك السبيل، ومن دواعي الأسف أن ما أتى به من التجارب والصور المؤيدة لتلك الحوادث لا تقنع أحدًا.

وما أسعد حظ علماء إيطاليا، فقد رأوا أيديًا روحانية ترفع الوسيطة (أوزابيا) في الهواء، وبعد أن نال (لومبروزو) شرف المحادثة مع شبح أمه أيقن بصحة ما وقع، وهذا ما قاله في حديث نشرته جريدة (الماتن): «نعد صعود (أوزابيا) — التي كانت جالسة مربوطة اليدين والرجلين ربطًا وثيقًا — على الخوان رويدًا رويدًا من الأمور الخارقة للعادة، وما رأينا في أثناء صعودها سوى يدين روحانيتين آخذتين بإبطيها لتساعدها على ذلك.»

غير أن الروح التي أعانت بيديها الروحانيتين (أوزابيا) على رفع نفسها، أو على رفع أخونة ثقيلة بسهولة لم تعضداها عندما أخذ بعض المرتابين يفحصون الأمر فحصًا جديًّا، كانت هذه الوسيطة تميل في معهد العلوم النفسية كفة ميزان الرسائل دون أن تمسها، فأخذ الحضور يعتقدون صحة ذلك، وفي تلك الأثناء لاح لأحدهم أن مصدر الميل ناشئ عن شعرة تمسكها الوسيطة بين أصابعها، فكسى الكفة وسائر الميزان بسواد الدخان ليظهر عليه كل أثر للشعرة عندما تمسه، ومنذ تلك اللحظة لم تستطع (أوزابيا) أن تحرك كفة الميزان ولو مرة واحدة من غير أن تلمسها.

وقد جربت (أوزابيا) أن تغير وزنها أمام معهد العلوم النفسية، وفعلًا دل الميزان على نقص في الوزن غير قليل، إلا أنه ثبت أنها بيديها في عقرب الميزان.

ثبت مما تقدم أن حادثة الرفع التي هي أبسط ما يحدِّث عنه مستخدمو الأرواح ليست حقيقية، وما أتينا به من البحث والتدقيق في المذهب الروحاني لم يخلُ من فائدة، فقد دلنا على انتشار دين جيد اعتنقه عدد غير يسير من أفاضل العلماء الذين لم يستطيعوا العيش من غير أن يتمسكوا بأحد المعتقدات، فالآلهة قد تزول أحيانًا، ولكن النفسية الدينية لا تموت أبدًا.

(٥) من هو جدير بالبحث في الأمور الروحانية؟

الآن أصل إلى مسألة ذات بال يجب الإسهاب في بيانها؛ وأعني بها وصف الأشخاص الذين يستطيعون أن يحققوا الحوادث الروحانية.

فمن الخطأ الشائع بين الناس زعمهم أن العالم الاختصاصي قادر على اختبار أمور بعيدة من دائرة معرفته، ولا سيما الأمور التي للوهم والتدليس شأن كبير فيها، فالعلماء لَمَّا كانوا عائشين خالصي النية، صادقي الطويَّة، موطِّنين أنفسهم على تصديق ما يشاهدونه بمساعدة آلاتهم الفنية، أصبحوا بالحقيقة أكثر الناس تعرضًا للحيلة والخداع، أثبت ذلك بالمثال الآتي الغريب الذي نشرته مجلة «تقاويم العلوم النفسية»، وإليكه:

> دعا الموسيو (داقي) إليه عددًا غير قليل من كبار أهل النظر، وفيهم عالم من أشهر علماء إنكلترا هو المستر (والاس)، وقدم لهم أشياء لمسوها بأيديهم، وختموها كما شاؤوا، ثم أجرى أمامهم جميع ظواهر هذا الفن من تجسيم الأرواح والكتابة على السبُّورة وغيرهما، وكتبوا له شهادات قالوا فيها: إن المشاهدات التي وقعت أمامهم لا تنال إلا بقوة فوق قوة البشر. فلما صارت الشهادات في يده قال لهم: إن ما فعله شعوذة بسيطة جدًّا. قال راوي الحادثة: والذي يوجب الدهش والاستغراب في بحث الموسيو (داقي) ليس إبداعه ومهارته في الحركات التي قام بها، بل ضعف الشهادات التي كتبها أولئك الشهود الذين كانوا يجهلونها، فقد ذكروا روايات كثيرة واقعية كلها خطأ، ولو صح وصفهم الحوادث التي يروونها لتعذر تفسيرها بالشعوذة، على أن الطريقة التي استنبطها الموسيو (داقي) بسيطة يدهش الإنسان لبساطتها من جرأته على استعمالها، ولقد كان له من التأثير في أفكار جماعته ما جعلهم يرون ما لم يروا.

ذلك شأن التلقين على الدوام، فتأثيره في ذوي النفوس السامية الذين يتذرعون مقدمًا بالحذر والاحتراز يثبت ما له من السلطان الكبير.

إذن لا يقدر العلماء أن يحققوا حوادث استخدام الأرواح تحقيقًا شافيًا؛ فأولو النظر الذين يستطيعون ذلك هم الذين تمرنوا على خلق الأوهام وإيقاع الناس فيها؛ أعني المشعوذين. وإنا لنحزن على كون معهد العلوم النفسية لم يدرك ذلك، فلو استعان هذا المعهد ببعض المشعوذين لما أنفق خمسة وعشرين ألف فرنك في سبيل تجارب لا طائل تحتها.

ومن الأمور المعلومة أن المؤمنين يرتابون بالمشعوذين ارتيابًا شديدًا؛ خوفًا من تبديد ما ران على قلوبهم من الأوهام، فلما اقترح الأستاذ (بينيه) على معهد العلوم

النفسية إحضار مشعوذين ماهرين لكشف الغطاء عما استحوذ على النفوس من الأضاليل، عدل المعهد المذكور عن دعوته لحضور الاجتماعات كما جاء في رسالة أرسلها ذلك الأستاذ إليَّ.

ولا يسعنا إلا أن نأسف على كون ذلك المعهد لم يرتَحْ إلى دعوة المشعوذين، وإلا فما هي العلة التي تبرر رفض المعهد المذكور للاستعانة بأولئك المشعوذين الذين هم وحدهم يقدرون على إبطال عمل الحيل؟ وكيف لم يشعر أعضاء اللجنة بضرورة الاستفادة من خبرة أناس تعودوا إيهام الناس؟ ولقد أثبت الإنكليز أنهم على جانب كبير من الصواب؛ إذ اختارت جمعية المباحث النفسية في إنكلترا مشعوذًا يسمى (مسكلاين) لاكتشاف حقيقة الوسيط الذي اختبره معهد العلوم النفسية في باريس، فأثبت هذا المشعوذ تدليس ذلك الوسيط.

حقًّا إن طرق البحث في الحوادث الخارقة تتطلب شروطًا خاصة كما بيَّنت، فلما جهل كبار أهل النظر هذه الشروط وقعوا في ضلال مبين.

الفصل الرابع

بحث في بعض الحوادث اللاشعورية التي هي مصدر المعتقدات

(١) تأثير الإيمان في الأعضاء والشفاء

سأذكر بين المباحث القائمة على التجربة تأثير بقايا أجساد القديسين، والحج، والمياه ذات المعجزات ... إلخ، والمؤمنون من كل دين يسلِّمون بأن هذه الأشياء قادرة على الشفاء، يؤيد ذلك ما عُلِّقَ على جدران معابد الآلهة من الذخائر المنذورة منذ القرون الغابرة.

ومن المحقق أن حج ألوف من المؤمنون سواء إلى (مكة)، أو إلى (لورد)، أو إلى ضفتي نهر (الغانج) لم يكن عبثًا في كل وقت، فعندما يحرك الإيمان الشديد قوى اللاشعور الخفية تبدو هذه القوى في الغالب أشد تأثيرًا من الوسائل التي يتذرع بها علم الطب لمداواة الأمراض، ومما أعتقد أنه يفتح أفقًا واسعًا غير منتظر في علم وظائف الأعضاء هو إيضاح درجة تأثير التلقين الناشئ عن الصلوات، وبقايا أجساد الأولياء، والتعاويذ، والتمائم، في الأعضاء.

لا ريب في أن هذا البحث المهم لا يكون جديًّا قبل أن يمضي وقت كبير؛ إذ لم يبحث حتى الآن عن الشفاء القائم على تأثير الخوارق غير أناس مرتابين متصلبين في ارتيابهم، أو مؤمنين أعمى الإيمانُ بصائرَهم، فيما أن هاتين الصفتين متساويتان في شل قوة الاختبار في الإنسان، ولا يلبث المرتاب في تلك المواضيع أن يكون في بعض الأحيان معتقدًا من حيث لا يشعر، لم يسهل الوصول إلى حقائق واضحة فيها.

ولقد بقيت جميع تلك الأمور — وهي مجحودة، أو مسلَّم بها على غير دليل تجريبي — مُقْصَاة في ميدان المعتقد غير جديرة بالاهتمام، وما كان يلوح للأعين شيء

أكثر استحالة من تحقيق وعود المبشرين القائلين بتأثير المياه، والمساحيق العجيبة، وبقايا القديسين، وخواتم السحر ... إلخ.

إلا أن المباحث العصرية في التلقين دلتنا على أن تلك المزاعم ليست عبثًا؛ إذ أدت في الغالب إلى شفاء في الجسم، وزيادة في قوته، ومنحت القلوب شجاعة، وأحيت في النفوس آمالًا، وهكذا ظهر لنا أن الحقائق العلمية ليس فيها ما في الأضاليل من فائدة في بعض الأوقات.

وهل في الأعضاء من قوى مجهولة تعمل عملها بتأثير الخيال؟ لم يستطع أحد حتى الآن أن يجيب عن هذا السؤال جوابًا قاطعًا، ومع ذلك يمكننا أن نأتي بالفرضية الآتية، وهي: أن الخيال لمَّا كان صادرًا عن أحوال عضوية فإن استمراره قد ينعكس على تلك الأحوال فيؤثر فيها، ولهذا يكفي لنيل الشفاء إحداث خيالات نفسية شديدة.

وقد عُلم ذلك الأمر منذ زمن بعيد، فقد أشار الفيلسوف الإيطالي (بومبانازي) في رسالة نشرها سنة ١٥٢٥ إلى أن عظامًا للحيوانات بيعت على أنها من أجساد القديسين المشهورين كانت تشفي الناس كعظام هؤلاء القديسين الحقيقية، ثم إن الشفاء بفعل الإيمان قد استعان به الطبيب الشهير (شاركو) في أيامنا الحاضرة مرات عديدة.

(٢) الأوهام الناشئة عن تلقين الفرد وتلقين الجماعة

للتلقين سلطان عظيم على النفوس، فبه آمن مدة سنتين أفاضلُ علماء الطبيعة — الذين أشرنا إليهم آنفًا — بوجود أشعة خاصة لم تلبث أن اختفت بعد أن علموا أنها عبارة عن أوهام، وهو الذي يجعل الناس يسلِّمون بصحة حوادث مستحيلة كتجسيم الأرواح بغتةً، على هذا الوجه اعتقد الكيماوي الشهير (كروكس) خروج شبح (كاتي كينغ) من الوسيطة، مع أن هذا الشبح لم يكن غير الوسيطة نفسها، وقد قُبض أخيرًا على هذه الوسيطة في برلين عند ارتكابها جرم التدليس الذي كانت بمثله أوهمت العالم الإنكليزي المشار إليه.

أفلا يوجد في العالم أناس ذوو قدرة عظيمة على التلقين يستطيعون أن يؤثروا بها فيمن يحيط بهم من الناس تأثيرًا كبيرًا؟ يظهر أن بعض الحوادث تؤيد ذلك، ومنها حوادث الرفع التي يأتي بها الوسطاء أمام الجمهور قائلين إنهم اقتبسوها من دراويش الهند.

وللتلقين في الأمور الروحانية تأثير عظيم إلى الغاية، وقد اعترف بذلك دعاة المذهب الروحاني أنفسهم، فقد قال (ماكسويل): «يلقن الحاضرون بعضهم بعضًا، فلا يلبثون أن يكون عندهم هوس جامع، ومما سمعته أن أحد الحضور أشار إلى أنه يرى نورًا في جهة معينة، فالتفت الباقون ورأوا ما رآه، ثم أعلن رجل أنه يشاهد صورة فشاهد الآخرون ما شاهده. هذا هو هوس الجماعة، وقد أيدت لي تجاربي الشخصية أن حاسة البصر هي أكثر الحواس استعدادًا لقبول الانطباعات الوهمية.»

للتلقين في بعض الأحيان تأثير خارق، فقد بلغ في إغوائه للسحرة في القرون الوسطى مبلغًا جعلهم يرضون مطمئنين بحرقهم كتكفير عن خطيئاتهم الخيالية، ويلوح لنا أن مزاج المختبرين النفسي في الوقت الحاضر — ومنه أفاضل العلماء — يقرب من مزاج أولئك السحرة من هذه الجهة؛ لأننا على رغم ادعائهم بأنه لا سبيل للوهم فيهم إلا في أحوال شاذة نراهم عاجزين عن التفلت من حكمه، فليس من الهين أن يتحرر الإنسان من ربقة المعتقد، وكلما حاول ذلك عاد إليها بفعل التلقين الذي يستولي على عقله وبصيرته.

وقد أوضح الأستاذ (غراسيه) هذا الأمر إيضاحًا جيدًا حيث قال: «إن من الأمور الغريبة ما يطرأ على المختبرين من أحوال غير طبيعية عندما يحاولون درس ذلك، فبعد أن أوضح (لومبروزو) في مذكراته تجارب علمية دقيقة في أمور الطب أخذ يشرح فيها صحة ظهور الأموات ومناجاتهم ورفع الأشياء من غير أن تُمس كدوران (هوم) حول نوافذ أحد القصور دورانًا أفقيًّا من دون أن يلمس شيئًا، وكركض أخوي (روفو) الصغيرين خمسة وأربعين كيلومترًا في مدة لا تزيد على خمس عشرة دقيقة، وكتقمص الأرواح لقسم من جوهر الوسيط تقمصًا مؤقتًا كي تبدو تامة الأعضاء، وهكذا نرى أن خيرة العلماء ينسون قواعد العلم ومناهجه حينما يكونون إزاء حوادث السحر.»

ولكن هذا الاستعداد النفسي يختلف باختلاف الأفراد والشعوب، فقد أتى الوسيط الواحد بنتائج مختلفة في إنكلترا وفرنسا وإيطاليا؛ أي إن هذه النتائج كانت كالعدم في إنكلترا، ومتوسطة في فرنسا، وباهرة في إيطاليا.

ويتجلى ما لتلقين بعض الوسطاء للحضور، ومنهم العلماء، من التأثير الكبير بمطالعة تقرير معهد العلوم النفسية في باريس الباحث عن الوسيطة (أوزابيا)، وإليك المثال الآتي الذي ننقله منه: «رَجَتْ الوسيطة (أوزابيا) الموسيو (دارسونڤال) أن يرفع الخوان المستدير، فرفعه بسهولة، ثم منعته من الرفع فلم يقدر على زحزحته، ثم

وضعت يدها على الخوان فرفعه بدون صعوبة، ثم قالت للخوان: كن خفيفًا، فرفعه على وجه أسهل من ذي قبل.»

تثبت هذه التجربة تأثير بعض الوسطاء في الناس بواسطة التلقين، ومع ذلك سألتُ مستغربًا عن تسليم ذلك العضو في المجمع العلمي بأن أحد الناس قد يكون ذا قدرة خارقة يستطيع أن يغير بها وزن الأجسام تغييرًا متفاوتًا إلى الغاية من دون أن يخطر بباله أن يحقق الأمر بالميزان. نعم حاول معهد العلوم النفسية أن يعيد تجاربه مرة أخرى، إلا أنه أجراها في أحوال اعترف بأنها لا تنشئ طمأنينة في النفس، فمثل تلك الحادثة يقتضي تكريرها ألف مرة لا مرة واحدة.

ويحتمل أن الوهم قد استحوذ على الموسيو (دارسونڤال) عندما تصور بتأثير تلقين (أوزابيا) أنه حقق تغيير وزن الشيء الواحد كما استحوذ عليه وقتما توهم وجود أشعة (N)، فألقى عنها محاضرة حماسية قال فيها بصحة جميع حوادثها المزعومة، فالسهولة التي لُقِّن بها جميع علماء الطبيعة الفرنسويين فيما يتعلق بتلك الأشعة هي من الأدلة البارزة التي يُستدل بها على عظم شأن التلقين في تكوين المعتقدات.

(٣) تحول الأرواح الفردية إلى روح جامعة

إن مبحث تكوُّن روح الجموع هو أحد مباحث علم النفس الغامضة التي يجب الاكتفاء إزاءها بالملاحظة والمشاهدة، وما يمكننا أن نقوله في ذلك هو أن الجموع ذات وحدة في المشاعر لا في الذكاء، وما في المشاعر من الاستعداد للانتقال بالعدوى يوضح لنا السبب في كون الناس عندما يجتمعون يكتسبون ما تتصف به الجماعة من صفات وأخلاق؛ أي تتكون في الاجتماع المذكور روح جامعة على الفور، فيظهر فيه زعيم ومسوسون.

وما هو كنه تلك العدوى؟ إشعاع ذو طبيعة خاصة أم شيء آخر؟ يستحيل علينا أن نجيب عن ذلك، ويصعب علينا أيضًا أن نكتشف طريقة تجريبية تؤدي إلى حل المسألة المذكورة، فتكوين روح الجماعات وتطورها وانحلالها عبارة عن ألغاز في علم النفس، وكل ما يقوله علم النفس هو أن روح الجموع ذات تأثير جوهري في حياة الأمم.

(٤) انحلال الذات

تكلمت عن هذه الحادثة في فصل سابق، فعندي أن الذات هي ثمالة تنتقل بالإرث ملتحمة الأجزاء على قدر الإمكان، إلا أن كثيرًا من المؤثرات كالتنويم المغناطيسي، وملازمة الوسطاء، والحوادث الثورية الشديدة … إلخ، تحل تلك الثمالة فتتألف من أجزائها ذاتٌ جديدة مؤقتة، تختلف بأفكارها وأقوالها وأعمالها عن الذات الأصلية اختلافًا تامًّا، وقد طبقت هذه النظرية على بعض رجال الثورة الفرنسوية الذين لم يبدُ منهم قبل نشوبها ما يدل على ما سيقترفونه فيها من الآثام، والذين لم يدركوا كنه المحرض على ذلك بعد سكونها.

الفصل الخامس

كيف تستقر النفس في دائرة المعتقد؟ وهل من حد للسذاجة وسرعة التصديق؟

(١) معرفة العلماء ومعتقدهم

أود أن أزيد الأدلة التي جاءت في هذا الكتاب إثباتًا وتأييدًا، ولذا أبحث بحثًا موجزًا عن الكيفية التي يترك بها أرباب الملكات العلمية دائرة المعرفة عندما يدخلون دائرة المعتقد بفعل أنواع المنطق التي شرحناها في الفصول السابقة.

لإدراك السبب في كون كثير من أكابر العلماء الذين تعودوا تجارب العلم الوثيقة لا يلبثون أن يؤمنوا ببعض الخوارق كتجسيم الأرواح، يجب ألا ننسى أن المنطق العقلي والمنطق الديني يبقيان في النفس الواحدة مهما تكن، فدوائر العقل والتدين والعاطفة مستقلٌ بعضها عن بعض، وتكون مصادر الإيمان مختلفة بحسب الانتقال من إحدى تلك الدوائر إلى الأخرى.

إن الارتياب في دائرة العقل هو القاعدة، ولا دليل فيها غير التجربة والاختبار، وأما في دائرة المعتقد حيث يسيطر المنطق الديني فلا حد للسذاجة وسرعة التصديق، ولكن كيف يترك العالم المرتاب دائرة العقل ليدخل في دائرة المعتقد؟ يدل الواقع على أنه يدخل فيها غير مختار، وإن كان لا يعدل عن تجاربه، وبما أن الإيمان يدخل في قلبه على وجه غير شعوري من حيث لا يعلم فإن تجاربه تتطور على شكل يتأيد به إيمانه الجديد، وتسير على ما لا يلائم معتقده لا إرادته، يؤيد ذلك تاريخ الأديان المفعم بخوارق العادات.

(٢) كيف يصبح العالم مؤمنًا؟

لنفرض أن عالمًا كثير الشك والارتياب أراد أن يبحث في حوادث السحر بحثًا تجريبيًّا، فيجب عليه قبل كل شيء أن يلازم مكان السحرة حيث تتجلى تلك الحوادث؛ أي أن يزج بنفسه بين أناس مجتمعين في وسط مظلم، وبعد أن ينتظر طويلًا يسمع ضوضاء وزُحولًا في الأمتعة، ويؤكد له مجانبوه أنهم يرون وميضًا وصورًا تقمصتها أرواح … إلخ، ولما كان هذا العالِم متصلبًا في ارتيابه فإنه يخرج من دون أن يطرأ شيء على شكوكه.

ومع ذلك فإن أمورًا تقرع ذهنه بعد الاجتماع المذكور فيلوح له أنه سمع فيه ضوضاء غريبة، وأن مجانبيه — وهم من أشرف الناس — رأوا وميضًا، وشاهدوا الأمتعة تنتقل من غير أن يمسها الوسيط، فيرغب في الحضور مرة أخرى للبحث عن أسباب تلك الحوادث.

ويعود إلى الاجتماع فيكون هدفًا للتلقين والعدوى النفسية، ثم تستحوذ عليه الوساوس والشبهات، فيرى أنه لا بد من أن يكون شيء خلف الحوادث المذكورة التي سلَّم بصحتها عدد غير قليل من العلماء، ثم يعود إلى الاجتماع مرات عديدة فتستأنف تلك المؤثرات النفسية عملها فيه؛ فيتدرج إلى فقد ارتيابه حتى تغيب مَلَكة الانتقال فيه، فيدخل في دائرة المعتقد راسخ الإيمان.

ومع أن ذلك التدرج دليل على تقهقر منطقه العقلي لا يعترف بالواقع فيأتي بتجارب جديدة مستعينًا بآلاته وأدواته العلمية، وينصب حبائل لاصطياد الأشباح، ولكن لما كانت الأشباح أمرًا لا تناله يد المراقبة فإن تجارب العلم قلما تنجح في شؤونها، حينئذ يكتفي العالم بظواهر الأمور، وتفوته عوامل التدليس مهما تكن ظاهرة، وهكذا حتى يتم قهر منطقه العقلي، فيعلن العالم إيمانه بالمعتقدات الجديدة على رؤوس الأشهاد. على هذه الصورة تمت مباحث كثير من العلماء في الوقت الحاضر، ومن هؤلاء العلماء الأستاذ الشهير (لومبروزو) الذي كان شديد الارتياب عندما باشر تدقيقاته فأصبح شديد الإيمان في نهاية الأمر، كما يشهد بذلك كتابه الأخير.

تبين مما سبق كيف أن العلم لا يقدر على تحرير الإنسان من أوهام المعتقد، ولو طبقنا أحكامنا على انتشار الأديان التاريخية لاتضح الأمر أكثر من تطبيقها على أمور السحر، فالأديان تذيع في الغالب بين أناس بسطاء عاطلين من مَلَكة النقد، عاجزين عن التعقل والتجربة والاختبار، وفي هؤلاء الناس قد تؤثر عوامل الإيمان ولا سيما النفوذ

والعدوى النفسية أكثر مما تؤثر في العلماء الذين يتذرعون بوسائل يمكنها أن تقيهم فعل هذه العوامل، نقول قد تؤثر لأننا نعلم أن العالِم والجاهل وإن اختلفا من الوجهة العقلية يتقاربان من الوجهة الدينية والعاطفية في أغلب الأوقات، وقلما تكون معتقدات العالم الشهير الدينية والسياسية والاجتماعية أعلى من معتقدات أحقر الرعاة.

(٣) حدود السذاجة وسرعة التصديق

يدلنا هذا الفصل والفصول السابقة على أنه لا حد للسذاجة وسرعة التصديق في ميدان المعتقد، وأنه لا فرق فيه بين العالم والجاهل، فالعالم الذي يشك في الكسور العشرية قد يؤمن من غير صعوبة بخروج محارب على رأسه خوذة من جسم أحد الوسطاء، وبمشيه في إحدى القيعان، وبتعريضه نفسه للحضور كي يجسُّوا نبضه ويعتقدوا أنه ليس شبحًا فارغًا، أو غازًا لا يمكن مسه.

ولا قرار لسرعة التصديق والسذاجة؛ فقد جاء في عدد من مجلة استخدام الأرواح التي يديرها أحد أساتذة كلية الطب في باريس ما يأتي:

أولًا: حكاية وسيط رفع ساعة كبيرة من غير أن يمسها.

ثانيًا: صورة بعض الأرواح.

ثالثًا: البحث عن جنٍّ يسكنون الغابات.

رابعًا: قصة أربعة أشباح أنشدت نشيد «المرسيلياز» ... إلخ.

إذن لا يفضُل العالمُ الجاهلَ من حيث سذاجته وسرعة تصديقه، فالسذاجة المتناهية هي حال نفسية قد تهيمن علينا جميعًا عندما نخرج من دائرة المعرفة لندخل في دائرة المعتقد.

حقًّا إن بضاعة العلم مزجاة، فهو لا يوضح لنا سوى عدد يسير من الأسرار المحيطة بنا، إلا أنه يقول إن الحوادث تابعة لنواميس ثابتة غير متقلبة.

وما تخلص البشر من الهمجية النفسية إلا بعد أن ضرب بالخرافات والأساطير القديمة عرض الحائط، وصار لا يخاف سلطان المشعوذين والخوارق والسحرة، ولم يكتشف مستخدمو الأرواح في كل جيل حقيقة مجهولة مع أن طرق العلم ومناهجه تُخرج من العدم عالمًا مؤلفًا من العجائب، فلنترك زمر الأشباح والأرواح التي هي بنات الليل إلى أرباب النفوس المريضة، ولننظر إلى النور الذي يتبدد أمامه جيش الظلام.

لا جدال في هذه النتائج، غير أنها لم تحلَّ المشكلة من جميع وجوهها، فجميع الناس في كل زمن سكبوا في قالب المعتقد الذي هو ضروري لحاجات النفس الأبدية؛ ذلك لأن العلم يحرم على نفسه الخوض في مصير الدنيا، مع أن النفس ترى مثلها الأعلى وآمالها في هذا المصير، فالنفس تقرع على الدوام باب حصن الأسرار الحصين أملًا في اكتشاف سبب الأشياء ومصيرها، وبما أنها لم تقدر حتى الآن على فتح ذلك، فإنها ملأت الحصن المذكور بأوهام وأحلام.

فلا نقل ببطلان تلك الجهود؛ لأن المعتقدات التي هي بنتها قد أورثت القلوب سلوانًا، وأنارت لها سُبل الحياة، وها هو العلم القليل التسامح في الماضي أخذ يحترم المبادئ الخارجة عن منطقة نفوذه، فالعلم والمعتقد — أي العقل والمشاعر — ينتسبان إلى معقلين مستقلين لا يؤثر أحدهما في الآخر.

والعالم الذي سوف يعالج هذا الموضوع بعد ألف سنة لا أدري كيف يرى نفسه إزاء حوادث مشابهة لحوادث الوقت الحاضر، أفيأتي ببيان صريح عن علة العلل أم لا؟ وإنما لا أشك في أنه سينص على آلهة ومعتقدات جديدة مهيمنة على البشر الذي لا غُنية له عنها.

الخلاصة

إن من أهم المسائل الأساسية التي أشرنا إليها في أوائل هذا الكتاب هو البحث عن الكيفية التي يؤمن بها أولو العقول الراجحة في كل جيل بمعتقدات لا يؤيدها دليل، ولو كان أمر المعتقد إراديًّا عقليًّا كما جاء في رسائل علم النفس سابقًا لما مست الحاجة إلى طَرْق باب ذلك البحث، غير أن تحليل العناصر التي يقوم عليها المعتقد، وثبوت كونه غير شعوري قائمًا على مبادئ دينية عاطفية مستقلة عن العقل والإرادة قد فتح بابًا جديدًا للدرس والتنقيب.

وإذا لم يكن العقل منشأ المعتقد فإنه لقادر على المجادلة في أمره واكتشاف ما فيه من خطأ وضلال، ومع ذلك نسأل: لماذا يهيمن المعتقد على الناس على رغم مناقضته لأكثر الأدلة وضوحًا والمعقولات جلاءً؟ وقد أجبنا عن هذا السؤال عندما بحثنا عن تأثير بعض العوامل — أي النفوذ، والتوكيد، والتكرار، والتلقين، والعدوى — في ميدان اللاشعور، فهذه العوامل التي لا سلطان للعقل عليها تؤثر حتى في العقل، وتمنعه من الاعتراف بالبديهيات.

وقد أثبتنا قدرة هذه المؤثرات على تكوين المعتقدات ببياننا عملها في أعرق الناس علمًا؛ إذ رأينا كثيرًا من علماء الطبيعة الماهرين يفحصون فحصًا تجريبيًّا أشعة تكونت في مخيلتهم بفعل التلقين، وشاهدنا علماء هم أعضاء المجمع العلمي يعرضون مبلغًا وافرًا جائزة لمكتشف تلك الأشعة التي لم تلبث أن ظهر بطلانها حينما تخلص بعض الخبراء من ربقة التلقين، فصاروا لا يرون طيفه، وقد أوردنا عليه كثيرًا من الأمثلة.

والفرق الوحيد بين المعتقد العلمي الناشئ عن تلك المؤثرات والمعتقدات الدينية والسياسية والروحانية الصادرة عنها أيضًا هو أن الخطأ في المسائل العلمية يزول

سريعًا بحلول المعرفة مكان المعتقد، مع أن الاختبار والعقل والتجارب تبقى لا عمل لها إزاء المبادئ العاطفية والدينية.

ثم حققنا أنه لا حد للسذاجة وسرعة التصديق في ميدان المعتقدات الروحانية، وأنه لا فرق في ذلك بين العالم والجاهل، وأرجو أن أكون — بإثباتي كيف يؤمن أصحاب النفوس العالية بمعتقدات لا فرق بينها وبين أساطير الأولين — قدرت على إيضاح حال روحية لم تشرحها رسائل علم النفس حتى الآن.

وهكذا توصلت إلى ناموس فلسفي مهم، وهو أن مبادئنا تشتق من أنواع المنطق المختلفة لا من مصدر عقلي مشترك، فمن تغلُّب أحد هذه الأنواع على الأخرى، أو من تصادمها، ظهرت أكبر حوادث التاريخ.

وريثما يكتشف العلم حقائق الكون الثابتة المستترة خلف ظواهر الأمور يجب علينا أن نكتفي بالحقائق التي تستمرئها نفوسنا الآن، فكل ما نعرفه حتى الوقت الحاضر هو أننا مسيرون بثلاث حقائق «أعني: الحقائق العاطفية، والحقائق الدينية، والحقائق العقلية»، وأنه لا قياس مشترك بين هذه الحقائق الصادرة عن أنواع المنطق المختلفة.